العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

سلسلة دراسات كلامية

المعاد في القرآن

المجلد الأول

المرجع الديني
الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

ترجمة
الدكتور علي الحاج حسن

سلسلة دراسات كلامية

المعاد في القرآن

(المجلد الأول)

المرجع الديني الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

ترجمة:

الدكتور علي الحاج حسن

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

جوادي آملي، عبد الله، 1350 هجري- مؤلف.
المعاد في القرآن. الجزء الاول / المرجع الديني الشيخ عبد الله الجوادي الاملي ؛ ترجمة الدكتور علي الحاج حسن.-الطبعة الأولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٤ هـ. = ٢٠٢٣.
مجلد ؛ ٢٤ سم.-(سلسلة دراسات كلامية)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
١. المعاد في القرآن. أ. الحاج حسن، علي، مترجم. ب. العنوان.

LCC : BP134.R4 J39 2023
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

المعاد في القرآن (المجلد الأول)

تأليف: المرجع الديني الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

ترجمة: الدكتور علي الحاج حسن

الناشر: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيَّة

الطبعة: الأُولىٰ، ٢٠٢٣م

Website: www.iicss.iq
E-Mail: islamic.css@gmail.com
Telegram: @iicss

المحتويات

مقدمة المركز ١٥

الفصل الأوّل: ذكر المعاد ١٧

ارتباط ذكر المعاد بذكر المبدأ ١٧

دور ذكر القيامة في تهذيب الإنسان ١٨

ذكر المعاد أفضل جائزة للأنبياء ١٩

القيامة وعلاقتها بهدف البعثة ١٩

دور ذكر القيامة في الجهاد ٢٠

ذكر المعاد أفضل أسباب بناء الإنسان ٢٢

موانع ذكر المعاد ٢٤

دور المحاسبة في ذكر المعاد ٢٦

سيرة الرسول الأكرم في ذكر المعاد ٢٨

رسول الله ومعرفة المعاد ٣٠

المعاد وسيرة أولي الألباب التوحيديّة ٣٣

أسباب الكفر بالمعاد ٣٧

ذكر المعاد ودوره في الأخلاق ٣٩

الفصل الثاني: الدنيا والآخرة ٤١

معنى الدنيا والآخرة ٤١

تعريف الدنيا في القرآن ٤٣

الدنيا ومراحلها الخمس ٤٣

الدنيا الممدوحة والمذمومة ٤٦

صفة الدنيا عند أمير المؤمنين عليه السلام ٤٧

كلام أمير المؤمنين عليه السلام مع أصحاب القبور ٤٩

إحكام الخلق ٥٠

مراحل الحياة ٥١

زينة الدنيا وزينة الآخرة ٥٢

الدنيا أداة امتحان ٥٣

مريدي الدنيا ومريدي الآخرة ٥٥

المجموعات الثلاث للمؤمنين بالآخرة ٥٦

التقابل بين الدنيا والآخرة ٥٧

تجارة منزل الدنيا ٥٩

المعبر والمستقرّ ٦١

مراحل الحياة ٦٣

الفصل الثالث: منكرو المعاد ٦٥

شبهات منكري المعاد ٦٥

حكم العقل ٧٠

الفصل الرابع: إمكان المعاد ٧٣

إمكان المعاد في البرهان والقرآن ٧٣

قصّة أصحاب الكهف ٨٣

الفصل الخامس: ضرورة ووقوع المعاد ٩٠

إثبات المعاد ببراهين التوحيد ٩٠

١. برهان التوحيد ٩٢

٢. برهان الصدق ٩٣

٣. برهان الفطرة ٩٥

عشق الحياة الأبديّة ١٠٠

٤. برهان الحركة والهدفيّة ١٠١

٥. برهان الحكمة ١٠٤

نقاط حول برهان الحكمة ١٠٦

٦. برهان الرحمة ١٠٧

٧. برهان الحقيقة ١٠٨

مسائل حول برهان الحقيقة ١١٠

٨. برهان العدالة ١١١

٩. برهان تجرّد الروح ١١٣

الفصل السادس: الموت، القبر والبرزخ ١٢١

مصطلح الموت والقبر ١٢١

الموت في ثقافة القرآن الكريم ١٢١

الموت في الروايات ١٢٢

موتتان وحياتان ١٢٤

قانون الموت العام ١٢٦

رأي الشيخ الطوسي ١٢٨

توّهم شبهة ١٢٩

بقاء وجه الله ١٣٠

حضور الموت ١٣١

كيفيّة موت المؤمنين والكافرين ١٣٣

سلوك الملائكة عند الموت ١٣٦

بيان وتفسير العلاّمة المجلسي ١٣٩

عدم قبول التوبة عند الموت ١٤١

قبض الروح ١٤٢

السؤال، ضغط القبر وعذابه ١٤٣

كلام الفيض الكاشاني ١٤٤

عذاب القبر ١٤٥

نتائج الأعمال في القبر ١٤٧

سؤال أهل البرزخ ١٤٩

القبر والبرزخ ١٤٩

البدن البرزخي ١٥٢

العين والأذن البرزخيّتان ١٥٣

ملاحظات ١٥٤

وفاة عيسى المسيح عليه السلام ١٥٨

خطأ اليهود والمسيحيّين ١٦١

المسألة من وجهة نظر الروايات ١٦٣
السيّد المسيحعليه السلام وإحيائه الموتى ١٦٤
زمان ومكان الموت مجهول ١٦٥
لقاء الله ١٦٦
رؤية العرفاء ١٦٧
سبيل الوصول للقاء الله ١٦٨
الفصل السابع: الشهيد والشهادة.. ١٧١
معنى الشهيد ١٧١
حياة الشهيد ١٧١
أجر الشهداء.. ١٧٢
نقاط حول الآيات ١٧٤
الشهادة والفائدة الوافرة.. ١٧٦
الشهادة، المغفرة والرحمة ١٧٨
الشهادة والرجعة ١٧٩
الشهادة ودخول الجنّة ١٨٠
أفضليّة مداد العلماء على دماء الشهداء ١٨٢
الفصل الثامن: علامات القيامة ١٨٥
أشراط الساعة ١٨٥
انهدام سدّ يأجوج ومأجوج ١٩١
النفخ في الصور ١٩٢
النفخة الأولى ١٩٢
النفخة الثانية ١٩٣
ما هو الصوْر؟.. ١٩٥
نفخ الصور الثاني ويوم المحشر ١٩٧
يوم ظهور العمى والصمم والجنون.. ١٩٨
الحشر مع المحبوب ٢٠١
أقسام الناس الثلاثة في الآخرة ٢٠٣

الفصل التاسع: أسماء القيامة وأحداثها ٢٠٥
التناسب بين الأسماء والأحداث ٢٠٥
١. الواقعة ٢٠٥
٢. المتحقّقة ٢٠٥
٣. لا ريب فيها ٢٠٦
٤. القرب ٢٠٧
٥. الغد ٢١٠
٦. القيامة ٢١٠
٧. الآخِر ٢١٣
٨. الحقّ ٢١٤
٩. المشهود ٢١٩
١٠. الميقات ٢٢٠
١١. الساعة ٢٢٠
١٢. الميعاد ٢٢١
١٣. الوعيد ٢٢٢
١٤. الوقت المعلوم ٢٢٢
١٥. النبأ العظيم ٢٢٢
١٦. العظيم ٢٢٣
١٧. الكبير ٢٢٣
١٨. المنتهى ٢٢٤
١٩. اليقين ٢٢٤
٢٠. ظهور الدين ٢٢٥
٢١. الذي لا عودة فيه ٢٣٠
٢٢. الصاعقة ٢٣٠
٢٣. الزلزلة ٢٣٠
٢٤. الرجفة ٢٣١
٢٥. الرجّة ٢٣١

٢٦. الرادفة ٢٣١
٢٧. الانشقاق ٢٣٢
٢٨. الانكدار ٢٣٢
٢٩. القارعة ٢٣٢
٣٠. نفخ الصور ٢٣٣
٣١. الصاخّة ٢٣٣
٣٢. الخروج ٢٣٣
٣٣. البعث ٢٣٤
٣٤. الدعوة مع الإمام ٢٣٤
٣٥. الساهرة ٢٣٥
٣٦. المساق ٢٣٦
٣٧. التعرّق ٢٣٦
٣٨. الاضطراب ٢٣٧
٣٩. الفاقرة ٢٣٧
٤٠. التناد ٢٣٨
٤١. الغاشية ٢٣٨
٤٢. المفر ٢٣٩
٤٣. شخوص الأبصار ٢٣٩
٤٤. تقلّب القلوب والأبصار ٢٤٠
٤٥. الأليم ٢٤١
٤٦. العصيب والعسير ٢٤١
٤٧. الطامة الكبرى والصعبة ٢٤١
٤٨. الذي يُشَيّب ٢٤١
٤٩. التعيس ٢٤٢
٥٠. الثقيل ٢٤٢
٥١. الداهية ٢٤٢
٥٢. العبوس ٢٤٢

٥٣. الجزع ٢٤٢
٥٤. السكر ٢٤٣
٥٥. البكاء ٢٤٣
٥٦. الفزع ٢٤٤
٥٧. يوم الخمسين ألف سنة ٢٤٤
٥٨. الوقوف ٢٤٥
٥٩. الجمع ٢٤٦
٦٠. العرض ٢٤٧
٦١. البلاء ٢٤٧
٦٢. زوال الحجب ٢٤٨
٦٣. ظهور العمى والصمم ٢٤٩
٦٤. نشر الصحائف ٢٤٩
٦٥. حضور الأعمال ٢٥٠
٦٦. السؤال ٢٥٠
٦٧. أداء الشهادة ٢٥٠
٦٨. الحساب ٢٥٠
٦٩. الوزن ٢٥١
٧٠. الحكم ٢٥٢
٧١. قطع الأنساب ٢٥٢
٧٢. الفصل ٢٥٣
٧٣. الفتح ٢٥٤
٧٤. يوم لا ينفع مال ولا بنون ٢٥٤
٧٥. يوم لا تنفع المعذرة ٢٥٤
٧٦. رفض العذر ٢٥٥
٧٧. يوم منع الكلام ٢٥٥
٧٨. الغبن ٢٥٥
٧٩. الحسرة ٢٥٦

٨٠. يوم عضّ الأيدي ٢٥٧
٨١. تبيَضّ وجوه وتسوَدّ وجوه ٢٥٨
٨٢. الخلود ٢٥٩
٨٣. البقاء ٢٦٠
٨٤. المأوى ٢٦١
٨٥. المآب ٢٦١
٨٦. المصير ٢٦٢
٨٧. المسابقة ٢٦٢
٨٨. المنافسة ٢٦٢
٨٩. يوم منفعة الصادقين ٢٦٣
٩٠. تجسّم نور الإيمان ٢٦٣
٩١. الموعود ٢٦٤
٩٢. المحيط ٢٦٤
٩٣. المرصاد ٢٦٤
٩٤. القصاص ٢٦٤
٩٥. الاختبار بالنار ٢٦٥
٩٦. يوم يدعون إلى النار ٢٦٥
٩٧. يوم الصهر ٢٦٥
٩٨. يوم سحب الوجوه على النار ٢٦٦
٩٩. القرار ٢٦٦
١٠٠. التلاق ٢٦٧
إشارات ٢٦٧
الفصل العاشر: السؤال في القيامة ٢٦٩
يوم عموم السؤال ٢٦٩
محور السؤال ٢٧٠
الفصل الحادي عشر: شهداء القيامة ٢٧٥
شهادة رسول الإسلامﷺ ٢٧٥

أماني العاصين يوم القيامة ٢٧٧
شهادة أهل البيت عليهم السلام ٢٧٨
شهادة الإمام عليه السلام ٢٧٩
الشهادة التكوينيّة ٢٧٩
شهادة المرافق ٢٧٩
شهادة الأعضاء ٢٨١
الشهادة على الكاذبين ٢٨١
الفصل الثاني عشر: كتاب الأعمال ٢٨٣
كيفيّة كتاب الأعمال ٢٨٣
الفصل الثالث عشر: حبط العمل ٢٩٥
الحبط والإحباط ٢٩٥
كيفية حبط الأعمال ٢٩٧
الإحباط المتبادل ٢٩٩
الموافاة شرط الثواب والعقاب ٣٠١
النتيجة ٣٠٢
نظام آثار الأعمال ٣٠٣
موارد الحبط في الروايات ٣٠٥
أعمال الكافرين الصالحة ٣٠٧
الإحباط من منظار علم الكلام ٣٠٩
نقد العلّامة الطباطبائيّ ٣١٠
كلام الفاضل التونيّ حول المحقّق الطوسيّ ٣١١
الفصل الرابع عشر: تجسّم الأعمال ٣١٣
صورة العقائد، الأخلاق والأعمال ٣١٣
الحامل الوحيد لعبء الخطيئة ٣١٥
عمل الإنسان بالنسبة لله ٣١٧
علاقة العمل بالعامل ٣١٨
انعكاس العمل في الحياة ٣١٩

المستقبل المظلم ٣١٩
المستقبل المشرق ٣٢١
مضاعفة الأجر ٣٢٢
اقتراحٌ جاهلٌ ٣٢٥
اتصال عمل الإنسان بالعالم ٣٢٥
آيات حول اتصال عمل الإنسان بالعالم ٣٢٦
الاستمهال والاستدراج الإلهيّ ٣٣٠
تأثير إيمان الفاعل وكفره ٣٣١
آيات تجسّم الأعمال ٣٣٢
التبرير الماديّ لتجسّم العمل ٣٤٠
نقد التبرير الماديّ لتجسّم العمل ٣٤٢
شبهة الفخر الرازيّ والإجابة عليها ٣٤٣
تجسّم الخيانة ٣٤٥

مقدمة المركز

يُعدّ موضوع المعاد من أهم المباحث الكلاميّة والفلسفيّة التي أثارت جدلاً واسعًا، وأخذت قسطًا وافرًا من البحث والتقصّي، حول أصل إثباته وكيفيته وسائر تفاصيله وجزئياته.

وقد اختلفت النتائج باختلاف المباني والمناهج، إذ باختلاف المباني تختلف المعاني، فهناك من تناول الموضوع بمنهجية نقلية صرفة، والاعتماد على ما ورد في القرآن والروايات الشريفة، وآخر تطرّق اليه بمنهج عقلي: كلامي أو فلسفي، ناهيك عن المنهج العرفاني المعتمد على الكشف والشهود. علمًا بأنّ أصل المعاد، ووجود يوم الجزاء، لايقتصر على الدين الاسلامي، بل إنه قد شغل جميع الاديان التوحيديه وحتى غير التوحيدية، وما مسألة التناسخ المدّعاة عند بعض أرباب الديانات الوضعية، الاّ شبح خاطئ يكشف عن قلق الانسان الوجودي حيال مصيره ومستقبله بعد الموت.

ومما يكشف أهمية المعاد وضرورة الاهتمام به، وهو ما أكّدت عليه الديانات التوحيدية، انّ الموت لم يكن نهاية الإنسان، بل انّه بداية حياة جديدة، بل هو الحياة الحقيقية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

وجرّاء هذا الاهتمام، ومن هذا المنطلق، قام المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية المهتمّ برسم الاستراتيجيات الدينية والمعرفية، بترجمة هذا الكتاب للمرجع الديني سماحة الشيخ عبد الله الجوادي الآملي، حيث تطرّق الى المعاد وما يتبعه من جزئيات برؤية نقلية وعقلية.

ونحن إذ نضع هذه الترجمة العربية بين يدي القرّاء الكرام، لا يفوتنا أن نتقدّم بالشكر والتقدير لمؤسسة الاسراء حيث سمحت بترجمة هذا الكتاب، وكذلك للمترجمَين الذَين بذلا جهدًا مشكورًا في تقديم نص متناسق، كما نشكر جميع العاملين لانجاز هذا الكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله الطهر الميامين.

رجب المرجب

١٤٤٤ هـ

الفصل الأوّل

ذكر المعاد

ارتباط ذكر المعاد بذكر المبدأ

بناء على الرؤية الكونيّة القرآنيّة، فإنّ الإنسان يقترب كلّ يوم من المعاد الذي هو الرجوع إلى المبدأ حيث لا عودة إلى الدنيا، بل أكثر من ذلك، فإنّ له في كلّ لحظة معادًا يقترب منه. لا ينفصل المعاد في هذه الرؤية عن المبدأ، مع أنّ المبدأ والمعاد للوهلة الأولى يقعان في قوسين مختلفين، حيث نتحدّث عن المعاد تحت عنوان «عالم ما بعد الموت»، إلّا أنّ التدقيق في المسألة يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ كِلا القوسين يصلان إلى نقطة واحدة؛ حيث يبدآن من نقطة بداية واحدة، وكلاهما تجلّيان لحقيقة واحدة: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[1]. إنّ ذكر المبدأ هو ذكر للمعاد، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2].

بناءً على ما تقدّم، فإنّ ذكر الله (المبدأ) هو ذكر المعاد، حيث يتّجه الإنسان إليه كلّ لحظة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]. في المقابل، فإنّ نسيان الله سبب لنسيان المعاد، بل يوجب نسيان الإنسان ذاته، فينسى نفسه؛ كما إنّه يسبّب نسيان الله للإنسان: ﴿نَسُوا اللَّهَ

---

١. الحديد: ٣.

٢. الأحزاب: ٤١.

٣. البقرة: ١٥٦.

﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[١]، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٢]. ينساهم الله في ذلك اليوم وفي كلّ يوم: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾[٣].

إنّ من أبرز آثار ذكر المعاد إقامة العدل والقسط الفرديّ والاجتماعيّ، من هذا المنطلق يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من تذكّر بُعدَ السفر استعدّ»[٤]. ويقول أيضًا: «واذكر قبرك فإنّ عليه ممرّك»[٥]، ثمّ يقول مخاطبًا مالك الأشتر رضوان الله عليه: «ولن تحكم ذلك من نفسك حتّى تُكثر همومك بذكر المعاد إلى ربّك»[٦]. وفي المقابل فإنّ من أهمّ آثار نسيان المعاد الضلال والظلم الفرديّ والاجتماعيّ.

دور ذكر القيامة في تهذيب الإنسان

يعتبر ذكر القيامة واحدًا من العوامل المؤثّرة في تهذيب الإنسان؛ فالشخص الذي لا ينسى المعاد سيكون مهذبا؛ والسبب في ذلك أنّ كافّة أعماله وسلوكاته تخضع للمراقبة الشديدة، وسيسعى جهده ليؤدّيها بما يرضي الله تعالى، وبالتالي لن تدور مدار الشهوات والآمال الباطلة والأهواء الشيطانيّة. أمر الله تعالى عبده الورع ونبيّه المنتخَب داوود عليه السلام أن يحكم انطلاقًا من الحقّ وعدم اتّباع الهوى؛ لأنّ اتّباع الهوى يمهّد الأرضيّة للضلال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٧].

وقد لَفت أمير المؤمنين عليه السلام الانتباه إلى هذه القضيّة، فقال: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل؛ فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول

---

١. الحشر: ١٩.

٢. التوبة: ٦٧.

٣. الأعراف: ٥١.

٤. *نهج البلاغة*، الحكمة ٢٨٠.

٥. م.ن: الخطبة ١٥٣.

٦. م.ن: الرسالة ٥٣.

٧. ص: ٢٦.

الأمل فينسي الآخرة»[١]. وعليه فإذا تحرّر الإنسان من قيود الأهواء، فلا شكّ أنّه سيتمكّن من وضع برنامج اخرويّ بمساعدة العقل.

ذكر المعاد أفضل جائزة للأنبياء

أنعم الله تعالى على أنبيائه وعباده المقرّبين نعمة خاصّة، وهي نعمة ذكر القيامة: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[٢]؛ والسبب في ذلك امتلاكهم صفة خاصّة وخالصة، وهي ذكر المعاد، فكانوا من الأخيار المقرّبين. من هذا المنطلق كان الأنبياء أكثر شوقًا وتقبّلاً للآخرة؛ على خلاف الكافرين والضالّين الذين كانوا يخافون منها بشدّة. جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

القيامة وعلاقتها بهدف البعثة

إنّ هدف الأنبياء تنوير الناس والمجتمع والعمل على نجاتهم من الظلمات والجهالة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٤]؛ وهذا يعني أنّ هدف الأنبياء، قيام الناس بالقسط والعدل استنادًا إلى البيّنات والميزان، والحديد هو للدفاع عن الكتاب السماويّ فقط، وليس لتحقيق هذا الهدف بشكل إجباريّ.

إنّ العامل الذي يشكّل سببًا لتحقّق هذا الهدف، هو عامل متعالٍ، وهو ذكر المعاد ويوم الحساب؛ لأنّ الإنسان يقترب على نحو أفضل من هدف بعثة الأنبياء، عندما يعلم

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ٤٢.

٢. البقرة: ٤٦ و٤٧.

٣. البقرة: ٩٤-٩٦.

٤. الحديد: ٢٥.

بالموجود الأبديّ الذي لا يزول بالموت، وعندما يقتنع بأنّ كافّة الاعتقادات والأخلاق والسلوكات هي أمور حيّة ترتبط به، وعندما يشعر أنّها جميعها تظهر في يوم من الأيّام ويقف ليقدّم إجابات حول عقائده وأخلاقه وسلوكاته الفاسدة والباطلة؛ إذًا ذكر المعاد هو الذي يحقّق هذا الهدف، ونسيانه يوجب الضلال في العقائد والأخلاق.

يقول شيخ الإشراق في معنى ما رُوي عن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله:

«حبّ الوطن من الإيمان»[١] «إنّ وطن الإنسان هو المكان الذي جاء منه وإليه يعود. وعليه فالأمكنة الأخرى ليست وطنًا له. لذلك قال الأنبياء: أنتم أبناء الآخرة وسترحلون إلى الله»[٢].

دور ذكر القيامة في الجهاد

إنّ الشخص الواقع في أسر أهواء النفس والآمال الطويلة يتمسّك بكلّ سبب واهٍ يدفعه للهروب من جهاد الأعداء؛ فتارة تمنعه حرارة فصل الصيف، وتارة أخرى يمنعه برد فصل الشتاء، وتارة ثالثة يهرب منه لأنّه يتسبّب بتعطّل الحياة وتدمير الاقتصاد، يقول تعالى: **﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾**[٣]؛ لذلك فالذي يذكر القيامة يمتلك الاستعداد لتحمّل الحر والبرد، لا بل كافّة صعوبات الدنيا.

عندما دعا الإمام أمير المؤمنينعليه‌السلام جيشه نحو جبهة الحقّ ضدّ الباطل كان بعض جنده يردّد: الجو بارد اصبر علينا حتّى ينتهي البرد، وقال آخرون: الجوّ الآن حارّ، والصيف ليس الوقت المناسب للحرب؛ أمّا الإمامعليه‌السلام فتوجّه إليهم قائلًا: «...كلّ هذا فرارًا من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون، فأنتم والله من السيف أفرّ...»[٤].

---

١. *سفينة البحار*، ج٨، ص٥٢٥، «و ط ن».

٢. *مجموعة مصنّفات شيخ الإشراق*، ج٣، ص٤٦٢.

٣. التوبة: ٨١.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٧.

شجّع الله تعالى كما جاء في آية قرآنيّة المؤمنين على الجهاد، ووعدهم بالفوز العظيم، وجعل الصلاح والفلاح من نصيبهم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

إنّ كافّة الخصال المتقدّمة هي من صفات الأشخاص الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فكانوا من المجاهدين في سبيله. هم في الواقع عطاشى الحياة الأزليّة الخالدة، فيندفعون في سبيلها متجاوزين كلّ المحدوديّات الطبيعيّة. من هنا فإنّ ذكر المعاد يحمل في طيّاته برامج وخططًا فعّالة، فالمجاهد المؤمن بالمعاد يسهل عنده بذل الدماء في ساحة الحرب والاستشهاد في سبيل الله. والله تعالى ذو عناية خاصّة بالمحسنين.

إنّ ذكر القيامة من وجهة نظر القرآن الكريم لا يتحقّق بالجهاد البدنيّ فقط، بل ينبغي على بعض المجاهدين إعداد المتاريس الثقافيّة، لينشروا المعارف الدينيّة بين الناس: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢]؛ فلا ينبغي على الجميع التوجّه نحو الجبهات، بل ينبغي على بعض المجاهدين التوجّه نحو المراكز الثقافيّة، فتكون مسؤوليّة هذه المجموعة كمسؤوليّة حرّاس الحدود، فكما يسعى المدافعون عن الحدود إلى الحفاظ عليها، فإنّه ينبغي على هؤلاء بذل الجهود للحفاظ على حدود عقيدة الناس من هجمات أعداء الدين، فينقلون العقائد إلى الأجيال ويعلّمونها الناس.

بناءً على ما تقدّم فإنّ بداية جبهات الحرب ونهايتها قد امتزجت بذكر المعاد الذي يحفظ الجبهات وما خلفها، أمّا الذي لا يذكر القيامة فليس من أهل الجبهات والجهاد، وليس من الداعمين لها. والإنسان المجاهد هو الذي يدخل الجنّة يوم القيامة بمشاركته

---

١. التوبة: ١١١ و١١٢.

٢. التوبة: ١٢٢.

في هذه الحروب؛ لذلك يسارع نحو هذا الهدف المتعال؛ لأنّه بذلك يطهّر نفسه ويساهم في صلاح المجتمع عدا عن أنّه يحفظ قانون الله ويدافع عنه.

ذكر المعاد أفضل أسباب بناء الإنسان

أعَدّ الله تعالى الدنيا طريقًا والقيامة منزلاً، ثمّ أرسل رسلاً عارفين بالطريق لنكون على ذكر دائم للمنزل، فهم الذين يعرفون المنزل النهائيّ للجميع ويدركون كلّ زواياه، وكلّ ما أخبروا به حول الطريق والمنزل يطابق الوحي، وكانوا يحرصون على أنّ لا يضلّ أحد الطريق: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[١]، وكلام الرسل يقوم على أساس منطق الوحي: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢]. إذا هوى النجم ولم يتحرّك، لا يبقى دليل على الطريق. إنّ النجوم كعقارب الساعة تشير بحركاتها وصعودها وهبوطها إلى الطلوع والغروب، المشرق والمغرب، والقطب والاستواء، وفي النهاية ترشد إلى الجهة. لو لم يكن الرسولﷺ على ارتباط مع الناس رغم مقامه الشامخ، لما تمكّن أن يكون مرشدًا على الطريق كالنجوم، ولكن هذا الرسول، لم يضل الطريق، ولا المنزل، وكان عارفًا بالهدف ويرشد إليه، وإلّا لما كان رسولَ الله. فهو إمامكم وصاحبكم، لم يتحدّث عن الهدف من منطلق أهوائه وميوله. وعندما يتحدّث فهو يتحدّث بلسان الوحي، وكان يخاطب بعض من ضلّ الطريق عامدًا وبقلب تملؤه الرأفة والرحمة: أين تذهبون؟!

خاطب الله تعالى الرسولﷺ من خلال رؤية كونيّة وبيان كونيّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[٣]. وعلى هذا الأساس، فالقرآن بأكمله هو الطريق المستقيم، والدليل، والنور ومبدّل الظلمات: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٤].

---

١. التكوير: ٢٦.

٢. النجم: ١-٤.

٣. التكوير: ٢٧ و٢٨.

٤. إبراهيم: ١.

من هنا، عندما تنشأ روح الإنسان على أساس ذكر القيامة وتكون ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾[١] منتهى نظره، يضمن أن تكون كافّة اعتقاداته وأخلاقه وسلوكاته قد شُيّدت على أساس هذه الخاصّيّة. عندما ينسى الإنسان ذكر القيامة، يفتقد السبب الذي يدفعه للالتزام بالقانون والضوابط، وتمتدّ يده لتمارس كلّ جناية، وقد عبّر الإمام الحسينعليه السلام عن هؤلاء ظهر عاشوراء مخاطبًا الإمام السجّادعليه السلام: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾[٢]. وإذا كان ذكر المعاد هو بعينه ذكر المبدأ، فعند نسيان المبدأ يُنسى المعاد أيضًا، علمًا أنّ بإمكان الإنسان وفي ظلّ إعادة إحياء ذكر القيامة، وبالإضافة إلى ما يتحقّق من بركات عقائديّة وأخلاقيّة وسلوكيّة، أن يشاهد النّار بالعيان: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[٣].

المقصود من ذكر القيامة العلم بها، فإذا امتلك الإنسان علمًا حقيقيًّا بالقيامة، فسيشاهد جهنّم وأصحابها على وجه اليقين، وسيحصل على بركات عقائديّة وأخلاقيّة وسلوكيّة ويبتعد عن المعصية؛ لأنّ منشأ المعصية، نسيان القيامة. أمّا الشيطان فيعمل بداية على سلب ذكر الله من قلب الإنسان، ثمّ يضع فيه ما يشاء. إنّ ذكر القيامة هو حضور قلبيّ دائم، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الطوسي في تفسيره القيّم عندما اعتبر أنّ النيّة وذكر الله تعالى هما انبعاث وانتقال من عالم الطبيعة وليسا مجرّد لفظ ومفهوم[٤].

يقول العلاّمة الطباطبائي:

«قد يعيش الإنسان عمرًا تحت ولاية الشيطان ولا يدرك؛ لذلك ينبغي عليه أن يستغفر عن عمر قضاه في العبادة. فإذا استقرّ ذكر القيامة و ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾[٥] حقيقة في روح الإنسان، عند ذلك يشاهد هذا الإنسان النّار».

دخل شاب على رسول اللهصلى الله عليه وآله وقال: «إنّي على يقين بالقيامة، فأجابه الرسولصلى الله عليه وآله

---

١. ص: ٤٦.

٢. المجادلة: ١٩.

٣. التكاثر: ٥ و٦.

٤. *تفسير التبيان*، ج١٠، ص٤٠٢.

٥. ص: ٤٦.

يسأل عن علامة يقينه، فقال: فكأنّي أرى الجنّة وأهل النّار وأسمع الأصوات في البرزخ وكأنّها كعواء الكلب»[١]. عندما سمع رسول اللهﷺ ادّعاء الشاب، لم ينكر عليه ما حصل له، ثمّ إنّ الشاب بعد ذلك طلب من رسول اللهﷺ أن يدعو الله له أن يرزقه الشهادة، فدعا له، فما لبث أن خرج في إحدى غزوات الرسولﷺ واستشهد. الشاب في الواقع قد حارب طاغوتين: الطاغوت الخارجيّ، أي حارب المعتدين على حدود الدين والعقيدة والوطن الإسلاميّ، والطاغوت الداخليّ، أي النفس الشيطانيّة.

موانع ذكر المعاد

ثمّة العديد من الأمور التي تدفع الإنسان للغفلة عن الآخرة، من جملتها الشبهات العقائديّة والأفكار الباطلة، أمّا أبرزها:

١. طلب الرفاه والإسراف والترف.

٢. التعلّق بالأهواء واللذائذ والتسالي والأهواء السريعة الزوال.

٣. ادّخار الثروات من دون حدود وضوابط.

٤. صعوبة المسير وتعب الإنسان.

يمكن القول بشكل عام إنّ العوائق والصعوبات، وكذلك الملذّات والملهيات، وطلب الدنيا وادّخار الثروات، تمنع الإنسان عن ذكر القيامة.

تعتبر قصّة قارون من أبرز مصاديق طلب الدنيا والغرور، يقول الله تعالى: **﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**[٢]. أمّا قارون فكان كلّ اهتمامه منصبًّا على الدنيا بزينتها وزخارفها. وطالبو الدنيا يتوجّهون بآمالهم كما قارون نحو المال والثروة، إلاّ أنّ الغفلة عن ذكر القيامة أدّى إلى الخسف بهم: **﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ**

---

١. *أصول الكافي*، ج٢، ص٥٣.

٢. القصص: ٧٦ و ٧٧.

﴿الْمُنْتَصِرِينَ﴾[١]، ثمّ إنّ القرآن الكريم يعرض النتيجة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]. ساهم قارون من خلال سلوكه في أن يتمنّى بعض الناس مقامه وثروته وأن يغرقوا في ملذّاته.

إنّ من أكبر الأخطاء البشريّة التي تبرز على إثر إنكار المعاد ونفي يوم الحساب المساواة بين المسيئين والمحسنين: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣]. الحقيقة أنّ الأمر ليس على هذا النحو والحكم بالتساوي بين الأمرين باطل ويدلّ على جهل به، والسر في هذه التسوية انه إذا لم تكن هناك حياة بعد الموت أي لم يكن يوجد معاد، ولو كان الموت فناءً وإعدامًا، لكانوا حينئذ سواسية ؛ لأنّ المعدوم من الأشياء أو الأشخاص لا يمتازون عن بعضهم، وفي هذا الحال يتساوى الصالح والطالح. نعم، منكرو المعاد يتبعون أهواءهم النفسيّة ويعبدونها: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٤]. أمّا منطق هذه المجموعة فهو: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٥]. مع العلم أنّ هذا الكلام لا يستند إلى علم ودليل، بل هو وهم وخيال. وهذا هو بعينه منطق الماديّين في زماننا؛ فبما أنّهم لم يشاهدوا ميتًا عاد إلى الحياة، فقد ظنّوا أن لا قيامة ولا معاد على الإطلاق. والدليل الذي قدّموه هو قولهم: لو كان يوجد معاد، فأحيوا آباءنا: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٦]. وقد قدّم القرآن الكريم الجواب: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧]؛ لا تدّعوا أنّ الدهر والطبيعة يغنياننا؛ لأنّ نظام الخلق، نظام محكم ومتقن

---

١. القصص: ٨١.

٢. القصص: ٨٣.

٣. الجاثية: ٢١.

٤. الجاثية: ٢٣.

٥. الجاثية: ٢٤.

٦. الجاثية: ٢٥.

٧. الجاثية: ٢٦.

ويقوم على أساس العلم والحكمة؛ أمّا مبدأ هذا العالم، فهو وجود الله المقدّس الذي أحياكم، وهو الذي ينقلكم بعد ذلك إلى عالم آخر. ثم انه لا شكّ ولا ترديد في حقانيّة ذاك اليوم، وهو ضروريّ وحتميّ؛ ولكن يرفضه منكرو المعاد انطلاقًا من جهلهم: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾[١].

في ذاك اليوم تُدعى كلّ مجموعة إلى كتاب أعمالها: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]. ومن هذا المنطلق فإنّ ذكر المعاد وظيفة الفرد ووظيفة المجتمع أيضًا؛ والإنسان مسؤول عن وظائفه الفرديّة والجمعيّة، ولن يصل إلى سعادته إلاّ بأداء كافّة المسؤوليّات.

دور المحاسبة في ذكر المعاد

إنّ للإنسان باعتبارٍ ما ثلاثة أبعاد: بُعْد الاعتقادات، بعد الصفات والأخلاق، وبعد الأعمال والسلوكات، فهو يعتقد بأمر ويتخلّق بخلق ويؤدّي عملاً. بناءً على ما تقدّم، إذا اعتقد الإنسان أنّ كلّ ما يصدر عنه حيّ ويرافقه وهو مسؤول عنه، وإذا أيقن أنّ هناك من سيسأله ويحاسبه في يوم من الأيّام على كافّة أعماله وأخلاقه وعقائده، فهو من دون شكّ سيجد نفسه في كلّ آنٍ حاضرًا أمام محكمة العدل الإلهيّة، وسيدرك أنّ الله يراقبه وسيحاسبه. والمراقب هو الذي يأخذ بالرقبة ويراقب عمل الآخر، فالمراقبون في جلسات الامتحان يأخذون بالرقاب ويسيطرون على كافّة أحداث الاختبار.

أُمر الإنسان بمراقبة شؤونه الظاهريّة والباطنيّة؛ أي أن يراقب نفسه وأن يحاسبها، فإذا ظهرت الخطايا أكبر من الأعمال الصائبة وجب عليه جبران النواقص، وإذا غلبت الصالحات وجب عليه الشكر؛ أمّا ضرورة المراقبة فلأنّ الإنسان موجود يُحتمل سقوطه في كل آنٍ فيبتعد عن القيامة. قال الله تعالى مخاطبًا الرسول الأكرمﷺ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا

---

١. الجاثية: ٢٧.

٢. الجاثية: ٢٨.

﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[١]، وهوى النفس يمنع الإنسان عن الالتفات للمبدأ وعن الاهتمام بالمعاد.

إنّ الاعتقاد بالمعاد من وجهة نظر القرآن ضروريّ، ويتعداه عند الصالحين إلى ضرورة الخضوع، إلاّ أنّ أكثر الناس مبتلون بالخوف والرجاء، ولولا الثواب والعقاب لا يرضخون للإيمان والعمل الصالح؛ لذلك كان عبدة الأصنام في الحجاز المعتقدون بوجود الله وبخالقيّته غير المؤمنين بالمعاد يفتخرون بأنّهم قتلة وقاطعو طرق. فالإيمان بالمسؤوليّة في القيامة من أهمّ العوامل التي تمنع البشر عن معصيّة الله؛ أي الإيمان بمحكمة العدل الإلهيّ، وذكر تلك المشهديّة المخيفة للعقاب الإلهيّ. عندما يغيب ذكر المعاد عن روح الإنسان، يصل إلى هلاكه ويبتلى بعذاب شديد: **﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾**[٢].

يقول مولى الموحّدين علي‌عليه‌السلام: «**ذهب المتذكّرون وبقي الناسون أو المتناسون**»[٣]. يظنّ أصحاب المعرفة البسيطة أنّ القيامة الموعودة بعيدة جدًّا، بينما يراها المطّلعون على الغيب والذين هم مظهر صفات الله قريبة: **﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾**[٤]. أولياء الله يخافون عذاب جهنّم وخوفهم الموجود يجعلهم لا يشاهدون لهيبها في القيامة ولا يسمعون شهيقها وزفيرها:

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٥]. يقول الإمام أمير المؤمنين‌عليه‌السلام في هذا الخصوص: «**أكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبدًا**»[٦]؛ لذلك لا تسمع آذانهم أيّ صوت لجهنّم، حتى في أدنى درجاتها، فقد أكرمهم الله تعالى بعدم سماع حتى حسيسها.

---

١. طه: ١٦.

٢. ص: ٢٦.

٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٧٦.

٤. المعراج: ٦ و٧.

٥. الأنبياء: ١٠٢ و١٠٣.

٦. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٨٣.

سيرة الرسول الأكرم في ذكر المعاد

انطلاقًا من عدم وجود إنسان كالرسول الأكرمﷺ من حيث الاعتقاد الراسخ بالمبدأ والمعاد، فلا وجود لسيرة واضحة كسيرتهﷺ من حيث حكايتها عن الموضوع وما تعبّر عنه. وبما أنّ للمعاد أهمّيّة خاصّة، نرى الله تعالى يخاطب النبي بعبارات من قبيل «يوم» و«يومئذٍ»، ويحذّره فيها من أنّك إذا ابتعدت عن الصراط المستقيم، فسنذيقك جزاء هذا الابتعاد وسنضاعف عذابك في الدنيا والآخرة: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[١]؛ لذلك نجد أنّ الرسولﷺ يُذكّر دائمًا بالمعاد في كلامه واستدلالاته وعلاقاته بالآخرين، سواء أكان ذلك في الحرب أو الصلح، أو في المسجد وغيره، ويذكّر النّاس بالمعاد والقيامة. وكان الرسول الأكرمﷺ يفسّر الاسم المبارك «هو الآخر» إلى جانب «هو الأوّل»، ومن ثمّ يتحدّث عنه باعتباره مظهر الاسم الأعظم، ويؤكّد عليه ما دام إدراك الناس وفهمهم يساعد على ذلك. وكان الرسولﷺ يخاطب الناس ويحدّثهم من أنّكم ستكونون في وفاق مع نظام الكون، حيث تظهر كافّة الأسماء الإلهيّة. بعض هذه الأسماء سبب للخوف، وبعضها سبب للأمل وبعضها الآخر باعث للإرادات قد يكون بعضها باعثًا على الكراهية. إنّ وجود الإنسان وحياته ومماته ليس منفصلاً عن هذه المجموعة، وهو يتحرّك إلى الله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[٢] يوم تجمع الحياة الظاهريّة السماويّة والأرضيّة: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[٣]. وقد جاء في بعض الروايات: «أفضل الإيمان أن تعلم أنّ الله معك حيث ما كنت»[٤]، وعند الرجوع إلى سيرة الرسولﷺ، نرى أنّه كان يردّد قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٥] عند كلّ حادثة تقع، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، وقد أشار الزمخشريّ إلى أنّه كان يردّدها حين كان يطفئ

---

١. الإسراء: ٧٥.

٢. الشورى: ٥٣.

٣. الزمر: ٦٧.

٤. *كنز العمال*، ج١، ص٣٧، ح٦٦.

٥. البقرة: ١٥٦.

سراج المنزل، لا بل أثناء حصول أحداث أصغر من ذلك[١]. بناء على سيرة الرسول الأكرمﷺ، فإنّ كلّ حادثة تعتبر اختبارًا إلهيًّا. والإنسان الكامل هو الذي لا يفقد تواضعه عند بروز الحوادث؛ لأنّ الأحداث سواء أكانت مؤلمة أم باعثة على السرور، صغيرة أم كبيرة، فإنّها جميعًا تجلّيات إلهيّة لا تبعث على التزلزل كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**النَّفسُ الكَريمَةُ لا تُؤَثِّرُ فيها النَّكَباتُ**»[٢]. كان يحافظ على توجّهه في كافّة حالاته. ومن البديهيّ أنّ السيرة الأخلاقيّة لهكذا إنسان تحمل الكثير من العبر.

إنّ ما كان يحمله رسول اللهﷺ من فكر ورؤية حول ربوبيّة الخالق كان يدفعه للاعتقاد بأنّ كلّ مربوب واقع تحت ربّه، وكمال تدبيره في تقرّب المربوب إلى الخالق والربّ: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[٣].

يظهر عند مراجعة سيرة الرسولﷺ أنّ الاهتمام بالمبدأ والمعاد كان على حدّ سواء: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[٤]. فالله تعالى طبقًا للآية الشريفة، فاطر ومدبّر وخالق مجموعة نظام عالم الإمكان، ومنه ظهرت كافّة القوى الطبيعيّة والغريزيّة، وإلى ذلك أشار الرسولﷺ في بعض كلامه حين اعتبر أنّه إذا لم يعرف التوحيد الإلهيّ سيبتلى بالعذاب في المعاد. يشير الرسولﷺ إلى أنّ الحرمان من التوحيد سبب العذاب في المعاد، وكانﷺ يشير بعض الأحيان إلى المعاد بقوله: «أنا والساعة كهاتين»[٥] مشيرًا إلى ذلك بأصبعيه؛ وكأنّه أراد القول أنا لست بعيدًا عن القيامة، لا بل دائم الذكر لها. مع العلم أنّ المعنى العميق لهذه المساواة، التساوي بين النبوّة والمعاد والحضور الدائم لإحداهما في الأخرى.

١. *الكشاف*، ج١، ص٢٠٧.
٢. *ميزان الحكمة*، ج١٠، ص١٤٧.
٣. الأنعام: ١٦٤.
٤. الأنعام: ١٤ و١٥.
٥. *بحار*، ج٢، ص٣٠٩.

رسول الله ومعرفة المعاد

للرؤية التوحيديّة درجات ومراتب، والمعرفة التوحيديّة لرسول اللهﷺ في أعلاها، كما أنّ لمعرفة المعاد مراتب أيضًا ومعرفتهﷺ بالمعاد في أعلى المراتب؛ والسبب في ذلك أنّ كلّ فيض من الله تحفظ فيه الدرجات، وكذلك كلّ فيض يعود إلى الله تعالى يحفظ فيه تراتب الدرجات أيضًا، وبما أنّ الفيض الأوّل الصادر عن الله تعالى في قوس النزول هو الوجود المبارك لرسول اللهﷺ والأئمة الأطهارعليهم السلام، حيث هم في مقامهم الرفيع نور واحد، كما قال: «أوّل ما خلق الله نوري»[١]، كذلك الأمر في قوس الصعود أوّل فيض يعود إلى الله، لذلك جاء في عبارته: «أنا أوّل وافد على العزيز الجبّار»[٢]، والمقصود هو التقدّم في الرتبة وليس التقدّم الزمنيّ والتاريخيّ.

يمكن القول إنّ الكلام المتقدّم يشكّل أساس قاعدة «الواحد لا يصدر عنه إلّا واحد، والواحد لا يرجع إليه إلّا واحد». غاية الأمر أنّ هذه الوحدة في القاعدة، ليست من نوع الوحدة العدديّة أو الصنفيّة أو النوعيّة والجنسيّة وأمثالها، بل هي وحدة أخلاقيّة تبعيّة أو عرضيّة تكون مظهر الوحدة الأخلاقيّة الأصيلة والذاتيّة لله تعالى[٣].

بناءً على ما تقدّم، فإنّ الفيض الربوبيّ المنبسط الموصوف بالإمكان الفقريّ يبدأ من نور الإنسان الكامل الواحد وينتهي بهذا النور؛ لذلك كان الإنسان الكامل المظهر الكامل للتوحيد والمعاد؛ مع العلم أنّ الآخرين ليسوا كذلك؛ فبعض الناس يذكرون القيامة انطلاقًا من الخوف من جهنّم والمواقف المخيفة، ويذكرها آخرون رغبة بالنعم في الجنّة، بينما تكون غاية صنف ثالث من الناس هو لقاء الله. أمّا الإنسان الكامل وهم أئمّة الدينعليهم السلام فهم الذين يملكون كافّة هذه المراحل؛ لذلك يذكرون كلّ ذلك لجمعهم المراتب، ولأنّها في طول بعضها؛ أي أنّهم يملكون الخوف من جهنّم والشوق للجنّة

---

١. م.ن، ج١، ص٩٧.
٢. *أصول الكافي*، ج٢، ص٦٠٠، ح٤.
٣. *الأسفار*، ج٢، ص٣٣٢.

ولقاء الله ورضوانه: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[١]؛ فالكلّ موجود في الآخرة أي عذاب جهنّم الشديد، المغفرة، الرضوان، ورضى الله تعالى. الإنسان الكامل يقول: «وهبني صبرت على حرِّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك»[٢]، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[٣].

إنّ المعرفة الحاصلة على أساس الخوف من القيامة أو الرغبة بالجنّة، هي معرفة متوسّطة ونفسانيّة؛ لذلك يترتّب عليها احتياجات الزهد أو الرغبة، أمّا الذين عرفوا الله بعظمته، فإنّ معرفتهم بالمبدأ والمعاد عقليّة، فتكون مشاعر الخوف من الهجران والفراق والشوق للوصال مقومة لحقائقهم، فكان خوفهم عقليًّا، كما كانت الملائكة تسبّح الله خيفة منه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[٤]. وتشير الآيات الآتية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٥]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٦] إلى الخوف العقلانيّ، أمّا الرسول الأكرمﷺ وهو الإنسان الكامل، فهو معلّم الملائكة وقدوة عالم الوجود، يمتلك كافّة مراتب الخوف من الله الأعمّ من الوهميّة والخياليّة والعقليّة، بل يمتلك أكثر ممّا هو موجود عند الآخرين.

نقل بعض أهل السنّة: أنّ أكثر آية قرآنيّة تشير إلى الخوف تلك الآية المتعلّقة بحساب أعمال الإنسان يوم القيامة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٧].

يشار إلى أنّ مجرّد امتلاك صفة الخوف من جهنّم أو الشوق للجنّة ليس نقصًا، بل النقص هو التوقّف في هذه المرحلة والجمود عليها لا السير من النقص إلى الكمال ومن الفقر إلى الغنى حتّى الوصول إلى مرحلة لقاء الله، حيث يستمرّ السير الصعوديّ

---

١. الحديد: ٢٠.

٢. *مفاتيح الجنان*، دعاء كميل.

٣. الإنسان: ١٠.

٤. الرعد: ١٣.

٥. الرحمن: ٤٦.

٦. النازعات: ٤٠ و٤١.

٧. الزلزلة: ٧ و٨.

والاستمداد من أيّ وسيلة في هذا الطريق، كما يحصل عند التغذية، حيث يقال: «قوِّ على خدمتك جوارحي واشدد على العزيمة جوانحي»[١]؛ وبناءً على الحركة الجوهريّة، يظهر الغذاء على صورة كمال علميّ وعمليّ، وينتهي التفكير إلى الخوف من هجران الله والأمل بلقائه.

وبما أنّ رسول الله ﷺ كان في أوج معرفة الخالق، كان خوفه من المعاد أكبر من الآخرين وكان دائم الذكر للقيامة؛ والسبب في ذلك أنّ ساحة المعاد كبيرة للغاية، حيث تخرج عن تصوّر البشر العاديّين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[٢]. إنّ صعوبة تحمّل القيامة ليس محصورًا بالإنسان فقط، بل السماوات والأرض عاجزة عن ذلك أيضًا: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣]، والإنسان الكامل هو الوحيد الذي يتمكّن من حمل هذا الحمل الثقيل.

ينقل الشيخ المفيد رحمه الله، إنّ الرسول ﷺ عندما أخبر عن القيامة، «كأنّه منذر جيش جرار، تحمرّ وجنتاه»[٤]. الحقيقة أنّه شاهد نار جهنّم عن قرب؛ فمن البديهيّ أنّ من شاهدها بالعيان سيكون أكثر الناس خوفًا منها، والوجود العينيّ للنار أكثر تأثيرًا من وجودها العلميّ: «ليست الرؤية كالمعاينة مع الأبصار»[٥] إنّ من لم يشاهد نار القيامة، فإنّ كلامه عن المعاد لا ينبئ بالخطر، خلافًا لمن عرف المعاد، حيث يكون علمه شهوديًّا بالنسبة لأصل المعاد، وهو يعاين النار ويقدّم خبراً شهوديًّا عنها؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يسأل الله تعالى: «اللّهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك»[٦]. لا يمكن القول إنّ كافّة أشكال المناجاة والتضرّع وذكر القيامة ذات بُعدْ تعليميّ للآخر، أو أنّها من باب «إيّاك أعني

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٢. الإنسان: ٢٧.

٣. الأعراف: ١٨٧.

٤. *آمالي المفيد*، ص٢٣٣.

٥. *نهج البلاغة*، الحكمة ٢٨١.

٦. *مفاتيح الجنان*، دعاء النصف من شعبان.

واسمعي يا جارة»[١]، بل هذه الأمور هي درجات سُلّم الترقّي، حيث يعتبر التوقّف عند منطق أولئك ضارًّا، ومن تساوى يوماه فهو مغبون.

بناءً على ما تقدّم فالخشية من الله كمال، والخوف من غيره نقص؛ فالمنافقون الجاهلون يخافون من المؤمنين أكثر من خوفهم من النّار: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٢].

كانت معرفة الرسولﷺ بالقبر والقيامة شهوديّة وعيانيّة إلى درجة أنّه كان يقول: «فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»[٣]. فلو كنتم تشاهدون كالرسولﷺ عذاب الأموات في القبر، لما حاولتم دفنهم، ومن شاهد نار القبر خاف منها، ولما حاول إرسال الميّت إليها؛ وكذلك الأمر فيمن شاهد الجنّة فإنّه سيشتاق إليها، والرسول الأكرمﷺ قد شاهد في المعراج الأمرين، بل كلُّ لحظة من حياة الرسولﷺ معراجٌ. من هنا اختصّ جزء من تربية الرسولﷺ بالإنذار: ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٤].

المعاد وسيرة أولي الألباب التوحيديّة

﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ في القرآن الكريم هم أصحاب العقول الخالصة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ... وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٥]. وقد استقرّت هذه الآيات الشريفة في روح رسول اللهﷺ، حتّى أنّه كان يتلوها أثناء تهجّده في الليل عندما كان ينظر إلى السماء المليئة بالنجوم. لم ينسَ هذا النبأ العظيم والخبر الكبير. كان ذكر الله بداية في قلبه، ومن ثمّ كان يجري اسمه على لسانه. والسبب في ذلك أنّ رسول اللهﷺ كان

---

١. *بحار*، ج١٧، ص٤٧.

٢. الحشر: ١٣.

٣. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٧٦.

٤. الأحزاب: ٤٥.

٥. آل عمران: ١٩٠ و١٩٤.

خاتم الرسل، وأعقل أفراد بني البشر منذ البداية إلى النهاية. والعقل الدينيّ هو الذي يقرّب الإنسان من الجنّة ويبعده عن النّار: «قلت له: ما العقل؟ قال: ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان»[١]. يتشّكل أساس قيادة الرسولﷺ من أمرين عظيمين هما المبدأ والمعاد باعتبارهما خبران عالميّان وكبيران. وقيادة الرسولﷺ الكونيّة كانت ترتكز في إثبات هذين الأمرين الخطيرين على أساس العقل.

عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال:

«لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل، ثمّ قال له أدبر فأدبر، ثمّ قال: ما خلقت خلقًا أحبّ إليّ منك، فأعطي محمّدﷺ تسعة وتسعين جزءًا، ثمّ قسم بين العباد جزءًا واحدًا»[٢].

وعنه أيضًا في رواية أخرى: «ما كّلم رسول اللهﷺ العباد بكنه عقله قطّ»[٣]؛ والسبب في ذلك أنّ أحدًا من الناس غير قادر على إدراك وفهم كنه عقل رسول اللهﷺ؛ لذلك كانت معرفته حول المبدأ والمعاد فوق تصوّر البشر العاديّين. كان رسول اللهﷺ يدرك حقائق ووقائع القيامة التي يقصر عقل الآخرين عن إدراكها، ومنها: القبر، البرزخ، سؤال القبر، ضغطة القبر، نشأة القيامة، الصراط، الحساب، تطاير الكتب، دعوة كلّ شخص بإمامه، أصحاب اليمين، أصحاب الشمال، الذين يأخذون كتاب أعمالهم من وراء ظهورهم، وكافة المواقف الأخرى. وكان يردّد تارة: شيّبتني سورة هود[٤]، وقد أشار بعض المفسّرين إلى سرّ تأثير سورتي هود والواقعة على رسول اللهﷺ ودعوته ومن معه للاستقامة: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ**﴾[٥]. ويحتمل الأستاذ العلامة الطباطبائي أنّ الجامع بين سورتي «هود»

---

١. *أصول الكافي*، ج١، ص١١.
٢. *أصول الكافي*، ج١، ص٢٨.
٣. *بحار الأنوار*، ج١، ص٨٥، ح٧.
٤. م.ن، ج١٧، ص٥٢.
٥. هود: ١١٢.

و«الواقعة» ذكر المعاد. وقد ترك ذكر المعاد تأثيره على روح رسول اللهﷺ حتّى شيّبه؛ لأنّ القيامة هي اليوم الذي يهرم فيه الصغير: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[1].

لم يغفل رسول اللهﷺ لحظة واحدة عن المجتمع وخدمة عباد الله وقيادة المجتمع رغم كلّ ما يحمله من اهتمام بالمعاد؛ باعتبار أنّ الانزواء عن المجتمع والابتعاد عن الناس مذموم في الإسلام؛ لذلك كانﷺ يقول: «إن كان بيد أحدكم فسيلة، فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة فليغرسها، فإنّ له بذلك أجرًا»[2]؛ وهو يقصد بذلك أنّنا يجب أن لا نتوانى حتّى لو كنّا في آخر لحظات العمر عن زرع الشجرة ونسال عن سبب ذلك، وان لا نتمنع من اعمار الارض، وغرس الشجرة مثال طبعًا، والمقصود كلّ عمل مفيد للناس والمجتمع.

ساهمت قضيّة ذكر المعاد في اهتمام الكثير من الأدعية وتوجّهها إلى ذلك، ومنها ما ورد في الدعاء: «إلهي أعوذ بك من نفس لا تشبع ومن قلب لا يخشع ومن علم لا ينفع ومن صلاة لا ترفع ومن دعاء لا يُسمع»[3]. وكان رسول اللهﷺ في بيت أم سلمة ففقدته من الفراش، فقامت تطلبه في جوانب البيت، حتّى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم، رافع يديه ويقول:

«اللّهم لا تنزع عنّي صالح ما أعطيتني أبدًا، اللّهم لا تردّني في سوء استنقذتني منه أبدًا، اللّهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا»[4].

ثمّ إنّ زوجة الرسولﷺ توجّهت إليه لتسأله بأنّ الله تعالى قد قال لك: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[5] فلما تتضرّع وتبكي إلى هذه الحدود؟ فأجاب بأنّ النبيّ يونس؈ لما تُرك لحاله لحظة واحدة وابتلي بتلك الحالة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ

---

١. المزمل: ١٧.

٢. *مستدرك الوسائل*، ج١٣، ص٤٦٠، ح١٥٨٩٤.

٣. *مفاتيح الجنان*، تعقيب صلاة العصر.

٤. *بحار الأنوار*، ج١٦، ص٢١٧.

٥. الفتح: ٢.

الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١] وقد أصبحت السفينة في خطر فاقرعوا وخرجت القرعة باسم يونسعليه السلام وبعد ما القي في البحر ابتلعته الحوت كما لامه الناس اليضا فلو لم يبادر إلى تسبيح الله تعالى، لبقي في بطنه إلى يوم القيامة؛ وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله يهدف الى ان هذه المناجاة والتألم كانت لاجل دفع الخطر لا لاجل رفع الذنب الذي ابتلي به وذلك أنّ الأنبياء معصومون عن الخطأ والمعصية. أمّا الذنب الذي توهّمه البعض حول النبيّ يونسعليه السلام فاعتبروه عاصيًا هو الذي يتمثّل بما تستدعيه الحروب من قتل، فالقوا مسؤولية ذلك على عاتق النبي شبيه ما ذكره النبي موسىعليه السلام: **﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾**[٢]؛ فأنا مذنب في نظر الناس، ولكنّني في الحقيقة لم أقتل على الإطلاق.

طلب شخص من رسول اللهصلى الله عليه وآله أن يعلّمه القرآن، ثمّ إنّ الرسولصلى الله عليه وآله طلب من أحد الصحابة تعليمه، فلما وصلا إلى قوله تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[٣] قال له: تكفيني هذه الآية، عندها تعجّب الحاضرون من قوله، فبادرهم رسول اللهصلى الله عليه وآله قائلاً: «انصرف الرجل وهو فقيه»[٤].

كان الإمام أمير المؤمنينعليه السلام يخاطب المصلّين بعد فريضة العشاء: «تجهّزوا يرحمكم الله»[٥]؛ تجهّزوا للسفر، اجمعوا الزاد، الرحيل قريب. والقرآن الكريم كان يوحي بذكر الموت، وتجهيز الزاد والاستغفار الدائم: **﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ * فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾**[٦]. ويقول الله في آية أخرى: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**

---

١. الصافات: ١٤٣ و١٤٤؛ *بحار الأنوار*، ج١١، ص٨٢.

٢. الشعراء: ١٤.

٣. الزلزلة: ٧ و٨.

٤. *بحار الأنوار*، ج٨٩، ص١٠٧، ح٢.

٥. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٠٤.

٦. محمّد: ١٨ و١٩.

وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[١]. فالله تعالى في هذه الآيات وبلغة الإيجاب يلفت الانتباه إلى الآخرة، ويقول بلغة السلب: ﴿...وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[٢].

أسباب الكفر بالمعاد

إنّ أسباب عدم الاعتقاد بالمعاد من وجهة نظر القرآن الكريم أمور عدّة: الأولى الشبهة العلميّة والثانية الشهوة العمليّة؛ أمّا الشبهة العلميّة فمفادها انّه كيف سيجمع الله تعالى الأجزاء المتفرّقة من جديد، وكيف سيعطيها الحياة من جديد. عندما يموت الإنسان تتفرّق ذرّات بدنه إلى أجزاء صغيرة ثمّ تضيع في الأرض: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾[٣]. ويأتي جواب الله تعالى على هذه الشبهة بأنّنا قادرون على ذلك، ولسنا قادرين على جمع العظام التي تشكّل الجزء المهمّ من البدن فقط، بل بالإضافة إلى ذلك نحن قادرون على إعادة الخطوط الظريفة للأصابع إلى حالتها الأولى. والله الذي خلق الإنسان أوّل مرّة قادر على إعادة الخلق من جديد: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[٤].

أمّا الشهوة العمليّة فهي التي يتمّ فيها التغافل عن الاستنتاجات العلميّة والتي يتمّ اللجوء فيها إلى الشهوات والأهواء لنفي العلم بالمعاد والقيامة وحقّانيّتها، والتي هي من مصاديق ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[٥]. عندما تقف الشهوة سدًّا أمام العلم، تبقى المعرفة مدفونة في نصوص الكتب، ولا يساهم هذا العلم في نجاة الإنسان. أمّا القرآن الكريم فيعتبر أنّ هؤلاء الأشخاص قد أعرضوا عن الهداية. هنا يساهم الشيطان

---

١. النصر.

٢. الكهف: ٢٨ و٢٩.

٣. الواقعة: ٤٧ و٤٨.

٤. القيامة: ٤.

٥. الجاثية: ٢٣.

في تحديد مصيرهم؛ أي أنّ الأشخاص الذين استبدلوا متاع الآخرة ببضاعة الدنيا الزائلة والبخيسة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[١] والذين استبدلوا الهداية بالضلال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٢]؛ هؤلاء قد اختاروا الضلال على الهدى، وهي تجارة خاسرة.

الله تعالى هو الرؤوف الرحيم الكريم المعطي وخالق العالم، وهو المالك أيضًا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٣]، ولا يمكن لأيّ شخص الخروج عن مالكيّته، وهو الذي يحاسب الجميع، ويريد لهم أن يعيشوا الخوف والرجاء. والخوف والرجاء يساهمان في بلوغ الإنسان وتربيته تربية حسنة ويوصلانه إلى الإثمار؛ لذلك يعمل تارة على التشجيع والترغيب، وتارة أخرى على الترهيب والإخافة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[٤]. فهل الذي يحيي الليل مطيعًا لله مشغولاً بالسجود والقيام، يحذر من الآخرة ويأمل رحمة الله يستوي مع الشخص المشتغل بالكفر؟ لا شكّ أنّهما ليسا على حدّ سواء: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥].

لا يمكن للإنسان أن يمتلك الأمل بنهاية عمله من دون مراقبة دقيقة لأعماله؛ لأنّه إذا لم يراقب قد يذهب عمره الإيمانيّ هباءً في لحظات، وبالمقابل قد يتمكّن في لحظات من اليقظة أن يرمّم كلّ ما يحتمل من الانزلاقات. إذًا يجب أن نفكّر بعاقبة أعمالنا وأن نرجو رحمة الله. إنّ الإخلاص في العمل يدفع الإنسان إلى النجاة؛ لأنّ الإخلاص هو الإكسير الأعظم، حتّى إنّ الشيطان وهو أشد أعداء الإنسان يحسب حسابًا خاصا للمخلصين، بحيث لا يدخلهم في عداد الضالين المنحرفين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٦]. نعم، قد يتمكّن الشيطان من إلحاق غير المخلصين

---

١. البقرة: ٨٦.
٢. البقرة: ١٦.
٣. الفاتحة: ٢-٤.
٤. الزمر: ٩.
٥. الزمر: ٩؛ الرعد: ١٩.
٦. ص: ٨٢ و٨٣.

بحزبه وزمرته: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

النتيجة أنّ الشيطان قدّم بداية شبهة علميّة حول المعاد، ثمّ أضفى عليها صورة البرهان، وبعد تثبيتها يمارس الوسوسة والإخلال في العمل، حيث يسحب الإنسان بالتدريج نحو الشهوات العمليّة. وقد أعلن عن برنامج إضلاله على النحو الآتي: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[2].

ذكر المعاد ودوره في الأخلاق

تصل الصفات الأخلاقيّة البارزة إلى كمالها اللازم إلى جانب ذكر المعاد والقيامة؛ والسبب في ذلك أنّ ذكر الموت وعذاب القيامة يجعل قلب الإنسان خاشعًا، حيث قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]، فذكر الموت والعذاب يجعلهم خاشعين، وهذه مسألة يقينيّة لا يتطرّق إليها الشكّ على الإطلاق. ومن البديهيّ أنّ الإنسان لا يخشع أمام الشيء المظنون به، ويمكن القول إنّ الموت والاحتضار والقيامة، كلّها أمور على قدر كبير من الوحشة بحيث يكفي الخشوع أمامها بواسطة الظنّ والاحتمال، بل الإدراك الضعيف؛ وهذا يعني أنّ الظنّ والاحتمال وإن كانا ضعيفين، إلّا أنّ المظنون والمحتمل قويّ جدًّا.

إنّ من جملة صفات المصلّين التصديق بيوم القيامة؛ وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ

---

١. المجادلة: ١٩.

٢. النساء: ١١٨-١٢١.

٣. البقرة: ٤٥ و٤٦.

يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[١].

بما أنّ ذكر المعاد يساهم في دفع الشبهات العلميّة وكذلك الشهوات العمليّة، فإنّ العديد من أبحاث القرآن الكريم تنتهي بذكر الموت والقيامة، وقد أكّد القرآن الكريم على هذه المسألة، حتّى أنّه ذكرها بعد القَسَم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٢]. ويتّضح عند التحليل النهائيّ أنّ سبب عدم الاعتقاد بالقيامة والمعاد، هو عدم معرفة الله حقّ المعرفة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٣]؛ لأنّ المعاد هو الرجوع إلى المبدأ، فمن لم يعرف مبدأ العالم الفاعليّ، أي الله سبحانه وتعالى كما يجب، ومن لم يعرف أسماءه الحسنى وصفاته العليا، فلن يؤمن بالمعاد.

---

١. المعارج: ٢٣-٢٨.

٢. التغابن: ٧-١٠.

٣. الأنعام: ٩١.

الفصل الثاني

الدنيا والآخرة

معنى الدنيا والآخرة

مؤنّث أدنى الدنيا. إذا كانت الكلمة قد أخذت من «دنئَ» و «دناءَة»، فهي تعني الشيء الخسيس والوضيع، وإذا كانت تعود إلى «دنوّ»، فهي تعني الأقرب، وعلى هذا الأساس فإنّ لفظة الدنيا بحاجة إلى موصوف أو متعلّق دائمًا؛ مثال ذلك: الحياة الدنيا، عذاب الدنيا، سعادة الدنيا، بلاء الدنيا، ثروة الدنيا، متاع الدنيا، حبّ الدنيا، غرور الدنيا، جاه الدنيا، رئاسة الدنيا.

أمّا لفظة الآخر ـ على وزن فاعل ـ ولفظة الآخرة تقابلان الأوّل، والمقصود الآتي والثاني. وأطلق القرآن الكريم على القيامة والنشأة الأخرى ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾[1]، و ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[2]، والوجه في ذلك أنّ الحياة الدنيا هي الأوّل، والحياة العقبى هي الآخرة. وتطلق «الدنيا» على الحياة الدنيا، إمّا لأنّها الأوضع والأدنى بالنسبة للحياة الآخرة، وإمّا لأنّ الحياة الحالية هي الأقرب لنا من الحياة الآخرة.

يُستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ الدنيا هي بالمعنى الثاني، وأصلها يعود إلى «دنوّ» أي القرب، باعتبار أنّها جُعلت في العديد من الآيات مقابل الآخرة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[3]، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[4].

---

١. البقرة: ٩٤.

٢. البقرة: ٨.

٣. البقرة: ٢٠١.

٤. آل عمران: ٢٢.

تكرّر ذكر كلمة الدنيا ١١٥ مرّة في القرآن الكريم، وكانت في جميعها صفة للحياة الحاليّة، إلاّ في أربع مواضع، فكانت فيها صفة سماويّة ومنطقة خاصّة من الأرض: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾[١]؛ «العدوة» هي حاشية الصحراء وأطرافها و«القصوى» مؤنّث الأقصى؛ المعنى أنّكم أيّها المسلمون الأقرب إلى أطراف صحراء المدينة، والكافرون في طرفها الأبعد، وقافلة أبي سفيان أسفلَ منكم. وجاء في آية أخرى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[٢]، وكذلك الحال في الآية الثانية عشر من سورة فصّلت، والآية الخامسة من سورة الملك. إنّ معنى كلمة «الدنيا» في هذه الآيات هي الأقرب.

اعتبر الجوهريّ صاحب الصحاح أنّ الدنيا أطلق عليها هذا الاسم لقربها. وفي قاموس اللغة وأقرب الموارد ان الدنيا تقابِل الآخرة، ويقول صاحب النهاية ان الدنيا اسم لهذه الحياة، والآخرة بعيدة عنها، وقد ذكر صاحب المفردات هذه المعاني كافّة[٣].

بناءً على ما تقدّم لا يمكن إطلاق مصطلح الدنيا المذمومة على السماء، الأرض، البحار، الصحاري، الغابات، الأشجار وكافة الموجودات المادّيّة والعنصريّة، بل جميعها آيات إلهيّة. هي موجودات تشير إلى قدرة الله تعالى ولا تقصّر في التسبيح والسجود له: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٤]. وجميعها لخدمة البشر ومسخّرة لهم، ويظهر عنوان الدنيا المذمومة كلّما جرى الحديث عن الـ «أنا» والـ «نحن» وعن سوء الاستفادة الأخلاقيّة والعقائديّة من الأمور الاعتباريّة؛ مثاله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٥]، والآية الشريفة تحكي قصّة رجل يحاور ويفاخر صديقه بما يملك في حديقته.

---

١. الأنفال: ٤٢.

٢. الصافات: ٦.

٣. *مفردات الراغب*، مادتي الدنيا والآخرة.

٤. الإسراء: ٤٤.

٥. الكهف: ٣٤.

تعريف الدنيا في القرآن

جاء في فنّ المنطق أنّ أشياء عالم الوجود تُعرّف وتُوضّح بأحد المناهج الخمسة الآتية: الحدّ التّام، الحدّ الناقص، الرسم التّام، الرسم الناقص والتمثيل، وقد استعان القرآن في تعريف الدنيا تارة بالتمثيل، وقد جاء في الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقال الله تعالى في آية أخرى على سبيل التمثيل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[2].

عرّف الله تعالى الدنيا في هذه الآيات بمظاهر الطبيعة، وعلى هذا الأساس لا تكون الطبيعة ومظاهرها دنيا، وإلاّ لزم من ذلك اتّحاد المثال والممثل والمعرِّف والمعرَّف.

تحدّث الله تعالى عن الحياة الدنيا على أنّها متاع الغرور: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[3]؛ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[4].

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول الدنيا إنّها أدنى العوالم وأحطّها: «من هوان الدنيا على الله أنّه لا يُعصى إلاّ فيها ولا يُنال ما عنده إلاّ بتركها»[5]، ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى أعلى المقامات إلاّ من خلال ترك العلائق الدنيويّة.

الدنيا ومراحلها الخمس

أشرنا إلى أنّ عدم الاهتمام بالدنيا لا يقصد منه عبثيّة وبطلان السماء والأرض، باعتبار أنّ بطلان وعبثيّة مظاهر خلق الله تعالى مرفوض من وجهة نظر القرآن الكريم، وهو من

---

١. يونس: ٢٤.

٢. الكهف: ٤٥.

٣. لقمان: ٣٣؛ فاطر ٥.

٤. الحديد: ٢٠.

٥. *نهج البلاغة*، الحكمة ٣٨٥.

جملة رؤى الكافرين: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[١]. إنّ نظام الكون ليس من دون هدف، لأنّ هذه العقيدة هي من ظنون الكافرين، حيث يقولون إنّ عالم الوجود، وهو هذه الدنيا فقط، وأنّ الحياة تنتهي بالموت، وأنّ الإنسان ينتهي كلّيًا عند موته، وكذلك الكون الذي يتّجه نحو الفناء؛ أمّا سبب بطلان هذا الظنّ أنّ الله تعالى حكيم، والحكيم لا يأتي بعمل عبثيّ لا هدف فيه، وقد أشرنا إلى أنّ النظام شيء آخر غير «الحياة الدنيا» المرتبطة بالإنسان ورؤاه. جاء في القرآن الكريم: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢]، وعلى هذا الأساس فإنّ مراحل الإنسان الخمسة في الدنيا عبارة عن: اللعب، اللهو، الزينة، التفاخر والتكاثر.

البداية تكون مع مرحلة الطفولة، حيث تغرق الحياة في هالة من الغفلة والجهل واللعب، ثمّ تأتي بعدها مرحلة الناشئة ويحلّ اللهو مكان اللعب، وفي هذه المرحلة يبحث الإنسان عن المسائل التي تجذبه إليها ويبتعد عن الأمور الجدّيّة؛ أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة الشباب، حيث الحركة والعشق والتزيّن؛ أمّا في المرحلة الرابعة، فينمو في الإنسان الشعور بالحاجة للمقام والافتخار، ثمّ في المرحلة الخامسة يبدأ التفكير في زيادة المال وجمع الثروة والأبناء.

وصف القرآن الكريم هذه المراحل الخمس بأنّها متاع الغرور. وعلى هذا الأساس فالدنيا أداة للغرور والخداع. فالأشخاص الذين جعلوا الدنيا هدفهم النهائيّ، قد تعلّقوا بها واعتمدوا عليها، وكانت آخر أمنياتهم الوصول إليها، أمّا إذا كانت مواهب هذا العالم المادّي وسيلة للوصول إلى القيم الإنسانيّة المتعالية والسعادة الخالدة، فلن تكون الدنيا مذمومة على الإطلاق، بل تصبح مزرعة الآخرة وسلّمًا للوصول إلى الأهداف الكبيرة.

تختلف وجهة الاهتمام بالدنيا بين اعتبارها «ممرًّا» أو «مقرًّا» وهما يقدّمان للإنسان

---

١. ص: ٢٧.

٢. الحديد: ٢٠.

اتّجاهين مختلفين، فيكون أحدهما سببًا للنزاع والفساد والاعتداء والظلم والطغيان والغفلة، ويكون الآخر وسيلة للمعرفة والإيثار والتضحية والأخوّة والتسامح، ويكون أحدها عفريت الجهل والظلم، والآخر ملاكَ العلم والعدل، ويكون الأوّل طغيان الجاهلين والثاني تقوى العاقلين.

وقد نزل في القرآن الكريم لكلّ واحدة من مراحل الدنيا المذمومة الخمسة آية أو أكثر، وقال تعالى واصفًا الدنيا بأنها «لعب ولهو»: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[1]، وهي «متاع الغرور»: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2]، وهي «المتاع القليل»: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾[3]، بل هي متاع لا قيمة له: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[4].

بناءً على ذلك فإنّ الأرض، السماء، الغيوم، الرياح، الضباب، الشمس، القمر، وكافّة الآيات الإلهيّة هي مظاهر جمال الحقّ وجلاله، وهي علامات الحقّ ومظاهر فيضه ومرايا ظهوره، وظهور الحكمة العمليّة التي أرادها، ولا ينطبق عليها عنوان الدنيا بالمعنى المصطلح، بل الدنيا هي عقود خاصّة مدروسة ومبرمجة لأجل الحياة المادّيّة، وفيها يُخدع الإنسان عند: الافتخار، التخيّل، التعلّق، العلاقات الاعتباريّة، الألقاب، المناصب والمقامات.

تحدّث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول الدنيا بعبارات بليغة وجميلة فقال:

«تغرّ وتضرّ وتمرّ، إنّ الله تعالى لم يرضها ثوابًا لأوليائه ولا عقابًا لأعدائه، وإنّ أهل الدنيا كركب بينا هم حَلّوا إذ صاح بهم سائقهم فارتحلوا»[5]؛

ولذلك أكّد موصيًا:

«فعليكم بالجدّ والاجتهاد والتأهّب والاستعداد والتزوّد في منزل الزاد، ولا تغرّنّكم

---

١. الأنعام: ٣٢.

٢. آل عمران: ١٨٥.

٣. النساء: ٧٧.

٤. النساء: ٩٤.

٥. *نهج البلاغة*، الحكمة ٤٢٥.

الحياة الدنيا كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية...»[١]، ثمّ يضيف قائلاً:

«فاحذروا الدنيا، فإنّها غدّارة غرّارة خدوع، معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها ولا ينقضي عناؤها ولا يركد بلاؤها[٢].

الدنيا الممدوحة والمذمومة

قال أمير المؤمنينعليه السلام وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا:

«أيّها الذامّ للدنيا، المغترّ بغرورها، المنخدع بأباطيلها، أتغترّ بالدنيا ثمّ تذمّها؟ أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك؟ متى استهوتك؟ أم متى غرّتك؟ أبمصارع آبائك من البِلى أم بمضاجع أمّهاتك تحت الثرى؟ كم علَّلت بكفّيك وكم مرَّضت بيديك، تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفاقُك، ولم تسعف فيه بطلبتك ولم تدفع عنهم بقوّتك، قد مثَّلت لك به الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك»[٣].

ثمّ تابع قائلاً:

«الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها. مسجد أحبّاء الله ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنّة، فمن ذا يذمّها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثلت لهم ببلائها البلاء وشوقتهم بسرورها إلى السرور»[٤].

---

١. م.ن: الخطبة ٢٣٠.

٢. م.ن: الخطبة ٢٣٠.

٣. *نهج البلاغة*، الحكمة ١٣١.

٤. م.ن.

صفة الدنيا عند أمير المؤمنين عليه السلام

نُقل عن أمير المؤمنين وقدوة المتّقين في كتاب الغرر والدرر كلام في الدنيا تجاوز الثلاثمئة مرّة وببيانات مختلفة يرسم فيه صورتها ويحتقرها، لا بل عبرّ عنها بعبارات تبيّن عدم الرضى عنها، يقول عليه السلام:

«عباد الله، أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبّوا تركها، والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبّون تجديدها، فإنّما مثلكم ومثلها كسفرٍ سلكوا سبيلاً، فكأنّهم قد قطعوه، وأمّوا علمًا فكأنّهم قد بلغوه...»[١].

ثمّ يقول في موضع آخر:

«انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنّها والله عمّا قليل تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن، لا يرجع ما تولّى منها فأدبر، ولا يدري ما هو آت منها فينتظر. سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن، فلا يغرّنّكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلّة ما يصحبكم منها. رحم الله امرءًا تفكّر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكأنّ ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل، وكلّ معدود منقض، وكلّ متوقّع آتٍ، وكلّ آتٍ قريب دان»[٢].

وقد مثّل الدنيا بالحيّة الليّنة الملمس الجميلة المنظر التي يقتل سمّها الإنسان، فقال مخاطبًا سلمان عليه السلام:

«فإنّما مثل الدنيا كمثل الحيّة: ليّن مسّها، قاتل سمّها، فأعرض عمّا يعجبك فيها لقلّة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها. وكن آنس ما تكون بها أحذر ما تكون منها»[٣].

أشار الفخر الرازي في تفسيره الكبير إلى الدنيا ووجوهها القبيحة وتمسّك بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقال:

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ٩٩.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٠٣.

٣. م.ن: الرسالة ٦٨.

«إنّ الدنيا متاع الغرور، وإنّها كما وصفها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، حيث قال: لينّ مسّها قاتل سمّها»[١].

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام فيها أيضًا: «طلاق الدنيا مهر الجنّة»[٢]. وخاطب أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا قائلاً:

«والله، لو كنتِ شخصًا مرئيًّا، وقالبًا حسّيًّا، لأقمت عليكِ حدود الله في عباد غررتهم بالأماني، وأمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التلف، وأوردتهم موارد البلاء، إذ لا ورد ولا صدر»[٣].

كان أمير المؤمنين عليه السلام يذكّر بالدنيا والاغترار بها:

«وحقًّا أقول: ما الدنيا غرّتك، ولكن بها اغتررت. ولقد كاشفتك العظات وآذنتك على سواء. ولهيَ بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوّتك أصدق وأوفى من أن تكذّبك أو تغرّك»[٤].

الدنيا لا تكتم شيئًا، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم عندما ينادي المنافقون المؤمنين في القيامة: ﴿**انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ**﴾[٥]، ويجيب المؤمنون: ﴿**أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾[٦].

يشبّه أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا بالطعام المتبقّي في الفم والذي يخرجه المسواك، ويؤكّد أنّ ما بأيديكم من الدنيا من بيت وحياة وأرض وبساتين، كلّها فضلات أكل الماضين، وما كان قد علق بأسنانهم؛

---

١. *التفسير الكبير*، ج٩، ص١٢٧.

٢. *شرح غرر الحكم*، ج٤، ص٢٥٠، ح٥٩٨٩.

٣. *نهج البلاغة*، الرسالة ٤٥.

٤. م.ن، الخطبة ٢٢٣.

٥. الحديد: ١٣.

٦. الحديد: ١٤.

«ألا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟ إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها»[١].

كلام أمير المؤمنين عليه السلام مع أصحاب القبور

وقال عليه السلام حين رجع من صفين، فأشرف على القبور بظاهر الكوفة:

«يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سُكِنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى»[٢].

وكان يوصي عليه السلام بالالتفات للآخرة، فأيّام العمر وشهوره وأعوامه تمضي بسرعة:

«سابقوا، رحمكم الله، إلى منازلكم التي أُمرتم أن تعمروها، والتي رغبتم فيها ودُعيتم إليها. واستتمّوا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته، والمجانبة لمعصيته، فإنّ غدًا من اليوم قريب. ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر»[٣].

ويقول أيضًا: «وإنّ اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»[٤].

ويضيف: «وانصرمت الدنيا بأهلها وأخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضى أو شهر انقضى»[٥].

قال عليه السلام: «ما قال الناس لشيء طوبى له إلّا وقد خبّأ له الدهر يوم سوء»[٦].

---

١. *نهج البلاغة*، الحكمة ٤٥٦.

٢. *نهج البلاغة*، الحكمة ١٣٠.

٣. م.ن، الخطبة ١٨٨.

٤. م.ن، الخطبة ٤٢.

٥. م.ن: الخطبة ١٩٠.

٦. م.ن: الحكمة ٢٨٦.

من وجهة نظر الإمامعليه السلام فالأتقياء هم الذين عرفوا الدنيا حتى قال في وصفهم:

«ولولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقًا إلى الثواب وخوفًا من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»[١].

إحكام الخلق

إنّ عالم الوجود والسماوات والأرض جميعها من وجهة نظر القرآن الكريم خُلقت بناءً على أساس محكم ثابت وحقّ، فلم يكن في ذلك أيّ لهو ولعب: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾[٢].

وهنا يمكن طرح سؤال حول ما يستفاد من ظاهر بعض آيات القرآن الكريم التي اعتبرت الحياة الدنيا لعبًا ولهوًا ومتاع الغرور، مع أنّ بعض الآيات الشريفة أشارت إلى إتقان الصنع الإلهيّ وتنزّهه عن العبث، فإذا كانت الحياة الدنيا لعبًا ولهوًا، وكان الله تعالى منزّهًا عن العبث، فمن الذي خلق هذا اللهو واللعب؟

يشير الأستاذ العلّامة الطباطبائيقدس سره إلى أنّ الدنيا ألعوبة، والله تعالى حكيم وليس لاعبًا، وإشغال أهل الدنيا بها حكمة؛ فانشغال الأطفال على سبيل المثال باللعب عمل حكيم؛ والوالد الحكيم العاقل هو الذي يهيّئ لأطفاله أدوات اللعب ويشغلهم بها، والوالد العاقل هو الذي يأخذ بأطفاله إلى اللعب الذي يؤدّي إلى تكاملهم وإيصال الأطفال إلى تكاملهم عمل حكيم. إذا شاء الله لعباده العاديّين الوصول إلى الكمال، هيّأ لهم الارتقاء بوسائل وأدوات الدنيا، ولم يجعل الاشتغال باللعب هدفًا نهائيًّا للخلق. ومدير المدرسة يخصّص ساعة في البرنامج التحصيليّ للعب السالم والهادف، فينشغل الأطفال باللعب السالم، وبالتالي يكون حكيمًا بعمله هذا. والحكمة في ذلك وجود ساعة للرياضة واللعب السليم إلى جانب تحصيل العلم. طبعًا من يمضي العمر وجميع ساعات تحصيله العلميّ في اللعب واللهو، يستحقّ الذمّ والعقوبة، وإذا أتقن الطفل مسألة علميّة استحقّ التشجيع والتحفيز، بينما لا يحصل الأمر إذا أتقن المسألة رجل كبير

---

١. م.ن: الخطبة ١٩٣.

٢. الأنبياء: ١٦.

في العمر؛ فالعجوز ليس بحاجة للتشجيع والتحفيز. وعلى هذا الأساس، فاللعب سبب من أسباب نموّ الطفل وتكامله وليس هدفًا؛ لذلك لم يشتغل الأنبياء وأولياء الله لحظة واحدة بالدنيا على سبيل اللهو واللعب، فالدنيا ألعوبة، والله تعالى جعلها وسيلة للتكامل، وإيجاد وسائل التكامل عمل حكيم وليس لهوًا.

يشير القرآن الكريم إلى أنّ نموّ الإنسان وتكامله لا يحصل من خلال مال الدنيا وزخارف الحياة وبهارجها، بل يحصل التكامل في ظلّ الإيمان والابتعاد عن الكفر والفسق والمعصية: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[١].

مراحل الحياة

أشار الإمام الثامن عليه السلام إلى مراحل الحياة الثلاثة الموحشة والمخيفة:

«إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد ويخرج من بطن أمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يُبعث فيرى أحكامًا لم يرها في دار الدنيا، وقد سلّم الله عزّ وجلّ على يحيى في هذه الثلاثة المواطن وآمن روعته فقال: «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا»، وقد سلّم عيسى بن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال: «والسلام عليَّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا»»[٢].

إنّ أصعب مراحل الجنين هي عندما يضع قدمه خارج عالم الرحم ويخرج إلى الطبيعة؛ ومع أنّ الجنين قد عاش مراحلَ في الرحم إلّا أنّ أيًّا منها ليس موحشًا بمقدار مرحلة الولادة، حيث إنّ ثمّة اختلافًا كبيراً بين المرحلتين. وعندما يدخل الشخص البرزخ يطّلع على حقائق لم يشاهدها في عالم الطبيعة، فيشاهد أوضاعًا وأحوالًا وحوادثَ لم يتصوّر وجودها في الطبيعة. أمّا أوسع المراحل فتتحقّق عندما يصل الشخص إلى القيامة

---

١. الحجرات: ٧.

٢. *نور الثقلين*، ص٣٢٧.

منتقلاً إليها من البرزخ، حيث يجتمع الأوّلون والآخرون. يشاهد هناك أمورًا من قبيل الميزان، الحساب، الصراط، جهنّم، الجنّة وأمورًا أخرى لم يشاهدها من قبل.

يذكر الإمام عليه السلام نموذجين من الأنبياء عليهم السلام الذين تحدّثوا عن هذه المراحل الثلاث، وهما نبيّ الله يحيى عليه السلام ونبيّ الله عيسى عليه السلام. من هنا، فإنّ سعادة الإنسان الحقيقيّة تتحقّق عندما يرد القيامة سالماً وهذا ما أشار إليه الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم، وقد جاء في الآية الشريفة: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾[١]. وهذا يعني أنّ أولياء الله يقطعون المراحل الثلاث فائزين سالمين.

زينة الدنيا وزينة الآخرة

يشير القرآن الكريم إلى أنّ أفضل زينة الإنسان الإيمان[٢]؛ وقد وَعَدَ الله المتزيّن بها بالجنّة: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[٣]. وفي المقابل فإنّ زينة الآخرة المحمودة، هي الزينة المذمومة في الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٤]. وجاء في الآية الشريفة أيضًا: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند اللّه خير وأبقى أفلا تعقلون﴾[٥]. وعلى هذا الأساس، فإنّ عالم الإمكان قسمان: العالم الأعلى حيث الزينة الأفضل، والعالم الأدنى حيث الزينة الدنيا، وكلّ من اتّجه نحو زينة الدنيا وابتعد عن ما أراده الله تعالى، فقَدَ رأسماله وانشغل بالزينة الفانية، أمّا من اختار الجهة الأعلى فقد أدركَ لقاء الله ووعده الحسن وكان نصيبه أبديًّا. ومن هنا، فالدنيا سوق وكلّ شخص يطلب بضاعة، حيث جاء عن الإمام الهادي عليه السلام: «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»[٦].

---

١. مريم: ٣٤.

٢. الحجرات: ٧.

٣. القصص: ٦١.

٤. آل عمران: ١٤.

٥. القصص: ٦٠.

٦. *بحار الأنوار*، ج٧٨، ص٣٦٥.

طبعًا يوجد الكثير من قاصري النظر الذين يحصرون آمالهم في الدنيا الدنيّة ويردّدون شعار الماديّة ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾[١]، إلاّ أنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى جواب الله تعالى على مريدي التفكير القاروني: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٢]، مع العلم أنّ الآيات الشريفة تتحدّث في مورد آخر عن مُسَاءلة هؤلاء: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[٣].

الدنيا أداة امتحان

إنّ النعمة والنقمة، الرفاه والألم في الدنيا من وجهة نظر القرآن الكريم كلاهما امتحان إلهيّ، ليس كلّ إنسان مرفّهٍ محلاً لكرم الله تعالى، وليس كل إنسان مبتلىً محلاً لعقابه واحتقاره.

يتحدّث القرآن الكريم عن أنّ الإنسان العاديّ يظنّ أنّ الله أكرمه إذا أغدق عليه نعمه، وأنّه يهينه إذا ضيّق عليه سبل العيش، والواقع ليس كذلك؛ فليس الرفاه علامة على كرامة الشخص، وليس الألم سببًا لاحتقار الإنسان: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾[٤]، والحقيقة أنّ كلاهما امتحان إلهيّ، مع العلم أنّ الإنسان إذا ما أعرض في الدنيا عن الحقّ والحقيقة، فسيعيش في الدنيا حياة ضيق، وسيُبتلى في الآخرة بالعمى الباطنيّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٥]. والضنك لا يعني دائمًا الفقر والدونيّة، بل قد يكون تارة ضغوطًا من ناحية الدنيا لما فيه من رزق وزخارف وفائدة كبيرة؛ فهو أشبه ما يكون بالحمامة المسجونة في قفص من ذهب.

صحيح أنّ الجمع بين الدنيا والآخرة ممكن، فأولياء الله تعالى قد اعتبروا الدنيا وسيلة للوصول إلى الأهداف الأخرويّة المتعالية؛ وتبيّن العادة والمشاهد أنّ الميل نحو

---

١. القصص: ٧٩.

٢. القصص: ٧٨.

٣. الصافات: ٢٤.

٤. الفجر: ١٥ و١٦.

٥. طه: ١٢٤.

أحدهما يساهم في الابتعاد عن الأخرى، من هنا يتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام بكلام جميل فيقول: «إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما؛ كلّما قرب من واحد بَعُدَ من الآخر، وهما بعدُ ضرّتان»[1].

ووصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله في إحدى خطبه، فقال:

«عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أنّ الله سبحانه أبغض شيئًا فأبغضه، وحقَّر شيئًا فحقّره، وصغّر شيئًا فصغّره... ويكون السّتر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير، فيقول: يا فلانة، لإحدى أزواجه، غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها»[2].

والدنيا محبوب كاذب وفي الآخرة تتلاشى كلّ العلاقات والارتباطات الكاذبة.

خرج أمير المؤمنين عليه السلام مرفوع الهامة من كافّة امتحانات الدنيا، وطلّقها ثلاثًا وتركها، فقال:

«غرّي غيري لا حاجة لي فيك قد طلّقتك ثلاثًا لا رجعة فيها! فعيشك قصير وخطرك يسير وأملك حقير»[3].

أمّا الإنسان الذي اهتمّ بالآخرة، فيردّد مترنّمًا بكلمات:

«صبراً على قضائك يا ربّ لا إله سواك يا غياث المستغيثين، ما لي ربّ سواك ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك يا غياث من لا غياث له، يا دائمًا لا نفاد له...»[4].

لقد طلّق أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا ثلاثًا في جميع حالات حياته الشريفة؛ سواء أكان في حالة الزراعة، أم في حالة الحكومة، وسواء أكان في زمن الحرب أم الصلح، وفي كافّة الأوقات التي كان يتعاطى فيها مع أمور الدنيا. لم يكن الإمام عليه السلام ابنًا للدنيا على الإطلاق؛ لذلك كان يقول:

---

١. *نهج البلاغة*، الحكمة ١٠٣.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٦٠.

٣. م.ن: الحكمة ٧٧.

٤. *موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام*، ص ٥١٠.

«فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كلّ ولد سيُلْحَق بأبيه يوم القيامة»[١].

مريدي الدنيا ومريدي الآخرة

الناس من وجهة نظر القرآن الكريم على ثلاث مجموعات: الأولى طالبو الدنيا وعباد الأهواء؛ أي الذين ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[٢]. والكافرون من ضمن هذه المجموعة. الله تعالى يوصلهم بشكل عامّ إلى مرادهم المادّيّ طبعًا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾[٣].

المجموعة الثانية هم مريدو الدنيا تارة والآخرة تارة أخرى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

المجموعة الثالثة هم الذين باعوا أنفسهم ودنياهم واشتروا الآخرة لأجل رضى الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[٥]، وهؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾[٦]، وهم أهل الآخرة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾[٧]. أراد الله تعالى للمجموعة الأولى والثالثة أن يستفيدوا ممّا تملك الطبيعة من مزايا من أجل الامتحان والاختبار، كما تمتحن المجموعة الثانية في حدود حركتها: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٨]؛ فلا ممنوعيّة من عطاء الله تعالى. المجموعة الثالثة فقط هي التي

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ٤٢.

٢. البقرة: ٨٦.

٣. الإسراء: ١٨.

٤. التوبة: ١٠٢؛ التوبة في الآية الشريفة هي رجوع لطف الله الإبتدائي إلى العبد وليس التوبة النهائيّة.

٥. البقرة: ٢٠٧.

٦. النساء: ٧٤.

٧. الإسراء: ١٩.

٨. الإسراء: ٢٠.

تصل إلى السعادة طبعًا، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل إليهم فقال: «وحالي في خدمتك سرمدًا».

أمّا القرآن الكريم فقد أشار إلى أحوال المجموعات الثلاث: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[١]؛ وهذا يعني أنّ في القيامة عذابًا ومغفرة تترافق مع دخول الجنّة، بالإضافة إلى مقام رضوان الله المتعالي، مع العلم أن لا حرج في انطباق رسالة الآية الشريفة على المجموعات الثلاث المتقدّمة؛ إلّا أنّها تقبل ذلك. كما أنّ محتوى الآية يتناسب مع ما ذكر هنا.

المجموعات الثلاث للمؤمنين بالآخرة

ثمّة مجموعة على يقين بجهنّم وتبذل كلّ جهودها للنجاة من العذاب، وهم المجموعة الذين يُعبرّ عنهم بالخائفين.

وثمّة مجموعة تبذل كلّ جهودها للحصول على نِعَم الجنّة المادّيّة، وهم الذين يُعبرّ عنهم في القرآن بالطامعين.

أمّا المجموعة الثالثة، فهم المشتاقون لرضى الخالق، وهم الذين يفوقون المجموعتين المتقدّمتين في الفائدة وأصحاب المقام المتعالي؛ لأنّهم قبلوا وارتضوا كلّ ما أراده الله تعالى، والله تعالى راضٍ عنهم. وقد عَدّد القرآن الكريم صفات هذه المجموعة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

---

١. الحديد: ٢٠.

٢. المجادلة: ٢٢.

وعلى هذا الأساس، فالمعتقدون بالمعاد ثلاث مجموعات من حيث عبادتهم لله تعالى؛ فبعضهم يعبده «خوفًا من الله»، وبعضهم الآخر «شوقًا إلى الجنّة» وأملاً بفضله، وأصحاب المجموعة الثالثة يعبدونه «حبًّا لله...» و ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[١].

التقابل بين الدنيا والآخرة

بعض الناس يمتلك المال والولد والذهب، وهو بعيد عن كلّ مراتب التقوى، ولا أثر لها في داخله أو ظاهره. وثمّة أتقياء حُرموا من مال الدنيا وعاشوا فقراء معدمين. وقد صوّر لنا القرآن الكريم أحوال المجموعتين، فجاء في شأن الأولى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٢].

وجاء في القرآن الكريم حول مريدي الآخرة الأتقياء والذين تخلّوا عن الدنيا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٣]. فالإنسان التقيّ لا يصل إلى طريق مسدود في أيّ عمل يشتغل به؛ لا في المسائل الاقتصاديّة ولا في المسائل العلميّة أو السياسيّة أو العسكريّة و... والإنسان التقيّ قد يَحُلّ معضلاته العلميّة من ثنايا أسئلة وإجابات الآخرين، وهذا مصداق الرزق «من حيث لا يحتسب»، وقد يصل إلى معارف متعالية أثناء المطالعة وتفحّص ما ليس مدوّنًا في الكتب.

تحدّث الله تعالى في القرآن الكريم عن المجموعة الأولى واعتبرهم أتباعًا للشيطان:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

إنّ طلب الدنيا من وجهة نظر القرآن الكريم يعود إلى قصر في النظر. وطالب الدنيا لن يكون له حظ من الآخرة: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

---

١. الحشر: ٨.

٢. التوبة: ٥٥.

٣. الطلاق: ٢ و٣.

٤. البقرة: ١٠٢ و١٠٣.

خَلَاقٍ﴾[١]؛ بعض قاصري النظر يرجون من الله متاع الدنيا، ولن يكون لهؤلاء نصيب من الآخرة؛ لأنّهم طلبوا من الله الدنيا فقط، بحلالها وحرامها وفي مقابل هذه المجموعة ثمّة من يطلب نِعَم الله تعالى في الدنيا والآخرة: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٢].

ويؤكّد القرآن الكريم أنّ الذين طلبوا الدنيا واستعملوا الوسائل المرفوضة للحصول عليها، مخطئون، فهؤلاء لا يدركون أنّ الحياة الدنيا، من البداية إلى النهاية، ليست سوى متاع قليل لا يمكن مقارنتها ومقايستها بالأمور الأخرويّة: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾[٣]. عندما تختصر رؤية الإنسان الكونيّة ومعرفته بالكون في حدود الظواهر الدنيويّة، ولا يسمح لنفسه بالتفكير بالعالم الآخر، ويعيش حالة الغفلة الكاملة أحيانًا عنها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٤]، فهؤلاء لا يدركون أنّ نظام الآخرة، هو نظام آخر لا أثر فيه للعلل والأسباب الطبيعيّة ولما فيها من زخارف وزينة، وهذا يعني أنّهم سيكونون من الآخرين فيها، فالدنيا ليست سوى عَرَض: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[٥].

طالبو الدنيا يختارون متاعها الداني: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾[٦]، مع العلم أنّ الرؤية الكونيّة ومعرفة الدنيا من وجهة نظر القرآن الكريم هي الجمع بين حسنات الدنيا وحسنات الآخرة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧].

وصف القرآن الكريم الدنيا ومتاعها البخيس بأنّها ﴿عَرَضَ﴾، وذكر النعم الإلهيّة واصفًا إيّاها بأنّ ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، والعرض أمر يقبل الزوال والانعدام، ومن هذا الجذر اللغويّ

---

١. البقرة: ٢٠٠.

٢. البقرة: ٢٠١ و٢٠٢.

٣. الرعد: ٢٦.

٤. الروم: ٧.

٥. النساء: ٩٤.

٦. الأعراف: ١٦٩.

٧. الأنفال: ٦٧.

والأدبيّ اقتُبست كلمتا الجوهر والعرض المستخدمتان في العلوم العقليّة كالكلام والفلسفة. يطلق في اللغة والعرف على الأمر الأصيل الجوهر وعلى الأمر غير الثابت العرض. الأحداث المتصرّمة وغير الباقية هي عرض وعارض. استخدم القرآن الكريم مصطلح العرض للإشارة إلى الدنيا ليلفت انتباهنا إلى أنّ الدنيا كالصورة التي تعبّر عن أصل؛ لذلك يجب أن لا يتعلّق الإنسان بالصورة، بل بصاحب الصورة. إنّ متاع الدنيا زائل و﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، و﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

إذًا ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1] وتعتبر هذه الآية كبرى عامّة بالنسبة لقوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وإذا كان الإنسان لا يفنى بالموت وهو باقٍ، فهو بحاجة إلى متاع باقٍ وبضاعة خالدة وهي عند الله فقط.

تجارة منزل الدنيا

يميل الطبع البشريّ نحو الاستفادة والربح، كما تميل فطرة الإنسان في كلّ معاملة وعلاقة إلى تحصيل نفع معنويّ والوصول إلى النتيجة المطلوبة. وقد يخطئ الإنسان في تحديد مسير وجهة المنفعة الصحيحة.

جاء القرآن الكريم ليؤدّي دور هدايةِ طبعه وفطرته وإرشادهما نحو الوجهة الصحيحة، حتّى أنّه جاء ليشير إلى أنّ أموالكم وأرواحكم هي رأسمالكم وأن لا تبيعوها إلّا بثمن كبير وهو الإيمان والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]. وأشار الله تعالى في آية أخرى إلى التاجر الذي لا تخسر تجارته على الإطلاق ولا تزول أبدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[3]. في هذه الأحوال يجعل الله الجنّة نصيبهم، ويعفو عن ما

---

١. النحل: ٩٦.

٢. الصف: ١٠ ـ ١١.

٣. فاطر: ٢٩.

ارتكبوا ويحصلون على مرتبة الصلاح الكبرى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

وتصبح هذه التجارة المحبوبة لديكم مرشدة إلى منفعة من نوع خاصّ في العالم الآخر: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

يشير القرآن الكريم إلى أنّ التجارة الخاسرة هي التي يبيع فيها الإنسان الهداية ويشتري الضلال، والله تعالى يترك هذا الإنسان في ضلاله ليعيش الضياع: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٣]. إنّ أسوء أنواع المعاملات تلك التي يبيع الإنسان فيها نفسه ويشتري في المقابل الكفر والعصيان؛ وهذا يعني اختياره الضلال والحركة نحو جهنّم:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٤].

طبعًا من أراد الآخرة في هذه التجارة وعمل في سبيل ذلك، ستصل جهوده إلى النتيجة المقبولة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾[٥]، والله تعالى يزيد لمن يطلب الآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾[٦]، ويثيبه أفضل من عمله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[٧]، ويضاعف له الأجر عشر مرّات: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٨]، بل إن مثل هذه التجارة تتضاعف إلى الـ ٧٠٠ ضعف أو الـ ١٤٠٠ ضعف: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي

---

١. الصف: ١٢.

٢. الصف: ١٣.

٣. البقرة: ١٥ ـ ١٦.

٤. البقرة: ٩٠.

٥. الإسراء: ١٩.

٦. الشورى: ٢٠.

٧. القصص: ٨٤.

٨. الأنعام: ١٦٠.

﴿كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]. وفي هذه التجارة يحصل الإنسان على ثواب الدنيا ومنفعتها وكذلك ثواب الآخرة ومنفعتها: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]. ويكون للمؤمنين نصيب من اللذائذ الدنيويّة والآخرويّة المشروعة أمثال: المال الحلال، الولد، الرزق الطيّب الطاهر، الزينة الإلهيّة وقد جاء في الآية الشريفة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣]. وما يستفيد منه المؤمنون مخالف لما يستفيد منه الكافرون وعباد الدنيا الذين يقال لهم تمتّعوا بالدنيا ولذائذها، فهؤلاء لن يتحرّكوا سوى إلى جهنّم، حيث تكون مأواهم: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[٤].

وعلى هذا الأساس، ينال أهل الإيمان النعم الخالصة غير المشوبة بالعذاب: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أمّا أهل اللذائذ الدنيويّة فينالونها مشوبة بالألم والعذاب.

المعبر والمستقرّ

إنّ عالم الطبيعة في حالة سعي وحركة من القوّة إلى الفعل، وتتّجه هذه الحركة في مسيرها نحو هدف معيّن، وتصل الحركة إلى حالة الثبات عند الوصول إلى الهدف؛ فليس في الكون سكون. أثبت القرآن الكريم لعالم الوجود «دار القرار» و«دار الثبات»، ويقول: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[٥]، وليس في الدنيا قرار، بل هي معبر، وكلّ معبر ينتهي إلى مستقرّ. الدنيا متحرّكة ومتحوّلة وتطلب في النهاية الثبات والقرار. وبعبارة أخرى، الدنيا كالسفينة المتحرّكة التي يجب أن ترسو في مكان ما، ويعتبر القرآن الكريم أنّ مستقرّ هذه السفينة المتأرجحة في الأمواج المتلاطمة هو «القيامة»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[٦].

---

١. البقرة: ٢٦١.
٢. آل عمران: ١٤٨.
٣. الأعراف: ٣٢.
٤. إبراهيم: ٣٠.
٥. غافر: ٣٩.
٦. الأعراف: ١٨٧.

يؤكّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الدنيا معبر والآخرة هي المقرّ والمستقرّ:

«أيّها الناس، إنّما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم»[١]؛ عليكم أن تحملوا زادًا من معبركم إلى مستقرّكم، وعندما يهلك الإنسان يقول الناس: ما الذي حصل؟ وتقول الملائكة: ماذا أرسل قبل قدومه؟

يقول الإمام عليه السلام أيضًا: «فإنّ الدنيا لم تُخلق لكم دار مقام، بل خُلقت لكم مجازًا لتتزوّدوا منها الأعمال إلى دار القرار»[٢].

شرح القرآن الكريم نظام الدنيا من وجهة نظر أخرى، فأكّد أنّها أمر اعتباريّ ويجب أن ينتهي إلى أمر حقيقيّ، فالحياة الدنيا عبارة عن مجموعة من العقود والاتفاقيّات التي تنتهي مع انتهاء عمر الإنسان، حيث يدخل هذا الإنسان نظامًا فرديًّا حقيقيًّا. إنّ معاد كلّ شخص في هذا النظام الجديد يختلف عن الآخر. جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾[٣].

تعتبر هذه الآية أكثر الآيات الشريفة جامعيّة، حيث تحدّثت عن النشأة الدنيا إلى جانب الآخرة، وبيّنت انتهاء نظام الدنيا الاعتباريّ إلى النظام الحقيقيّ، حيث تقطع الصلات بنظام العلل والأسباب الطبيعيّة، مع التأكيد على حاكميّة نظام العلّيّة والمعلوليّة في الآخرة، فهو نظام لا يخرج عن دائرة العلل والمعلولات؛ هناك يكون الإكرام الإلهيّ سببًا لدخول الجنّة، ويكون غضب الله سببًا لورود جهنّم؛ فلكلّ معلول سببه الخاصّ به. والحقيقة أنّه سيتّضح في اليوم المعلوم أنّ النظام العليّ والمعلوليّ بيد الله تعالى، وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كلّ قائم في سواه معلول»[٤].

لا يختصّ قانون العلّيّة بعالم الدنيا، بل كلّ شيء لا يكون وجوده عين ذاته يحتاج إلى علّة، سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة. وسيتّضح في ذلك اليوم من هو صانع

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٠٣.

٢. م.ن: الخطبة ١٣٢.

٣. الأنعام: ٩٤.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٨٦.

السبب وموجده، وكلّ علّة غيره تعالى ما هي إلّا مجرى فيضه، فالله تعالى مصدر الحياة، والآخرون ليسوا سوى مجاري لا تمتلك ماءً في ذاتها، وسيدرك الناس في ذاك اليوم أنّ كافّة العلل والأسباب الماديّة متقطّعة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[1]؛ هناك يتبرّأ أئمة الباطل من أتباعهم، ويشاهدون العذاب، وتقطع عنهم الأسباب والوسائل، ولا يبقى أيّ علامة مادّيّة موجودة، سواء أكانت الوسائل دنيويّة أم دسائس شيطانيّة؛ ففي منطقة ظهور القدرة الغيبيّة لا مجال للمكتسبات الطبيعيّة ولا فرصة للمحصولات الشيطانيّة.

مراحل الحياة

أكّد القرآن الكريم أنّ لحياة الإنسان ثلاث مراحل أو مقاطع: الحياة الدنيا، حياة البرزخ، حياة القيامة الخالدة. عندما يترك الإنسان حياة الدنيا يدخل مرحلة الآخرة حيث يكون لعالم الآخرة مرحلتان: الأولى هي البرزخ، والثانية القيامة الكبرى، ويظهر من بعض الآيات أنّ عالم البرزخ جزء من عالم الدنيا؛ مثال ذلك: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾[2]، حيث يوجّه هذا السؤال في القيامة لمن ترك البرزخ وخرج منه ودخل ساحة المعاد الأكبر، ويظهر من بعض الآيات الأخرى أنّ للحياة مراحلَ ثلاثًا؛ مثال ذلك الآية الشريفة التي خاطب الله تعالى فيها منكري المعاد: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[3].

أراد القرآن الكريم من الإنسان في جميع مراحل الحياة الدنيا أن يحسن التفكّر وأن يختار الزاد الأخرويّ. جاء في الآية الشريفة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[4] وفي آية أخرى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5]. وتحدّثت إحدى الآيات الشريفة وبشكل واضح وصريح بأنّ

---

١. البقرة: ١٦٦.

٢. المؤمنون: ١١٢.

٣. الجاثية: ٢٦.

٤. البقرة: ٢١٩ و٢٢٠.

٥. يوسف: ١٠٩.

رسول اللهﷺ وهو قدوة المسلمين، كان يتدبّر ويتفكّر بيوم القيامة أكثر ممّا يفكّر الآخرون: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] وعلى هذا الأساس، إذا كان الإنسان من أهل الدنيا ولم يفكّر بالآخرة والقيامة، لا يعتبر عاقلاً من وجهة نظر القرآن الكريم، ولا يُحْشر كما يُحْشر العقلاء، وقد قدّم القرآن نموذجًا لهؤلاء وهم آكلو الربا، جاء في الآية الشريفة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٢]، فهؤلاء غير قادرين في القيامة على حفظ تعادلهم، فقد يسقطون أرضًا وقد ينهضون؛ وذلك لأنّهم قالوا إنّ البيع كالربا ولا فرق بينهما، مع أنّ الله تعالى أحَلّ البيع وحرّم الربا.

---

١. الأحزاب: ٢١.

٢. البقرة: ٢٧٥.

الفصل الثالث

منكرو المعاد

شبهات منكري المعاد

نشأت مسألة الإنكار في الرؤى الكونيّة من عدم معرفتها، فتُقبل إذا تمّ تصوّر حدودها ورسومها بشكل صحيح وتحقّقت المعرفة بها، وإذا لم يكن في المسألة عناد وتعصّب. وفي الواقع فإنّه لم يكن لدى منكري المعاد تصوّر عميق عن المعاد والعود إلى الله، واعتمد منطقهم على مبدأ الاستبعاد.

هؤلاء لم يقيموا دليلاً واحدًا على مدّعاهم حتّى لمرّة واحدة.

أشار الله تعالى في مواضع عديدة من القرآن الكريم إلى ادّعاءاتهم؛ مثال ذلك:

١. ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[1].

هؤلاء الأشخاص لم يتجاوزوا بفكرهم حدود الظنّ، ولم يدخلوا وادي اليقين، وتخطّوا بلا مبالاة مسألة المعاد المهمّة، من هذا المنطلق قال تعالى:

٢. ﴿**وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾[2].

إنّ من علامات عدم إدراك المعاد بشكل صحيح أنّهم كانوا يقولون في مقام الاستدلال: لو كان المعاد حقًّا، فأتوا بآبائنا الذين ماتوا: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[3]، فقد كانوا يظنّون أنّ القيامة هي في

---

١. الجاثية: ٢٤.

٢. الجاثية: ٣٢.

٣. الجاثية: ٢٥.

هذه الدنيا، أو أنّ نظامها هو عين نظام الدنيا، وأنّ أصل الحياة محصور بهذه الحياة الدنيا: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[١]، وأنّ من يحيا بعد الموت فيجب أن يعود لهذه الدنيا.

أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ضعف استدلال الحسّيّين وحجّتهم، حيث إنّ دليلهم يعود إلى أصل مبدأ الكون، يقول في كلام عميق:

«فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف الليل والنهار، وتفجّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات، فالويل لمن جحد المقدّر، وأنكر المدبّر، زعموا أنّهم كالنبات ما لهم من زارع، ولا لاختلاف صورهم صانع، ولم يلجؤوا إلى حجّة فيما ادّعوا، ولا تحقيق لما أوعوا، وهل يكون بناء من غير بانٍ أو جناية من غير جان»[٢].

ملاحظة: صحيح ًأنّ هذا الكلام العلويّ الطويل يدور حول نقد إنكار المبدأ الفاعليّ، إلاّ أنّه دليل مقبول لإبطال استدلال الحسّيّين المادّيّين، يضاف إلى أنّ هؤلاء أنكروا المعاد والمبدأ معًا.

عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام «قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجل؟ قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه، فمنها كفر الجحود على وجهين، فالكفر بترك ما أمر الله؛ وكفر البراءة وكفر النعم، فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالربوبيّة، وهو قول من يقول لا ربّ ولا جنّة ولا نار؛ وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهريّة، وهم الذين يقولون: وما يهلكنا إلاّ الدهر. وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبّت منهم ولا تحقيق لشيء ممّا يقولون، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أنّ ذلك كما يقولون»[٣].

---

١. الأنعام: ٢٩.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٨٥؛ *نور الثقلين*، ج٥، ص٤.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤.

٣. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[١]. رفض القرآن الكريم استبعادهم وأجابهم بشكل قاطع صارم: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٢].

تتحدّث الآية الشريفة عن قصّة «أُبي بن خلف»، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جاء أُبي بن خلف فأخذ عظمًا باليًا من حائط ففتّه، ثمّ قال: يا محمّد ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾»[٣].

كان أُبي بن خلف من مشركي مكّة ومن أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الذي قال له صلى الله عليه وآله يومًا بمكّة: إنّ عندي فرسًا أعلفه كلّ يوم فرقًا، وهو مكيال، من ذرة أقتلك عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فكان من قصّته أنّه خرج إلى المدينة مع من خرج بحرب المسلمين في وقعة أُحد، فلمّا هُزِم المسلمون وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وآله من بقي، أدركه أُبي بن خلف وهو يقول: أين محمّد لا نجوتُ إن نجوت؟ فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منّا؟ قال: دعوه، فلمّا دنا تناول صلى الله عليه وآله حربة رجل من أصحابه، وهو الحارث بن الصمة، ثمّ استقبله فطعنه في عنقه طعنة تحرّك منها عن فرسه مرارًا، فرجع إلى قريش وهو يخور كما يخور الثور، وقد خدش في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم وقال: قتلني والله محمّد، فقالوا: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس! قال: لو كانت الطعنة بربيعة ومضر لقتلهم، أليس أنّه قد كان بمكّة قال لي: أنا أقتلك، فوالله لو بصق بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث إلّا يومًا أو بعض يوم حتّى مات، فقيل مات بسرف»[٤].

أجاب القرآن الكريم في آية أخرى على أدلّة المنكرين غير الصحيحة، يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾[٥]. وبما أنّ عبارة أهون لا

---

١. الإسراء: ٤٩ و٩٨.

٢. الإسراء: ٥٠ و٥١.

٣. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٧٤.

٤. *نور الثقلين*، ج٣، الحاشية، ص١٧٤.

٥. الروم: ٢٧.

تناسب قدرة الله اللامتناهية؛ لأنّ كافة الأشياء على حدّ سواء أمام قدرة الله اللامحدودة، سواء أكانت صعبة أم هينة؛ كما أنّ علمه واحد بكافّة الأشياء، سواء أكانت من العلوم النظريّة أم البديهيّة، لذلك أكمل عز وجلّ بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾. وما جاء في بعض الآيات حول سهولة الإحياء والإعادة هو لأجل رفع تعجّب عامّة الناس، وإلّا فإنّه لا فرق بين إيجاد المخلوقات ابتداءً وبين وإعادتها، والله أعظم وأعلى من أن تختلف عليه الأشياء: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، وهو أعظم من أن يكون بعض الأشياء أهون عليه من أخرى، وأمّا هذه الإجابات، فهي من سنخ الجدال بالأحسن.

٤. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾[1].

صحيح أنّ أصحاب هذه المجموعة يذكرون اسم الله سبحانه في ظاهر كلامهم، ويقولون عن النبيّ ﷺ أنّه: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، إلاّ أنّهم في الحقيقة لم يعرفوا الله ولم يعرفوا صفاته وأسماءه، وبما أنّهم لم يعرفوا المبدأ، فقد أنكروا الوحي والنبوّة والمعاد: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]. من يعرف الله تعالى سيعرف أحديّته وسفيره ويصدّق كلامه ويؤمن بالمعاد.

الغريب هو إصرارهم على ادّعاءاتهم الزائفة، فيقسمون بالله أن لا قيامة؛ كما جاء في الآية الآتية:

٥. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. والله تعالى سيبعث الجميع بأمر واحد وذلك بمجرّد الإرادة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[4].

---

١. سبأ: ٧ و٨.

٢. الأنعام: ٩١.

٣. النحل: ٣٨.

٤. النحل: ٤٠.

٦. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١]. وأجاب الله تعالى مخاطبًا الرسول الأكرمﷺ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

٧. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٣]. أشار الله تعالى في الجواب إلى قدرته اللامتناهية، وقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾[٤].

في داخل الإنسان مشاعل تظهر يوم القيامة، وقدرة الله تجعل النار الحمراء تخرج من الشجر الأخضر، فكيف لا توقنون بقدرته على إعادة الخلق؟ وأمّا إذا شكّ الإنسان من ناحية ضياع أعضاء بدنه وتفرّقها، فيجب أن يدرك أنّ كلّ شيء معلوم بالعلم الحضوريّ وعلمه وقدرته من جملة صفات الذات، وهما عين ذاته ولا حدود لهما؛ وهذا يعني أنّ شيئًا لا يخرج عن دائرة علم الله ولا شيء يخرج عن منطقة قدرته.

يشار إلى أنّ قصة ذاك الرجل الذي أحضر جمجمة كافر إلى عثمان وأشار إلى مسألة عدم احتراقها ثمّ أزيلت الشبهة بتوضيح أمير المؤمنين، هيّ قصّة تقرب فهم الإنسان لمسألة المعاد وكيفيّته، وقد أشرنا من قبل إلى ذلك[٥]. وكانوا في القديم يشعلون النار بضرب الأحجار ببعضها فتتطاير الشرارات.

ملاحظة: إنّ لفهم أصل المعاد ومعرفة كيفيّته درجات، حيث يمكن الولوج بالتدريج إلى عمق بعض مراتبها عن طريق حفظ كافّة المراتب المتطابقة مع الوحي الإلهيّ.

٨. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٦].

٩. ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[٧]. يقول بعض

---

١. السجدة: ١٠.

٢. السجدة: ١١.

٣. يس: ٧٨.

٤. يس: ٧٩ و٨٠.

٥. راجع *الغدير*، ج٨، ص٢١٤.

٦. النمل: ٦٧ و٦٨.

٧. ق: ٢ و٣.

المفسّرين إنّ الآية نزلت بشأن أُبي بن خلف وأبي جهل؛ وقد أشرنا من قبل إلى ذلك، وكما يمكن أن يراد منها ذلك، فمن الممكن أن يراد استبعاد الآخرين أيضًا.

١٠. ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[١].

١١. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾[٢].

بناءً على ما تقدّم، يعتقد كافّة الباحثين في القرآن الكريم وجميع المفسّرين وعلماء الحديث، أنّ الكافرين لم يأتوا بدليل على نفي المعاد، بل كانوا يستبعدون وجوده فقط ويتعجّبون من الاعتقاد به، فكانوا ضالّين في أفكارهم البعيدة عن منطق القرآن والعقلانيّة.

يظنّ الكافرون أنّ عالم الوجود محصور بالمادّة، وأنّ الحياة تنتهي بعد الموت وتلاشي البدن المادّيّ، وأنّه لا وجود لعالم سوى عالم الدنيا، وبالتالي وحسب اعتقادهم لن يصل الإنسان إلى الحياة الخالدة، ولن تبدأ حياة عالم الغيب الجديدة.

حكم العقل

إذا سلّمنا أنّ المعتقدين بالمعاد والداعين له لا يمتلكون دليلاً على وجوده، فما هو واجب الإنسان العاقل الحكيم عندما يسمع دعوات الأنبياء حول المعاد؟ ألا ينبغي على الإنسان أن يبادر للحؤول دون الوقوع في الخطر والضرر المحتملين عندما يدرك أنّ ثمّة خطرًا كبيراً محتملاً قادمًا، وخاصّة إذا كان الخطر مهمًّا؟ وبعبارة أخرى ألا يقضي العقل بلزوم «دفع الضرر المحتمل»، وألا يكون ذلك واجبًا؟ يسعى الإنسان عادة بكل وجوده لرفع الضرر كلّما احتمل وجوده ووجود خسارة مادّيّة ودنيويّة، ويبذل جهودًا ليصل إلى الصحّة والسلامة في الدنيا؛ حتّى لو ادّعى كاذب أو طفل وجود عقرب في لباس شخص، لوجدناه يبادر إلى تفقّد لباسه بحزم واهتمام حتّى لا يلحق به هذا الضرر.

---

١. المؤمنون: ٣٥-٣٧.

٢. الدخان: ٣٤ و٣٥.

وإذا قيل لشخص قصد عبور صحراء طويلة حارّة، والصحراء خالية من الماء والطعام، ويجب إعداد ما يكفي من الطعام لعدّة أيّام، ألا يحكم العقل ويجزم بضرورة ذلك؟ لا شكّ أنّ الإنسان يحكم بضرورة الاحتياط مما يتوقّعه من مخاطر وأضرار.[١]

لكن من الحكمة أن تتزوّد بالماء لهذا السفر، حتّى تنجو من الخوف وتكون قد قمت بالصواب.

وإذا وجدت ماءً في هذا الطريق، اسكب الماء [الذي اصطحبته] على الأرض، وإذا لم يكن هناك، الويل لمن منعك إحضاره.

يا أبناء آدم، [يا أبناء] خليفة الله على الأرض، فكّروا [وتزوّدوا] ليوم القيامة الموعود].

بناءً على ما تقدّم، فعندما يؤكّد الأنبياء على أنّ يومًا سيأتي ويطلق عليه «اليوم العظيم» و«الخبر الكبير»، وأنّ ثمّة حادثة مذهلة ستحصل، ألا ينبغي قبول كلام هؤلاء العظماء والصالحين من أفراد البشر، أم يظن الإنسان أنّه تُرك لنفسه ليتدبرها: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾[٢]. هل يظنّ الإنسان أن لا وجود للتكليف ولا للثواب ولا للعقاب في القيامة؟

«...أخبرني رجل من أصحابي قال: كنّا أنا وابن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفع: ترون هذا الخلق، وأومأ بيده إلى موضع الطواف، ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانيّة إلاّ ذلك الشيخ الجالس، يعني أبا عبد الله جعفر بن محمّدعليهما السلام؛ فأمّا الباقون فرعاع وبهائم، فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأنيّ رأيت عنده ما لم أره عندهم فقال له ابن أبي العوجاء: لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه... قال: فقام ابن العوجاء وبقيت أنا وابن المقفّع جالسين، فلمّا رجع إلينا ابن أبي العوجاء قال: ويلك يا بن المقفّع! ما هذا ببشر! وإن كان ما في الدنيا روحانيّ يتجسّد إذا شاء ظاهرًا ويتروّح إذا شاء باطنًا فهو هذا، فقال له: وكيف ذلك؟ قال: جلست إليه فلمّا

---

١. *المثنوي*، الدفتر الثالث.

٢. القيامة: ٣٦.

لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون، يعني أهل الطواف؛ فقد سلموا وعطبتم وإن يكن الأمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم...»[1].

---

١. *أصول الكافي*، ج١، ص٧٥؛ كتاب التوحيد، ح٢.

الفصل الرابع

إمكان المعاد

إمكان المعاد في البرهان والقرآن

تقدّم أنّ الكافرين ينظرون إلى مسألة المعاد نظرة الاستبعاد، وفي الوقت الذي لم يذكروا دليلاً على رفضه، تناسوا نداء الفطرة والوجدان. من جهة أخرى فإنّ العقل السليم يحكم بضرورة الحزم والاحتياط والتفكير العميق؛ وقد ذكرنا فيما مضى كلامًا عن الإمام الصادق عليه السلام يؤيّد ذلك[1].

من جهة ثالثة، ثمّة العديد من الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن المعاد. ويمكن تصنيفها إلى مجموعات تُرجع كلّ مجادل إلى طريق الفطرة وهو صراط الحكمة.

المجموعة الأولى من الآيات هي التي تدلّ على أنّ لخلق البشر بداية، وأنّ ذلك حصل بأمر من الله تعالى، وأنّ الإنسان قبل الخلق لم يكن شيئًا مذكورًا، أو أنّه خُلق من تراب أو طين أو أمثال ذلك، وبالتالي فإنّ المعاد والرجوع ليس أكثر صعوبة من الخلق الأوّل؛ مثال ذلك الآيات الشريفة الآتية:

١. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2].

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3].

٣. ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4].

---

١. *أصول الكافي*، كتاب التوحيد، ج٢.

٢. يس: ٧٩.

٣. الروم: ٢٧.

٤. ق: ١٥.

٤. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[١].
٥. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٢].

المجموعة الثانية هي الآيات الشريفة التي رسم الله فيها للعاقلين والمتفكّرين حركة الخلق، مظهرًا كلّ العظمة الموجودة في عالم الوجود، وخاصّة خلق السماوات التي أظهر فيها عظيم قدرته.

تمكّن العالم المعاصر من اكتشاف بحور من العلم في كلّ ذرّة من ذرّات عالم الطبيعة، فكانت محلّ تعجّب العقلاء، وقد حَيَّرَ العلماء والمكتشفين ما في عالم الخلق بدءًا من خلق الأرض والسماء والنجوم والكواكب ومليارات الثوابت والسيارات والشهب والأقمار والمذنّبات و... إلى الفضاء اللامتناهي الذي يتحرّك مليارات السنوات طبق قوانين منها ما تمّ اكتشافه ومنها ما عجز الإنسان عن ذلك. وإذا كانت الدراسات والأبحاث منذ آلاف السنين قد أعطت بعض النتائج، إلا أنّ أصحابها يعترفون بأنّهم ما زالوا في الخطوات الأولى، وأنّهم لم يقدّموا للعالم سوى قطرة من ذاك البحر اللامتناهي. مع العلم أنّ ما اكتشفوه حتّى الآن يحتاج إلى مجلّدات لبيانه.

عجز الواصفون عن صفتك ... ما عرفناك حقّ معرفتك

ومن هذه الآيات قوله تعالى:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[٣].
٢. ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].
٣. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥].

---

١. العنكبوت: ١٩.
٢. الأعراف: ٢٩.
٣. الإسراء: ٩٩.
٤. غافر: ٥٧.
٥. الأحقاف: ٣٣.

٤. ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[١].

٥. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

يفتح السير في عالم الخلق الواعي والعاقل أبواب الرؤية التوحيديّة والأخرويّة ويوسّعها وينتهي بالإنسان إلى السعادة؛ لأنّه يعلّم الإنسان ما لا يجده في الكتب والدفاتر ولم يسمع به من شخص آخر.

المجموعة الثالثة عبارة عن الآيات التي تشير إلى إحياء الأرض، وهي نماذج حسّيّة بارزة على إمكان إحياء الأموات، وتتكرّر هذه الظاهرة كلّ سنة بعد مشاهدة خروج النبات من الأرض واخضرار الأشجار وارتدائها ثوبًا جديدًا وجذّابًا تحمل معها البهجة والسرور للناظرين، حيث يقرأ أرباب المعرفة في كلّ ورقة شجرةٍ كتابًا في معرفة الله تعالى.

ومن هذه الآيات الشريفة قوله تعالى:

١. ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

٢. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[٤].

قد يفسّر أئمّة الدينﷺ آيات القرآن انطلاقًا من أفق آخر، حيث يعجز الآخرون عن ذلك، وتفصح هذه التفسيرات عن العلم اللدنيّ. يقول الإمام موسى بن جعفرﷺ في ذيل الآية الشريفة:

> «ليس يحييها بالقطر، ولكن يبعث الله رجالاً، فيحيون العدل فتحيا الأرض لإحياء العدل، ولإقامة العدل فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحًا»[٥].

---

١. يس: ٨١.

٢. العنكبوت: ٢٠.

٣. الروم: ٥٠.

٤. الروم: ١٩.

٥. *نور الثقلين*، ج٤، ص١٧٣.

ومن المعلوم أنّ دراسة هذا النوع من المعاني وأنّه هل هو من سنخ التفسير المفهوميّ أو التطبيق المصداقيّ، أو أنّه من صنف التفسير الذي يُقسم إلى الظاهر والباطن، أو من سنخ التأويل، فذلك كلّه يعود إلى علوم القرآن.

٣. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

٤. ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[٢]. عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحًا، فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم»[٣].

٥. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجبرئيل: «يا جبرئيل، أرني كيف يبعث الله تبارك وتعالى العباد يوم القيامة، قال: نعم، فخرج إلى مقبرة بني ساعدة، فأتى قبرًا، فقال له: اخرج بإذن الله، فخرج رجل ينفض رأسه من التراب وهو يقول: والهفاه، واللهف هو الثبور، ثم قال: ادخل فدخل، ثمّ قصد قبرًا آخر فقال: اخرج بإذن الله، فخرج شاب ينفض رأسه من التراب وهو يقول: أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، وأشهد أنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور، ثم قال: هكذا يبعثون يوم القيامة يا محمّد»[٥].

٦. ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٦].

---

١. فصلت: ٣٩.

٢. فاطر: ٩.

٣. *نور الثقلين*، ج٤، ص٣٥٢.

٤. الحج: ٥ و٦.

٥. *نور الثقلين*، ج٣، ص٤٧٢.

٦. ق: ٩-١١.

٧. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

يُشار إلى أنّه يجب عدم إبعاد بعض القضايا في هذه الخصوص، من جملتها أوضاع الجو، الشمس، الفصول، المنطقة الجغرافيّة والأوقات؛ فهواء الربيع على سبيل المثال في النصف الشماليّ من الكرة الأرضيّة يبعث على الحياة والتجدّد؛ بينما يؤدّي في النصف الجنوبيّ منها إلى الخريف وموت الأرض وثبات الأشجار وموت الأوراق والنباتات.

المجموعة الرابعة: الآيات التي تتحدّث عن إمكان المعاد من خلال نماذج واضحة تبدأ من بداية خلق الإنسان والمراحل الأولى لنموّه، ثمّ تتطرّق للتحوّلات والتغيّرات الجوهريّة التي تنتهي بالتكامل.

أشار القرآن الكريم إلى أنّ بداية خلق الإنسان كانت من التراب: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾[٢]، ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾[٣]. ثمّ أشارت آيات أخرى إلى امتزاج الماء والتراب فصار طينًا[٤]؛ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾[٥]؛ ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٦].

وتشير بعض الآيات الشريفة إلى خلق الإنسان من عصارة الطين وزبدته: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾[٧]، وتشير أخرى إلى خلقه من طين لازب: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾[٨]، وتشير تارة ثالثة إلى خلقه من حمأ مسنون وصلصال[٩]، حيث تتحوّل بالتدريج إلى شبيه بالفخار ﴿مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[١٠].

---

١. الأعراف: ٥٧.
٢. آل عمران: ٥٩.
٣. الحج: ٥؛ الكهف: ٣٧؛ الروم: ٢٠؛ فاطر: ١١؛ غافر: ٦٧.
٤. *تفسير العياشي*، ج١، ص٢١٥.
٥. الأنعام: ٢.
٦. الأعراف: ١٢؛ السجدة: ٧؛ الإسراء: ٦١؛ ص: ٧٦.
٧. المؤمنون: ١٢.
٨. الصافات: ١١.
٩. الحجر: ٢٦ و٣٣.
١٠. الرحمن: ١٤.

وتحدّثت العديد من الآيات الشريفة عن مراحل تكوين الجنين الذي يبدأ من النطفة، وقد أشارت في طيّات ذلك إلى المعاد، ومنها قوله تعالى:

١. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ... ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

أراد القرآن بهذه الآيات الشريفة أن يزيل الترديد عنهم من خلال ذكر أمر عينيّ وملموس.

٢. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[٢].

أراد الله تعالى في الآيات الشريفة أن يبيّن قضيّة الخلق العظيمة في إطار المبدأ والمعاد بأسلوب حكيم وجميل. ومن كان له حظّ من أدنى مراتب العقل لما أنكر المعاد ولما استبعده. وقد استعرض الإمام السجّاد عليه السلام الموضوع بشكل مختلف، فكان عليه السلام يدعو بعد نافلة الليل ويقول: «اللّهم وأنت حدرتني ماءً هنيًّا من صلب متضائق العظام إلى رحم ضيّقة...».

ثمّ يقول:

«تصرّفني حالاً عن حال، حتّى انتهيتَ بي إلى تمام الصورة، وأثبتَّ فيَّ الجوارح
كما نعتّ في كتابك نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظامًا ثمّ كسوت العظام لحمًا،
ثمّ أنشأتني خلقًا آخر»

كما شئت.

حتّى إذا احتجت إلى رزقك، ولم أستغن عن غياثِ فضلك، جعلت لي قوتًا من فضل طعام وشراب أجريته لأمَتك التي أسكنتني جوفها، وأودعتني قرار رحمها، ولو

---

١. الحج: ٥ و٦.

٢. المؤمنون: ١٢-١٦.

تكِلني يا ربّ في تلك الحالات إلى حولي، أو تضطرني إلى قوّتي، لكان الحول عنّي معتزلاً، ولكانت القوّة منّي بعيدة، فغذوتني بفضلك غذاء البر اللطيف، تفعل ذلك بي تطوّلاً عليّ إلى غايتي هذه، لا أعدمُ برّك، ولا يبطئ بي حسن صنيعك...

اللَّهم أني أعوذ بك من نار تغلّظتَ بها على من عصاك، وتوعّدتَ بها من صدف عن رضاك، ومن نار نورها ظلمة، وهيّنها أليم، وبعيدها قريب، ومن نار يأكل بعضها بعضًا، ويصول بعضها على بعض، ومن نار تذر العظام رميمًا، وتسقي أهلها حميمًا، ومن نار لا تبقي على من تضرّع إليها، ولا ترحم من استعطفها، ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لها واستسلم إليها، تلقي سكّانها بأحرّ ما لديها، من أليم النكال وشديد الوبال.

وأعوذ بك من عقاربها الفارغة أفواهها، وحياتها الصالقة بأنيابها، وشرابها الذي يقطع أمعاء وأفئدة سكّانها، وينزع قلوبهم، وأستهديك لما باعد منها، وآخر منها.

اللَّهم صلّ على محمّد وآله، وأجرني بفضل رحمتك، وأقلني عثراتي بحسن إقالتك، ولا تخذلني يا خير المجيرين...[١]

٣. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[٢].

عن البراء بن عازب، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «سبحانك اللَّهم وبلى»، وفي روايات أخرى أنّ رسول الله بكى وقال: «سبحانك اللَّهم وبلى»[٣].

٤. ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾[٤].

٥. ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾[٥].

المجموعة الخامسة: الآيات الشريفة التي قدّمت قصصًا تصوّر فيها نماذج عينيّة

---

١. *الصحيفة السجاديّة*، المناجاة ٣٢.

٢. القيامة: ٣٧-٤٠.

٣. *تفسير البرهان*، ج٥، ص٤٠٩.

٤. النجم: ٤٥-٤٧.

٥. عبس: ١٧-٢٢.

لإحياء الموتى أمام الإنسان. ويكون هذا الأسلوب مفيدًا للأشخاص أصحاب القدرات العقليّة الضعيفة؛ من جملة ذلك قوله تعالى:

١. يخاطب الله تعالى مجموعة من أصحاب موسى عليه السلام الذين أرادوا رؤية الله جهرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

هؤلاء الأشخاص عبارة عن سبعين شخصًا اختارهم موسى عليه السلام لسماع كلام الله تعالى، فعندما سمعوه قالوا: يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة، فبعث الله عليهم صاعقة فاحترقوا ثمّ أحياهم الله بعد ذلك، وقد شاهد الحاضرون بأعينهم هذه الحادثة[٢].

٢. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣].

يقول المفسّرون إنّهم بعد أن ذبحوا البقرة، ضربوا المقتول ببعضها فأحياه الله تعالى، وأدرك الحاضرون أسباب القتل وقصّته، وقد شهدوا إحياء الموت بأمّ العين.

٣. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ...﴾[٤].

يقول المفسّرون:

> عن أبي عبد الله عليه السلام، وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ فقال: إنّ هؤلاء أهل مدينة من مدائن الشام، وكانوا سبعين ألف بيت، وكان الطاعون يقع فيهم في كلّ أوان، فكانوا إذا أحسّوا به خرج من المدينة الأغنياء لقوّتهم، وبقي فيها الفقراء لضعفهم. فكان الموت يكثر في الذين أقاموا ويقلّ في الذين خرجوا، فيقول الذين خرجوا، لو كنّا أقمنا لكثر فينا الموت، ويقول الذين أقاموا: لو كنّا خرجنا لقلّ فينا الموت، قال: فاجتمع رأيهم جميعًا أنّه إذا وقع

---

١. بقره: ٥٦ و٥٥.

٢. *نور الثقلين*، ج١، ص٨١.

٣. البقرة: ٧٢ و٧٣.

٤. البقرة: ٢٤٣.

الطاعون فيهم وأحسّوا به خرجوا كلّهم من المدينة، فلما أحسّوا بالطاعون خرجوا جميعًا، وتنحّوا عن الطاعون حذر الموت، فساروا في البلاد ما شاء الله، ثمّ إنّهم مرّوا بمدينة خربة قد خلا أهلها عنها وأفناهم الطاعون، فنزلوا بها فلمّا حطّوا رحالهم واطمأنّوا قال لهم الله عزّ وجلّ: موتوا جميعًا، فماتوا من ساعتهم وصاروا رميمًا تلوح، وكانوا على طريق المارّة، فكنستهم المارة فنحوهم وجمعوهم في موضع، فمر بهم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل يقال له حزقيل، فلمّا رأى تلك العظام بكى واستعبر، وقال: يا رب لو شئت لأحييتهم الساعة كما أمتّهم، فعمروا بلادك وولدوا عبادك، وعبدوك مع من يعبدك من خلقك، فأوحى الله تعالى إليه أفتحبّ ذلك؟ قال: نعم يا ربّ، فأحياهم الله، فأوحى الله أنْ قل كذا وكذا، فقال الذي أمره الله عزّ وجلّ أن يقوله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: وهو الاسم الأعظم، فلمّا قال حزقيل ذلك الكلام نظر إلى عظام يطير بعضها إلى بعض، فعادوا أحياء ينظر بعضهم إلى بعض يسبحون الله عزّ ذكره ويكبرونه ويهلّلونه، فقال حزقيل عند ذلك: أشهد أنّ الله على كلّ شيء قدير[١].

٤. ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

يُستفاد من العديد من الروايات في تفسير الآية الشريفة أنّ اسم هذا الشخص هو «العزير» أو «إرميا». عندما غلب «بخت النصر» أهالي تلك المنطقة المدعوّة «بيت المقدس»، عمد إلى تخريبها وتهديمها وقتل سكانها. أمّا سبب سيطرته عليهم فهو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عندما شاهد «إرميا» هذا الخراب والقتل خرج من المدينة وقال: «أنّى يحيي هذه الله

---

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٢٤١؛ *تفسير البرهان*، ج١، ص٢٣٣؛ *مجمع البيان*، ج١-٢، ص٦٠٥.
٢. البقرة: ٢٥٩.

بعد موتها»، عند ذلك أماته الله مئة عام ثمّ أحياه. يقول بعض المفسّرين إنّ الله تعالى أحيا عينيه بداية، فأخذ ينظر إلى أعضائه وشاهد كيف اجتمعت عظامه، ثمّ اكتست لحمًا، وشاهد كيف اتّصلت شرايينه ومفاصله أيضًا.

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«أنّ عزيرًا خرج من أهله، وامرأته حامل، وله خمسون سنة، فأماته الله مئة سنة، ثمّ بعثه فرجع إلى أهله ابن خمسين سنة، وله ابن له مئة سنة، فكان ابنه أكبر منه، فذلك من آيات الله»[١].

نظر العزير إلى طعامه وشرابه وما يحمل من عنب وتين وفاكهة، فوجده لم يفسد وكانت طازجة سليمة بعد مئة عام. أراد الله تعالى بهذا الأسلوب إظهار شيء من قدرته اللامتناهية؛ فالله فكّك وفتّت ما يبدو أنّه يمتلك استعداد البقاء، بينما حفظ ما يبدو أنّه سريع الفساد.

ثمّ شاهد نبيّ الله بعينيه كيفيّة إحياء بدنه وجمع عظام مركّبه. فعندما اتّضحت الحقيقة وشاهد بأمّ عينيه قال: «أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير».

٥. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

تجدر الإشارة، أوّلًا: إلى أنّ إبراهيم معتقد بأصل المعاد وعودة الأموات؛ لذلك كان سؤاله عن كيفيّة الإحياء في المعاد وليس عن أساسه.

ثانيًا: كان يمتلك يقينًا علميًّا، وأراد الوصول إلى اليقين الشهوديّ ليطمئنّ قلبه؛ والسبب في ذلك وجود فاصل كبير بين العلم والشهود. يقول صفوان بن يحيى، سألت الإمام الرضا عليه السلام: «أكان في قلبه شكّ؟ قال: لا، ولكن أراد من الله الزيادة في يقينه».

عن أبي جعفر عليه السلام يقول:

---

١. *تفسير البرهان*، ج١، ص٢٤٩.

٢. البقرة: ٢٦٠.

«إنّ الله لمّا أوحى إلى إبراهيمعليه السلام: أن خذ أربعة من الطير، عمد إبراهيم، فأخذ النعامة والطاووس والوزة والديك، فنتف ريشهنّ بعد الذبح، ثمّ جمعهن في مهراسة فهُرسنَ، ثمّ فرّقهنّ على جبال الأردن، وكانت يومئذٍ عشرة جبال، فوضع على كلّ جبل منهنّ جزءًا، ثمّ دعاهنّ بأسمائهنّ، فأقبلن إليه سعيًا»[١].

ثالثًا: الظاهر أنّ قصّة النبي إبراهيمعليه السلام ليست من سنخ مشاهدة إحياء الأموات، وليست من صنف إماته وإحياء العزير، بل من سنخ الإماتة والإحياء، وليس الموت والحياة؛ أي من سنخ القتل والإحياء بإذن الله والتي فيها أعلى مراتب اليقين بإحياء الأموات وتفصيل المطلب في مكانه الخاصّ.

٦. جاء في الآية الشريفة حول قصّة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾[٢]. وقد نُقل عن الإمام الصادقعليه السلام أنّ عددًا من الذين ماتوا قد عادوا إلى الحياة الدنيا، ومن جملتهم أصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمئة وتسع سنوات، ثمّ بُعثوا في زمان قوم ينكرون البعث والمعاد، فأعادهم الله لإثبات المعاد ولإظهار قدرته وليعلموا أنّ الحساب حقّ[٣].

وهذا الدليل مبنيّ على أساس موت أصحاب الكهف وليس نومهم طبعًا، وإلاّ فهو خارج عن البحث؛ مع العلم أنّ النوم بمنزلة الموت وهذا ما سنشير إليه لاحقًا.

قصّة أصحاب الكهف

عن ابن عباس قال:

«لمّا كان في عهد خلافة عمر أتاه قوم من أحبار اليهود فسألوه عن أقفال السماوات ما هي؟ وعن مفاتيح السماوات ما هي؟ ...، فنكس عمر رأسه، وقال: يا أبا الحسن

---

١. *تفسير البرهان*، ج١، ص٢٥٠-٢٥٢.
٢. الكهف: ٢١.
٣. *تفسير البرهان*، ج١، ص٢٤٩، ح٥.

ما أرى جوابهم إلّا عندك! فقال لهم عليّ‰: إنّ لي عليكم شريطة: إذا أنا أخبرتكم بما في التوراة دخلتم في ديننا؟ قالوا: نعم.

قال: وكانت الأحبار ثلاثة، فوثب اثنان وقالا: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمّدًا عبده ورسوله. قال: فوقف الحبر الآخر وقال: يا عليّ لقد وقع في قلبي ما وقع في قلوب أصحابي، ولكن بقيت خصلة أسألك عنها، فقال عليّ‰: سل، قال: أخبرني عن قوم كانوا في أوّل الزمان فماتوا ثلاثمئة وتسع سنين ثمّ أحياهم الله ما كان قصّتهم؟ فابتدأ عليّ‰ وأراد أن يقرأ سورة الكهف. فقال الحبر: ما أكثر ما سمعنا قرآنكم، فإن كنت عالماً بهم أخبرنا بقصة هؤلاء وبأسمائهم وعددهم واسم كلبهم واسم كهفهم واسم ملكهم واسم مدينتهم.

فقال علي‰: لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، يا أخا اليهود حدّثني محمّد‌ﷺ أنّه كان بأرض الروم مدينة يقال لها أقسوس، وكان لها ملك صالح فمات ملكهم، فاختلفت كلمتهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس، فأقبل في مئة ألف حتى دخل مدينة أقسوس فاتّخذها دار مملكته، واتّخذ فيها قصرًا طوله فرسخ في عرض فرسخ، واتّخذ في ذلك القصر مجلسًا طوله ألف ذراع في عرض مثل ذلك من الرخام الممرّد، واتّخذ في ذلك المجلس أربعة آلاف أسطوانة من ذهب، واتّخذ ألف قنديل من ذهب لها سلاسل من اللجين تُسرج بأطيب الأدهان، واتّخذ في شرقيّ المجلس ثمانين كوّة، ولغربيه كذلك، وكانت الشمس إذا طلعت طلعت في المجلس كيفما دارت، واتّخذ فيه سريرًا من ذهب طوله ثمانون ذراعًا في عرض أربعين ذراعًا، له قوائم من فضة مرصّعة بالجواهر، وعلاه بالنمارق، واتّخذ من يمين السرير ثمانين كرسيًّا من الذهب مرصّعة بالزبرجد الأخضر، فأجلس عليها بطارقته، واتّخذ من يسار السرير ثمانين كرسيًّا من الفضّة مرصّعة بالياقوت الأحمر، فأجلس عليها هراقلته، ثم علا السرير فوضع التاج على رأسه.

فوثب اليهودي فقال: ممّ كان تاجه؟ قال: من الذهب المشبّك، له سبعة أركان على كلّ ركن لؤلؤة بيضاء تضيء كضوء المصباح في الليلة الظلماء، واتّخذ خمسين غلامًا من أولاد الهراقلة، فقرطقهم بقراطق الديباج الأحمر، وسرولهم بسراويلات الحرير الأخضر، وتوّجهم ودملجهم وخلخلهم، وأعطاهم أعمدة من الذهب، ووقفهم على رأسه، واتّخذ ستة غلمة وزراءه، فأقام ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن يساره، فقال اليهوديّ: ما كان أسماء الثلاثة والثلاثة؟ فقال علي عليه السلام: الذين عن يمينه أسماؤهم تمليخا ومكسلمينا وميشيلينا، وأمّا الذين عن يساره فأسماؤهم مرنوس وديرنوس وشاذريوس، وكان يستشيرهم في جميع أموره، وكان يجلس في كلّ يوم في صحن داره والبطارقة عن يمينه والهراقلة عن يساره، ويدخل ثلاثة غلمة في يد أحدهم جام من ذهب مملوء من المسك المسحوق، وفي يد الآخر جام من فضة مملوء من ماء الورد، وفي يد الآخر طائر أبيض له منقار أحمر، فإذا نظر الملك ذلك الطائر صفر به، فيطير الطائر حتى يقع في جام ماء الورد فيتمرغ فيه، ثم يقع على جام المسك فيحمل ما في الجام بريشه وجناحه، ثم يصفر به الثانية فيطير الطائر على تاج الملك فينفذ ما في ريشه وجناحه على رأس الملك.

فلمّا نظر الملك إلى ذلك عتا وتجبّر، فادعى الربوبية من دون الله، ودعا إلى ذلك وجوه قومه، فكلّ من أطاعه على ذلك أعطاه وحباه وكساه، وكلّ من لم يبايعه قتله، فاستجابوا له رأسًا، واتّخذ لهم عيدًا في كلّ سنة مرّة، فبينا هم ذات يوم في عيد والبطارقة عن يمينه والهراقلة عن يساره إذ أتاه بطريق فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيه، فاغتمّ لذلك حتى سقط التاج عن رأسه، فنظر إليه أحد الثلاثة الذين كانوا عن يمينه يقال له تمليخا، وكان غلامًا، فقال في نفسه: لو كان دقيانوس إلهًا كما يزعم إذًا ما كان يغتمّ ولا يفزع، وما كان يبول ولا يتغوّط، وما كان ينام، وليس هذه من فعل الإله، قال: وكان الفتية الستّة كلّ يوم عند أحدهم، وكانوا ذلك اليوم عند تمليخا، فاتّخذ لهم من طيّب الطعام، ثم قال لهم: يا إخوتاه قد وقع في قلبي شيء منعني الطعام والشراب والمنام، قالوا: وما ذاك يا تمليخا؟ قال: أطلت فكري في هذه السماء فقلت: من رفع سقفها محفوظة بلا

عمد ولا علاقة من فوقها؟ ومن أجرى فيها شمسًا وقمرًا آيتان مبصرتان؟ ومن زيّنها بالنجوم؟ ثمّ أطلت الفكر في الأرض فقلت: من سطحها على ظهر اليمّ الزاخر؟ ومن حبسها بالجبال أن تميد على كلّ شيء؟ وأطلت فكري في نفسي من أخرجني جنينًا من بطن أمّي؟...

قال: فوثب اليهوديّ فقال: يا عليّ ما كان اسم الكلب؟ وما لونه؟ فقال علي عليه السلام: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أمّا لون الكلب فكان أبلقًا بسواد، وأما اسم الكلب فقطمير، فلمّا نظر الفتية إلى الكلب قال بعضهم: إنا نخاف أن يفضحنا بنباحه، فألحّوا عليه بالحجارة، فأنطق الله تعالى جلّ ذكره الكلب: ذروني حتى أحرسكم من عدوّكم، فلم يزل الراعي يسير بهم حتى علاهم جبلاً فانحطّ بهم على كهف يقال له الوصيد، فإذا بفناء الكهف عيون وأشجار مثمرة، فأكلوا من الثمر وشربوا من الماء وجنّهم الليل، فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومدّ يديه عليه، فأوحى الله تعالى عزّ وعلا إلى ملك الموت بقبض أرواحهم، ووكّل الله بكلّ رجل ملكين يقلّبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال، ومن ذات الشمال إلى اليمين، فأوحى الله تعالى عز وعلا إلى خزّان الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وتقرضهم ذات الشمال، فلمّا رجع دقيوس من عيده سأل عن الفتية، فأُخبر أنّهم خرجوا هرابًا، فركب في ثمانين ألف حصان، فلم يزل يقفو أثرهم حتى علا فانحط إلى كهفهم، فلما نظر إليهم إذا هم نيام، فقال الملك: لو أردت أن أعاقبهم بشيء لما عاقبتهم بأكثر ممّا عاقبوا به أنفسهم، ولكن إيتوني بالبنّائين فسدّ باب الكهف بالكلس والحجارة، وقال لأصحابه: قولوا لهم: يقولوا لإلههم الذي في السماء لينجيهم وأن يخرجهم من هذا الموضع.

قال علي عليه السلام: يا أخا اليهود فمكثوا ثلاثمئة سنة وتسع سنين، فلما أراد الله أن يحييهم أمر إسرافيل الملك أن ينفخ فيهم الروح، فنفخ فقاموا من رقدتهم، فلمّا أن بزغت الشمس قال بعضهم: قد غفلنا في هذه الليلة عن عبادة إله السماء، فقاموا فإذا العين قد غارت، وإذا الأشجار قد يبست، فقال بعضهم: إن أمورنا لعجب،

مثل تلك العين الغزيرة قد غارت والأشجار قد يبست في ليلة واحدة! ومسّهم الجوع فقالوا: ابعثوا بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعامًا فليأتكم برزق منه وليتلطّف ولا يشعرنّ بكم أحدًا، قال تمليخا: لا يذهب في حوائجكم غيري، ولكن ادفع أيها الراعي ثيابك إليّ، قال: فدفع الراعي ثيابه ومضى يؤمّ المدينة، فجعل يرى مواضع لا يعرفها، وطريقًا هو ينكرها حتى أتى باب المدينة وإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه؛ لا إله إلا الله عيسى رسول الله، قال: فجعل ينظر إلى العلم وجعل يمسح عينيه ويقول: أراني نائمًا، ثم دخل المدينة حتى أتى السوق فأتى رجلاً خبّازاً فقال: أيها الخبّاز ما اسم مدينتكم هذه؟ قال: أقسوس قال: وما اسم ملككم؟ قال: عبد الرحمن، قال: ادفع إليّ بهذه الورق طعامًا، فجعل الخبّاز يتعجب من ثقل الدراهم ومن كبرها.

قال فوثب اليهودي وقال: يا عليّ وما كان وزن كلّ درهم منها؟ قال: وزن كلّ درهم عشرة دراهم وثلثي درهم، فقال الخبّاز: يا هذا أنت أصبت كنزًا؟ فقال تمليخا: ما هذا إلاّ ثمن تمر بعتها منذ ثلاث، وخرجت من هذه المدينة، وتركت الناس يعبدون دقيوس الملك، قال: فأخذ الخبّاز بيد تمليخا وأدخله على الملك فقال: ما شأن هذا الفتى؟ قال الخبّاز: هذا رجل أصاب كنزاً، فقال الملك: يا فتى لا تخف فإنّ نبيّنا عيسى عليه السلام أمرنا أن لا نأخذ من الكنز إلاّ خمسها، فأعطني خمسها وامض سالماً.

فقال تمليخا: انظر أيها الملك في أمري ما أصبت كنزاً، أنا رجل من أهل هذه المدينة، فقال الملك: أنت من أهلها؟ قال: نعم، قال: فهل تعرف بها أحدًا؟ قال: نعم، قال: ما اسمك؟ قال: اسمي تمليخا، قال: وما هذه الأسماء أسماء أهل زماننا، فقال الملك: فهل لك في هذه المدينة دار؟ قال نعم اركب أيها الملك معي، قال: فركب الملك والناس معه، فأتى بهم أرفع دار في المدينة، قال تمليخا: هذه الدار لي، فقرع الباب فخرج إليهم شيخ وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر، فقال ما شأنكم؟ فقال الملك: أتانا هذا الغلام بالعجائب، يزعم أنّ هذه الدار داره، فقال له الشيخ من أنت؟ قال: أنا تمليخا ابن قسطيكين، قال:

فانكبّ الشيخ على رجليه يقبّلهما ويقول هو جدّي وربّ الكعبة، فقال: أيها الملك هؤلاء الستّة الذين خرجوا هرابًا من دقيوس الملك.

قال: فنزل الملك عن فرسه وحمله على عاتقه وجعل الناس يقبّلون يديه ورجليه، فقال يا تمليخا ما فعل أصحابك؟ فأخبر أنّهم في الكهف، وكان يومئذ بالمدينة ملك مسلم وملك يهوديّ فركبوا في أصحابهم فلمّا صاروا قريبًا من الكهف قال لهم تمليخا: إنيّ أخاف أن تسمع أصحابي أصوات حوافر الخيول فيظنّون أنّ دقيوس الملك قد جاء في طلبهم، ولكن امهلوني حتى أتقدّم فأخبرهم. فوقف الناس فأقبل تمليخا حتى دخل الكهف فلمّا نظروا إليه اعتنقوه وقالوا: الحمد لله الذي نجّاك من دقيوس، قال تمليخا: دعوني عنكم وعن دقيوسكم، قال: كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم! قال تمليحا: بل لبثتم ثلاثمئة وتسع سنين، وقد مات دقيوس وانقرض قرن بعد قرن، وبعث الله نبيًّا يقال له المسيح عيسى بن مريمعليه السلام ورفعه الله إليه، وقد أقبل إلينا الملك والحاضر معه قالوا: يا تمليخا أتريد أن تجعلنا فتنة للعالمين؟ قال تمليخا: فما تريدون؟

قالوا: ادع الله جلّ ذكره وندعوه معك حتى يقبض أرواحنا، فرفعوا أيديهم، فأمر الله تعالى بقص أرواحهم وطمس الله باب الكهف على الناس، فأقبل الملكان يطوفان على باب الكهف سبعة أيّام لا يجدان للكهف بابًا، فقال الملك المسلم ماتوا على ديننا، ابنِ على باب الكهف مسجدًا، وقال اليهوديّ: لا بل ماتوا على ديني ابنِ على باب الكهف كنيسة، فاقتتلا فغلب المسلم وبنى مسجدًا عليه، يا يهوديّ أيوافق هذا ما في توراتكم؟

قال: ما زدت حرفًا ولا نقصت، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله[1].

---

١. *تفسير البرهان*، ج٢، ص٤٦٠.

وجاء في بعض الروايات أنّ أصحاب الكهف يعودون للحياة عند ظهور الإمام المهديّ عليه السلام[١].

بناءً على ما تقدّم، فإن قضيّة أصحاب الكهف آية عينيّة على إحياء الأموات يوم القيامة، وقد ورد في العديد من الروايات الإسلاميّة أنّ الله قبض روحهم ثمّ أحياهم الله بعد مدّة طويلة، وبالتالي لا يبقى أيّ مجال للكلام عن حاجة البدن للماء والطعام ليبقى حيًّا.

لو فرضنا أنّ عبارة «رقود» تعني النوم والثبات و«المرقد» يُقصد به مكان النوم، فإنّ نوم أصحاب الكهف مساوٍ للموت؛ حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[٢].

ملاحظة: إنّ المحور الأساس للاستشهاد بالآية الشريفة على إمكان المعاد هو ما جرى مع أصحاب الكهف وإحراز صدور الخبر الذي فُصّل في القضيّة صعب، حيث إنّ الاطمئنان لنزاهته وابتعاده عن سراية الإسرائيليّات صعب جدًّا ومن المشكل إثبات جميع خصوصيّاته.

---

١. *بحار الأنوار*، ج٣٩، ص١٥٠.

٢. يس: ٥٢.

الفصل الخامس

ضرورة ووقوع المعاد

إثبات المعاد ببراهين التوحيد

أشرنا إلى أنّ الإنسان لو عرف الله وتوحيده بشكل صحيح، فلن يشكّ في تحقّق النبوّة والمعاد؛ لأنّ المعاد عبارة عن رجوع الإنسان إلى الله.

الله تعالى أرسل الأنبياء، وهم الذين أرشدوا المجتمع إلى المعاد والتوحيد، ومن غير الممكن أن يعرف الله تعالى كما يجب ويبقى شكّ في النبوّة والمعاد. وبالتالي فإنّ معرفة الله أساس كافّة المعارف.

طرد الله تعالى المشركين لأنّهم لم يعرفوا الله: ﴿**مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[1]. لم يدرك المشركون مقام الله تعالى، فهو ذاتيّ لا نهاية له، قادر لا مثيل له، وإلّا لما أطلقوا اسم الله على الأنام، ولم يتعرّفوا على الله تعالى على أنّه: «ربّ العالمين» ولم يعتقدوا به. من هذا المنطلق يقول مولى الموحّدين: «وكمال معرفته التصديق به»[2]؛ فلو اكتملت معرفة الله ستوصل إلى مرحلة التصديق، وسيبتعد الإنسان عن الثنويّة والوثنيّة.

إنّ الذين لم يعرفوا الله تعالى، رفضوا إرساله الكتب لهداية البشر، ورفضوا وجود الأنبياء: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾[3]، ويعتقدون أنّ الحياة البشريّة يتكفّلها العقلاء من البشر ولا حاجة لهم للأنبياء عدا كتب هدايته.

---

١. الحج: ٧٤.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة١.

٣. الأنعام: ٩١.

إنّ خلق الإنسان والكون بيد الله تعالى، وهو الذي يتكفّل بهم، وتكفّل البشر يشكّل سرّ خلق الله. ثمّ إنّ مالك أسرار الخلق هو الذي يتكفّل وينمّي زواياه الوجوديّة ويوصلها إلى تكاملها، وهذا لا يتحقّق سوى عن طريق إرسال الأنبياء: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١]، وأنبياء الله تعالى يوصلون البشر عن طريق السعادة إلى كمالهم اللائق.

تحدّث القرآن الكريم وبلغة جازمة عن الذين لم يعرفوا الله والذين اتّجهوا نحو الكفر والشرك على أنّهم سفهاء جاهلون: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[٢]، وقد خاطب الله تعالى الرسول الأكرمﷺ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٣] فهؤلاء لم يشكروا الله على نعمة التوحيد التي هي نعمة كباقي النعم الإلهية: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٤].

كان الإمام الثامنعليه السلام يدعو الله تعالى قائلاً: «لك الحمد إن أطعتك ولا حجّة لي إن عصيتك، ولا صنع لي ولا لغيري في إحسانك ولا عذر لي إن أسأت. ما أصابني من حسنةٍ فمنك يا كريم»[٥].

الخلاصة، أوّلاً، أنّ الله هو الوجود المحض لا شريك له. ثانيًا، أنّه يوصل كافة الموجودات إلى كمالها ويقوم بهدايتها. ثالثًا، جعل للإنسان معاداً ورجوعًا يصل من خلاله إلى كماله اللائق. من هنا، يمكن القول إنّ تحليل برهان توحيد الله أحد أدلّة المعاد؛ لأنّه لو كان المعاد هو المبدأ والاختلاف لجهة الصدور والرجوع، فالموجود الذي عَرَف أوّليّة ومبدئيّة عين الآخر وعرف معاده، فليس بحاجة للمزيد من التأمّل لإثبات ضرورة المعاد؛ لذلك لا بدّ من التطرّق لبحث التوحيد بمقدار ما.

---

١. الجمعة: ٢.

٢. الزمر: ٦٤.

٣. الزمر: ٦٦ و٦٧.

٤. النحل: ٥٣.

٥. *بحار الأنوار*، ٤٩، ص١١٧.

١. برهان التوحيد

اعتمد القرآن الكريم في بعض الآيات الشريفة على مسألة توحيد الله لإثبات المعاد، فالله الواحد قد حدّد للبشر يومًا للرجوع والحساب. والله تعالى لا يترك الإنسان، حيث يقول: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[١].

تشكّل وحدانيّة الله تعالى في الآية الشريفة دليلاً على المعاد، كما أنّ وجود الله تعالى دليل على وحدانيّته. وهذا يعني أنّ أصل وجود الله دليل على وحدانيّته ودليل أيضًا على ضرورة المعاد؛ فقد جاء في الآية الشريفة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وعلى هذا الأساس فالألوهيّة دليل وحدانيّته؛ وهذا يعني أنّ الألوهيّة لا تنسجم مع وجود الشريك؛ لأنّ الحقيقة اللامتناهية لا تترك مكانًا لغيرها ليكون له حقيقة متمايزة أخرى.

طبعًا تحليل البرهان المتقدّم بحاجة إلى مقدّمات تصوّريّة وتصديقيّة، وبعضها مطويّ ليس من السهل الوصول إليه.

إنّ برهان «صرف الشيء لا يتثنّى ولا يتكرّر» الذي أقامه الفارابيّ والحكماء المسلمون الآخرون على التوحيد[٣] تعود جذوره إلى كلمات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

توضح الآية الشريفة المتقدّمة دليلاً على أنّكم ستُجمعون بالضرورة وبلا شكّ يوم القيامة، وعلى هذا الأساس فإنّ تحقّق القيامة أمر ضروريّ وحتميّ، وهذا هو معنى الكلام الذي قيل بشكل آخر: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[٤]؛ أي أنّه تعبير آخر عن ما يشار إليه «بالضرورة» وأمّا جهة القضيّة، فليست «بالإمكان» بل «بالضرورة»؛ كما لو قلنا «الأربعة زوج بالضرورة». وعلى الرغم من أنّ مصطلحات علم المنطق لم تُستخدم في القرآن الكريم؛ إلّا أنّه استعمل مفادها.

---

١. النساء: ٨٧.

٢. آل عمران: ١٨.

٣. *الأسفار*، ج٣، ص٣٣٨؛ *التلويحات*، ص٣٥؛ *أصول المعارف* للفيض الكاشاني، ص١٤.

٤. الحج: ٧.

يشير ذيل الآية المتقدّمة إلى صدق كلام الحقّ تعالى، فهو أصدق مخبر ومتكلّم، وكلامه حقّ وصدق؛ حيث أقسم الكافرون بأنّ الله لن يحيي الموتى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[1]. وفي مقابل منكري المعاد أمر الله تعالى رسوله أن يُقسم بخالقه أنّ القيامة قطعيّة وأنّكم ستشهدونها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2]. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3].

من هنا، نرى الله تعالى يقسم: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[4] ويأمر رسوله أن يقسم لهم بذلك، من جهة أخرى سيطالعنا في ذيل الآية برهان نقليّ؛ وهو برهان يشكّل قوله تعالى أصدق الصادقين حدّه الوسط».

٢. برهان الصدق

يجري إثبات الصانع والنبوّة في مراحل المعرفة الأولى بواسطة البرهان العقليّ، إلّا أنّ المعاد يمكن إثباته من خلال البرهان العقليّ والبرهان النقليّ أيضًا. وفي ما نحن فيه هنا فإنّ الحدّ الوسط للبرهان عبارة عن ضرورة صدق كلام الله تعالى؛ وقد أشارت الآية السابقة إلى ذلك وجاء في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[5] ومن هنا فالله تعالى أصدق الصادقين في أمر الجنّة والمعاد وعالم الآخرة، من هنا يمكننا الاستدلال على النحو التالي: إنّ الحقّ تعالى أصدق الصادقين في أمر المعاد وعالم الآخرة (الصغرى)، وكلّ ما يخبر به أصدق الصادقين يقع على وجه اليقين (الكبرى)، النتيجة أنّ المعاد والجنّة والنار أمور تقع على وجه اليقين، ومن خلال صدق المخبر نصل إلى صدق الخبر.

---

١. النحل: ٣٨.

٢. سبأ: ٣.

٣. التغابن: ٧.

٤. النساء: ٨٧.

٥. النساء: ١٢٢.

كان لأهمّيّة المعاد دور أساس في أن يلفت الله تعالى إليها أنظار البشر بالاعتماد على أيّ أسلوب صحيح؛ تارة يجري ذلك بواسطة البرهان العقليّ، وتارة أخرى بواسطة البرهان النقليّ، وأحيانًا عن طريق الجدال بالتي هي أحسن، وأخرى بالقسَم.

تجدر الإشارة إلى أنّ أستاذنا العلامة الطباطبائيّ قدّم بحثًا راقيًا في تفسير الميزان خلاصته: أنّ أشكال القسَم في القرآن إذا كانت عن الله تعالى أو الرسولﷺ، فهي تختلف عن القسَم الذي يؤدّيه الآخرون من الناس في المحاكم وغيرها. عندما لا يمتلك الآخرون دليلاً وبيّنة يلجؤون إلى القسم؛ أي أنّ قسمهم مقابل البيّنة والشاهد والدليل، إلاّ أنّ قَسَم الله تعالى والرسولﷺ هو بالدليل والبيّنة والشاهد نفسها. إذا أراد الله تعالى أن يخبر البشر بالبيّنة أو الشاهد على صحّة المطلب، يقسم بها ويقول مثلاً: أقسم بالشمس أنّ الوقت الآن نهار وإذا أراد القول إنّ الذين اتّخذوا موقف الخصم أمام الرسولﷺ ورفضوا رسالته السماويّة هم على الباطل، أقسم بنفس النبيّ الأكرمﷺ أنّهم على ضلال: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[١]؛ قسمًا بحياتك وعمرك، بسيرتك ونهجك وأسلوبك وسلوكك المبارك، أنّهم ضالون وغير عاقلين في سلوكهم، وأنّهم غارقون في الدنيا وحياة الشباب والثروة والمقام. إنّ الحماس الجنونيّ سواء أكان من الشباب أو الثروة والمنصب أو من سائر الشؤون الدنيويّة لا يتناسب مع التعقّل والعقلانيّة.

هؤلاء أضلّوا الطريق؛ لأنّهم إن أرادوا السعادة، فأنت معيار السعادة، وإذا طلبوا الإنسانيّة فأنت معيارها، وإذا أرادوا الفتوّة والعنفوان، فأنت نموذجها الأبرز. وإذا أرادوا أن يكونوا مربّين، فأنت أسوة التربية والتربية ذاتها، وإذا طلبوا الصلاح والتقوى فأنت ميزان التقوى. أقسم بك أنت الإنسان الكامل السالم التقيّ، أنّهم هم الناقصون غير السالمين والملوّثون.

قسمًا بك أنت الذي أفنيت عمرك في هدايتهم أنّهم ضالون. هذا الشكل من القسم شبيه بما يقال: قسمًا بهذه الشمس أنّ الوقت الآن نهار، هذا هو معنى القسم بالبيّنة والدليل وجميعها علامات تدلّ على أهمّيّة المعاد[٢].

---

١. الحجر: ٧٢.

٢. *الميزان*، ج٢٠، ص١٤٧.

٣. برهان الفطرة

الفطرة على وزن جِلْسه هي نوع خاصّ من الخلقة وتعني الطينة، الخميرة، صفة جوهريّة يمتلكها كلّ موجود بداية خلقة واستعملت بمعنى الطبع والدين. وعلى هذا الأساس فإنّ فطرة الله هي خلق الله.

في الأساس فإنّ كافّة الموجودات ومن جملتها الإنسان تمتلك رغبات وميولاً وغرائز وخصائص ذاتيّة وفطريّة ونفسيّة، وتتشكّل على أساسها حركتها التكوينيّة، وإذا لم يعترضها مانع أو موانع تصل إلى كمالها. والإنسان من بين هذه الموجودات يمتلك أهدافًا وآمالاً يتحرّك نحوها بجهوده ومساعيه وأعماله، وهي عبارة عن عشق «عالم الخلود» و«الحياة الأبديّة». وهو يحبّ «المحبوب المطلق» و«الكمال التامّ»؛ مع أنّه يخطئ في معرفة مصداق عالم الخلود، فيصل إلى المجاز بدل الحقيقة، وإلى السراب بدل عين الماء.

يتحدّث صدر المتألهين رحمه الله حول هذا الموضوع حيث يقول:

«إنّ الله الحكيم قد زرع في الأرواح محبّة الوجود والبقاء، وكذلك كراهة العدم والفناء وهذا عمل صحيح؛ لأنّ الوجود والبقاء خير للإنسان، والله الحكيم لا يفعل الباطل على الإطلاق؛ ولذلك فكل ما وجد في روح الإنسان حقّ وصحيح؛ ولذلك فإنّ طلب الإنسان الخلود دليل على وجود عالم خالد لا يقبل الزوال؛ أي أنّ حقّانيّة وصدق الطلب دليل على وجود المطلوب وإمكان الوصول إليه، ومن هنا فإذا كان من المسلّم وجود العالم الأبديّ الخالد، وأنّ الدنيا لا يليق بها البقاء والخلود، عند ذلك يصبح من الضروريّ وجود عالم الآخرة والمعاد. فلو لم يكن المعاد والآخرة موجودين، لكان ارتكاز طلب الخلود والمحبّة الأبديّة في داخل الإنسان عبثًا وباطلاً، مع العلم أنّه لا وجود للباطل في عالم الطبيعة؛ لأنّ عالم الإمكان من صنع الله الحكيم المحض وهذا قول الحكماء»[١].

ومن غير الممكن أن تكون فطرة الإنسان عطشى ولا وجود للماء في الخارج.

---

١. *الأسفار*، ج٩، ص٢٤١.

وقد ذكر تلميذ ملاّ صدرا وصهره الفيض الكاشاني هذا المعنى فقال:

«وكيف تعدم النفوس وقد جعل الله عزّ وجلّ بواجب حكمته في طبائعها محبّة الوجود والبقاء، وجعل في جبلّتها كراهة العدم والفناء، لكون الوجود خيراً صرفًا ونورًا محضًا، وبقاؤه خيريّة الخير ونوريّة النور، وقد ثبت وتيقّن أنّ بقاءها ودوامها في هذه النشأة الحسّيّة أمر مستحيل:

«أينما تكونوا يدرككم الموت؛ فلو لم يكن لها نشأة أخرى تنتقل هي إليها، لكان ما ارتكز في طبائعها وأُودع في جبلّتها من محبّة البقاء الأبديّ والحياة السرمديّة باطلاً ضائعًا. تعالى الله عن ذلك»[1].

والدليل على عدم وجود اللغو والعبث والباطل واللاهدفيّة في الحكمة الإلهيّة أنّ المدبّر وخالق الموجودات قد جهّز كلّ الموجودات بالأدوات والآلات ذات العلاقة بتكامله، فقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[2] وما يحكم عالم الخلق هو الحكمة والعناية الإلهيّة، فليست «الطبيعة» فاعلاً مستقلاًّ عن الإتيان بالعمل؛ لأنّ كلّ ما يمكن فرضه في العالم ومن جملته عالم الطبيعة، وبناءً على التوحيد الأفعاليّ، يمتلك علامة من علامات فاعليّة الله الحكيم.

وبالتالي فإنّنا نحتاج إلى مقدمتين لإثبات المعاد: الأولى: إنّ «طلب الخلود» هو طلب يعود للنوع الإنسانيّ ومقتضى طبعه. والثانية: إنّ فطرة الإنسان لا تخطئ، فتكون احتياجاتها محقّة، فالفطرة لا تطلب الباطل والعبث.

تجدر الإشارة إلى أنّ برهان الفطرة بحاجة إلى تحليل وإكمال إذا أريد منه إثبات أصل المبدأ، حيث يجب إكماله من خلال مبدأ تصديقيّ حدسيّ؛ فلا يمكن اللجوء إلى الحكمة والعناية الإلهيّة كحدّ وسط قبل إثبات مبدأ الوجود، بل يجب الاستعانة بالتجربة والحدس، حيث لا يوجد في عالم الطبيعة شيء عبثيّ.

أمّا في مرحلة إثبات المعاد، فإنّ وجود المبدأ الحكيم قد ثبت بالدليل مسبقًا، حيث

---

١. *علم اليقين*، الفيض الكاشانيّ، ج٢، ص٨٣٧.

٢. طه: ٥٠.

إنّ عنايته ولطفه معصوم عن العمل العبث. [يقول الملا عبد الله الزنوزيّ في تأييد أصل البحث: «وبهذا المعنى قد صرّح العلاّمة الطوسيّ في نقد المحصّل»، ثمّ نقل عبارة المحقّق الطوسيّ[١]]. بناءً على ما تقدّم يمكن التصديق وبسهولة أنّ العالم الأبديّ والسرمديّ موجود حتمًا والإنسان طالب له (كما يطلب الجائع الطعام والظمآن الماء)، ثمّ إنّه يبذل جهوده للوصول إليه. يقتفي الإنسان كلّ أثر للوصول إلى ذاك العالم، ويتمسّك بكل ما يظنّ أنّه يوصله، وقد يتمسّك بما هو سراب ظنًّا منه أنّه سرمديّ، وقد يخطئ في المصداق، فيظنّ أنّ «قوّته» سبيل الوصول للخلود، فيركن إليها ويعتمد عليها.

والواقع أنّه سيشاهد بأمّ العين يوم السقوط، حيث يستحيل الخلود في هذه المرحلة: ﴿**وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ**﴾[٢].

صَوّر القرآن الكريم بأسلوبه الفصيح فكرة الخلود والحياة الأبديّة؛ فقد يظنّ الإنسان أنّ ثروته سبب خلوده وبقائه، أمّا القرآن الكريم فأشار: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**﴾[٣]، فهذا الرجل كان يظنّ أنّ حديقته ورأسماله سبب الخلود: ﴿**الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾[٤].

حاول بعض المفسّرين أمثال العلاّمة الطباطبائيّ إثبات فطريّة المعاد بالاستعانة بروايات المعصومينﷺ والآية الشريفة: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[٥]. وقد شرح العلاّمة الآية المتقدّمة بالتفصيل، واستعان لذلك بالروايات الشريفة، فقال:

«وذلك أنّه ليس الدين إلاّ سنّة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن

١. *الأنوار الجليّة*، ص١٨٦.
٢. إبراهيم: ٤٤.
٣. الكهف: ٣٥.
٤. الهمزة: ٢ و٣.
٥. الروم: ٣٠.

يسلكها حتّى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان يتّبعها إلّا السعادة، وقد هدى كلّ نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته، وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز، قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[1] وقال ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾[2].

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه، وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته.

عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿**...فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...**﴾ قال: التوحيد.

وفي تفسير القمّيّ بإسناده عن الهيثم الرمانيّ عن الرضا، عن أبيه، عن جدّه، عن أبيه محمّد بن علي عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿**...فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...**﴾[3] قال: هو لا إله إلّا الله محمّد رسول الله عليّ أمير المؤمنين وليّ الله إلى ههنا التوحيد»[4].

ثمّ دوّن العلّامة الطباطبائيّ في ذيل الحديث:

«ومعنى كون الفطرة هي الشهادات الثلاث أنّ الإنسان مفطور على الاعتراف بالله لا شريك له بما يجد من الحاجة إلى الأسباب إلى ما وراءها وهو التوحيد، وبما يجد من النقص المحوج إلى دين يدين به ليكمله وهو النبوّة، وبما يجد من الحاجة إلى الدخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدين وهو الولاية، والفاتح لها في الإسلام هو عليّ عليه السلام، وليس معناه أنّ كلّ إنسان حتّى الإنسان الأوّل يدين بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث.

وإلى هذا يؤوّل معنى الرواية السابقة أنّها الولاية، فإنّها تستلزم التوحيد والنبوّة،

---

١. طه: ٥٠.

٢. الأعلى: ٢ و٣.

٣. الروم: ٣٠.

٤. *الميزان*، ج١٦، ص١٨٦.

وكذا ما مرّ من تفسيره الفطرة بالتوحيد، فإنّ التوحيد هو القول بوحدانيّة الله تعالى المستجمع لصفات الكمال المستلزمة للمعاد والنبوّة والولاية، فالمآل في تفسيرها بالشهادات الثلاث والتوحيد والولاية واحد»[1].

اعتبر بعض المفسّرين أنّ الآيات الأولى من سورة «القيامة» دليل على آخر القيامة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[2]. وهذا يعني وجود شأن داخل روح الإنسان يكون حَكَمًا في كلّ ما له علاقة بالعبثيّات والمضلاّت وكلّ ما له علاقة بعدم العدل، فيقوم بتقبيح هذه الأعمال. هذا الوجدان اليقظ الحيّ ينشد يومًا، هو يوم العدل والإنصاف يصل فيه كلّ شخص إلى ثواب وعقاب عمله.

يقول الرسول الأكرمﷺ في سبب وحكمة تسمية النفس بـ «اللوامة»:

«ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلاّ وتلوم نفسها يوم القيامة؛ إن عملت خيراً قالت هلاّ ازددت، وإن عملت شرًّا قالت يا ليتني لم أفعل»[3].

تشكّل الآية المتقدّمة مؤيّدًا لبرهان الفطرة، ولكن لا تشكّل هذه الآية وآية «وأقم وجهك...» دليلاً مستقلاًّ على الفطرة؟ فذلك لا يخلو من المصادرة؛ والسبب في ذلك أنّ النفس التي قُيِّدت في الآية الشريفة بوصف اللوّامة هي من وجهة نظر العلماء الروح الإنسانيّة وليس الفطرة والوجدان... لذلك قال العلامة الكاشانيّ في تفسير ذيل الآية الشريفة:

«النفس هنا توافق مصطلح الحكماء؛ أي أنّها الروح الإنسانيّة التي هي مناط شخصيّة الإنسان؛ فزيد مثلاً عبارة عن روحه التي تمتلك عقائد وتعلم أشياء، وتمارس أخلاقًا وعادات معيّنة وبالجملة هي عينه. وإذا استخرجوا الدماء من عروقه وأدخلوا مكانها دماءً أخرى يبقى على شعوره بأنّه هو، حتّى لو بدّلوا كلّ

---

١. *الميزان*، ج١٦، ص١٨٧.

٢. القيامة: ١-٣.

٣. *تفسير منهج الصادقين*، ج١٠، ص٧٩.

أعضاء بدنه يبقى شعوره بنفسه، وإذا فرضنا موته وأنّ الله تعالى خلق من بدنه إنسانًا أو حيوانًا آخر ذا روح جديدة، فيكون هذا الحيوان أو الإنسان الجديد غير الشخص الأوّل؛ لأنّ روحه جديدة، وما كان يمتلك الشخص الأوّل من عقائد وأفكار وأخلاق وعادات لا يمتلكها الثاني، والشرط في الحشر يوم القيامة أن تبقى الروح الأولى، وهي التي تعود»[١].

من هنا، وبالالتفات إلى شبهة المصادرة (في الآية الأولى)، وبعد الأخذ بعين الاعتبار أنّ النفس اللوّامة هي الروح الإنسانيّة (في الآية الثانية) نتابع المسألة الأولى ذات العلاقة بالفطرة ونقول:

عشق الحياة الأبديّة

يجد كلّ إنسان في أعماق فطرته بوضوح عشقًا للحياة الأبديّة، ويتألّم من كلّ أنواع الزوال والانعدام، لا بل ويهرب منه. والشخص الذي يقتل نفسه يحاول التحرّر من أحداث الحياة المريرة ليدخل عالماً لا يشعر فيه بالألم ولا يتأثّر به، سواء أكان يعلم أنّ روحه ستبقى حيّة بعد الموت أم لا، وقد يظنّ أنّه عندما يموت يتحوّل إلى جماد والشيء الجامد يفتقد الإحساس والألم، إذًا هو غير متألّم من أصل الوجود، بل من مشقّات الحياة التي لا يجد علاجًا لها. وعلى هذا الأساس، فإنّ أصل الشوق للوجود الأبديّ موجود في أعماقه. والإنسان سواء أكان في الماضي أم في المستقبل يمتلك هذا النوع من العشق، لا بل يمكن القول إنّ هذا العشق موجود عند غير الإنسان من الموجودات أيضًا، فتسعى إليه بشكل غريزيّ.

من جهة أخرى وبما أنّ الشوق للحياة الأبديّة موجود عند كافّة أبناء البشر (لا بل في جميع الحيوانات)، وبما أنّ الحياة الأبديّة البعيدة عن الموت غير ممكنة في عالم الدنيا، وبما أنّ لا يمكن لأيّ شخص في هذا العالم البقاء للأبد، وأنّ ما يُطلق عليه «ماء الحياة» كناية عن المعرفة الكاملة بالمعارف الإلهيّة، في النتيجة يجب أن يكون محلّ الاشتياق ومتعلّقه

---

١. *تفسير منهج الصادقين*، ج ١٠، ص٧٨.

أي الوجود الخالد موجوداً؛ أي أنّ عالماً مصانًا عن الزوال وبعيدًا عن ظاهرة الموت أي القيامة موجود، حيث لا وجود للموت بل حياة: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[١]. أمّا فيما يتعلّق بالموجودات الأخرى، فمن غير المعروف إن كان قد زُرع في داخلها حبّ بقاء الذات كما هو عند الإنسان، فالمسألة تحتاج إلى بحث، ويمكن إثباتها من خلال ما يجري من تحليل حول الإنسان.

الخلاصة أنّ محبّة الوجود الدائم والحياة الأبديّة وعشقها أمر وجوديّ، وهذا الأمر الوجوديّ هو الرابط بين المحبّ والمحبوب (الوجود الأبديّ)، ولا يمكن أن يُزرع هذا العشق والمحبّة في أعماق الإنسان من دون وجود المحبوب الخارجيّ، ولا يعتبر من فطريّات البشر، ولا يمكن الادّعاء بأنّ هكذا محبّة موجودة بالضرورة في أعماق الإنسان لأجل هدف وغاية أبديّة، وأنّ ذاك الهدف موجود حتمًا. يمكن مطالعة تفصيل هذا البحث في كتاب الفطرة في القرآن[٢].

٤. برهان الحركة والهدفيّة

إنّ عالم الطبيعة مع ما يحتوي من ظواهر سماويّة وأرضيّة، ومع كلّ ما فيه من معادن ونباتات، وكل الموجودات الحيوانيّة والإنسانيّة يتمتّع بانسجام واتّساق خاصّ، فيشكّل واحدًا حقيقيًّا (وليس اعتباريًّا). يتحرّك هذا الواحد الحقيقيّ نحو هدف متعالٍ، حيث لا يلحظ فيه أيّ نوع من السكون والهدوء؟ لأنّ الحركة عبارة عن الخروج من القوّة إلى الفعل والخروج من الاستعداد والوصول إلى الكمال، وهذا يعني أنّ الحركة هادفة. إذا وصل المتحرّك أثناء حركته إلى هدف معينّ، ثمّ تجاوزه نحو الهدف الثاني والثالث، فهذا يعني أنّ الهدف الأوسط ليس مقصدًا نهائيًّا، بل هو عبارة عن ممرّ؛ لأنّ من لوازم الهدف الحقيقيّ أن يستقرّ المتحرّك مع وصوله إليه ويتّخذ حالة الثبات.

من هنا لا بدّ من القول إنّ لكلّ الكون بدءًا من الذرّة حتّى المجرّات البعيدة هدف نهائيّ،

---

١. العنكبوت: ٦٤.

٢. *التفسير الموضوعي*، ج١٢، ص٣١٦.

فتصل إلى هذا الهدف من خلال الحركة من القوّة إلى الفعل، ومن التحوّل والتبدّل إلى الهدوء والثبات، وأمّا إذا لم تصل إلى الهدف النهائيّ، فيلزم من ذلك عدم هدفيّة الحركة؛ كما هو الأمر في نظام العلل الفاعليّة، فلو كان قبل كلّ فاعل مبدأٌ، وقبل هذا المبدأ فاعل آخر، ولم يتمّ الوصول إلى الفاعل الأوّل والمبدأ الذاتيّ، لزم من ذلك عدم وجود المبدأ والفاعل لعالم الإمكان. ومن هنا فإنّ من لوازم سلسلة الأهداف وجود هدف أصيل ونهائيّ.

الفرق الوحيد بين المبدأ الفاعليّ والهدف النهائيّ (المبدأ الغائيّ) في إمكان أن لا يصل الفعل الخاصّ إلى الهدف لوجود مانع، ولكن من غير الممكن أن يكون ثمّة فعل من دون فاعل ومبدأ فاعليّ، ولا يمكن افتراض ذلك فيما يتعلّق بمجموع عالم الطبيعة؛ لأنّه ومع وجود الانسجام والاتّساق الكامل الدالّ على الواحد الحقيقيّ لمجموع عالم الطبيعة لا يمكن تصوّر مانع؛ فالعناصر الداخليّة هي التي تتزاحم وتتعارض مع بعضها، وأمّا خارجها فلا وجود للمانع والمزاحم للمجموع. إذًا العالم بأجمعه يصل إلى هدف فيستقرّ عنده. وقد تحدّث القرآن الكريم عن المكان الذي هو محلّ ثبات العالم واستقراره وهدفه، وعبّر عنه بالمعاد وعالم الآخرة: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[١].

عندما يتحدّث القرآن الكريم عن القيامة باعتبارها مكان القرار والثبات؛ فذلك لأنّ الوصول للمقصد هو نهاية السير والحركة والوصول للهدف، وهذا ما يؤدّي إلى قرار المتحرّك. وقد وصف القرآن الكريم القيامة بأنّها «المرسى»، فهي المكان الذي تستقرّ فيه سفينة الطبيعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[٢].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم»[٣]؛ فالدنيا هي مرحلة القوّة بالنسبة للقيامة، والقيامة مرحلة فعليّة الدنيا، ومرحلة القوّة كالسفينة أثناء حركتها، على أن تصل إلى الفعليّة والكمال فتستقرّ.

---

١. غافر: ٣٩.

٢. الأعراف: ١٨٧.

٣. *بحار الأنوار*، ج٧٤، ص١٣٤.

يعلن القرآن الكريم وبوضوح: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[1]، وعلى هذا الأساس فالدنيا محلّ التحوّلات، القِدَم والتجدّد، التغيّر والتبدّل، وما هذا شأنه لا يكون قرارًا. ونحن كبشر نشاهد بأعيننا يوميًّا عدد الأموات الذين يُنقلون من هذا الدنيا إلى القبور.

وجاء في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[2]، وكلّ أبناء البشر يتحرّكون مسرعين لملاقاة خالقهم، والفرق أنّ بعضهم يكون لقاؤه مع الأسماء الإلهيّة الجماليّة، كالغفّار والرحيم والكريم، بينما يكون لقاء آخرين مع الأسماء الإلهيّة الجلاليّة كالقهّار والمنتقم.

والذين انحرفوا عن الصراط المستقيم سيرِدُون على الخالق القهّار والمنتقم، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «...أمّا قولك إنّا لله، فإقرار منك بالملك، وأمّا قولك وإنّا إليه راجعون، فإقرار منك بالهلك»[4]؛ وهذا يعني أنّنا بعد الموت والهلاك نعود إلى مالكنا فمكاننا عنده.

توجد الكثير من الآيات القرآنيّة حول الموضوع، وهي ليست قليلة، حيث يمكن من مجموعها تسجيل النقاط الآتية:

أ) إنّ برهان الحركة صالح لإثبات المبدأ الفاعليّ ولإثبات المبدأ الغائيّ، أي المنتهى والقيامة؛ وكما يكون لكلّ متحرّك محرّك، كذلك لكلّ متحرّك هدف. وأمّا برهان الحدوث والقدم، فلا يمكن من خلاله إثبات المعاد.

ب) إنّ برهان الحركة في مقام إثبات المبدأ الفاعليّ يمكنه إثبات موجود مجرّد غير متحرّك فقط، وليس الواجب الأزليّ، ويثبت في مقام إثبات المعاد الهدف الثابت والموجود الكامل غير المتحرّك فقط، وليس مرحلة المعاد النهائيّة ولقاء الله؛ لأنّ للقيامة والمعاد مراتبَ، وثمّة ضرورة لبرهان خاصّ لإثبات المرحلة الأخيرة.

---

١. القيامة: ١٢.

٢. الانشقاق: ٦.

٣. البقرة: ١٥٦.

٤. *نور الثقلين*، ج١، ص١٤٤.

ج) إنّ التعارضات التي تحصل أحيانًا في مسير الحركات الجزئيّة محدودة، ولا تضرّ بمجموع حركة النظام، وهي من قبيل «الشرور بالعرض»؛ بالإضافة إلى أنّ القَسْر الدائم محال. إذًا نهاية عالم الطبيعة تكون على صورة مجموعة واحدة متناسقة تصل إلى هدفها.

د) إنّ دائرة برهان الحركة هو عالم الطبيعة فقط، ولا يكفي لإثبات معاد الموجودات المجرّدة؛ لأنّها غير متحرّكة، وليست الحركة من ذاتيّاتها؛ كما أنّه لا يُستفاد منه لإثبات المبدأ الفاعليّ للموجودات المجرّدة.

يُشار إلى أنّ بحث تجدّد الأمثال قد يكون نموذجًا مناسبًا للوصول إلى عالم الآخرة والعودة إلى الله تعالى.

٥. برهان الحكمة

إنّ برهان الحكمة هو البرهان الذي تشكّل حكمة الله حدّه الوسط، وقد ذُكر في آيات متعدّدة:

١. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١] طبعًا الأمر ليس كذلك، ولا يصدر العمل العبث عن الله تعالى؛ لأنّه قد ثبت في الرؤية الكونيّة التوحيديّة إنّ الله تعالى حكيم غير محتاج.

توضيح: الله تعالى من جهة هو الغنيّ المحض، وليس الهدف من خلقه الوصول لهدف يغنيه أو يوصله إلى كمال محدّد، فمن البديهيّ أنّه لا يمكن تصوّر النقص والفقر عند الغنيّ المحض والكمال الصرف؛ إذًا لا يمكن افتراض أنّ الله الغنيّ الصرف يبادر إلى عمل للوصول إلى الكمال أو المنفعة فيرفع حاجته؛ سواء أوصل النفع إليه بشكل مباشر أم عن طريق موجود آخر؛ لأنّه وفي كلا الحالين يستلزم احتياج الذات الغنيّة وتسبّب نقصانه؛ ولكن إذا كانت المنفعة تصل إليه، فمن الواضح أنّ ذلك يستلزم احتياجه، وإذا كانت المنفعة تصل إلى غيره من الموجودات، عند ذلك يجب القول إنّ الله تعالى وصل إلى هدفه، وإذا لم تصل المنفعة إلى الآخر لم يصل إلى هدفه؛ فإذا لم

---

١. المؤمنون: ١١٠.

تتّصف أنت بالكمال على سبيل المثال، وكان وصول الكمال إليك يتطلّب هذا العمل، عند ذلك لن يكون غنيًّا محضًا. ومن هنا، فالله تعالى لم يخلق الكون لمنفعة له، ولم يخلقه ليبسط وجوده على العباد ويصل إلى هدفه. النتيجة هي أنّه ليس ثمّة هدف في خلق الكون سوى ذات الله تعالى بعينها؛ فهو الأوّل ذاتًا والآخر ذاتًا؛ وهو الظاهر ذاتًا والآخر ذاتًا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[١].

من جهة أخرى فإنّ عمل الخلق وفعل الله تعالى ليس من دون هدف؛ فهو حكيم ولا يصدر العمل العبث عن الحكيم، وبالتالي فإنّه لا يخلق شيئًا عبثًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]؛ أي إنّ كمالهم يتحقّق في ظلّ العبادة، وأمّا إذا لم يبادروا لعبادة الله، فلن يصلوا إلى كمالهم، ونفع ذلك يعود إليهم؛ وكذلك إذا صدر منهم الطغيان وكفروا بالله، فلن يضرّ ذلك الله شيئًا، بل يعود إليهم: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٣]؛ ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٤]؛ إذا كفرتم وجميع أهل الأرض، فالله غنيّ عنكم؛ لأنّ عبادة العباد هدف للمخلوق وليس للخالق، وإذا لم يُعبد الله لا يصل الخلق إلى مقصدهم، وليس صحيحًا أنّ الخالق يُحرم من هدفه؛ لأنّ الغنيّ المحض ليس له هدف بعيد ومستقلّ عن ذاته اللامحدودة فهو عين هدفه.

بناءً على ما تقدّم فإنّ عالم الخلق الذي يحمل عنوان «مخلوق الله» والذي صدر عن مبدأ حكيم له هدف على وجه القطع، ويبقى ناقصًا إذا لم يصل إليه، والهدف هو ساحة القيامة التي تتّصف بخصائص عديدة كالكمال والثبات و... وأمّا عالم الدنيا، فليس كذلك؛ فالجميع يشاهد أنّ الدنيا مليئة بالظواهر المتناسبة من قبيل الموت والحياة، النقص والفقر، النزاع والجدال، الحرمان والظلم، العبث واللهو، وبالتالي لا يمكن أن تكون الدنيا هي المطلوب الحقيقيّ والهدف الواقعيّ للمخلوق؛ ولا يوجد ما يمنع أن تصل إلى هدفها المتعالي، سواء أكان المانع داخليًّا أم خارجيًّا، أي أن تكون

---

١. الحديد: ٣.

٢. الذاريات: ٥٦.

٣. إبراهيم: ٨.

٤. آل عمران: ٩٧.

مجموعة متناسبة ومتناسقة ومتعاضدة ويكون على رأسها مدبّر حكيم يدبّر أفعالها. وفي النتيجة يصل عالم الوجود بأكمله، بدءًا من الذرّة إلى أكبر المجرّات ومن المادّي إلى المجرّد، إلى كماله ولا تبقى أيّ ذرّة باطلة. لذلك جاء في الآية الشريفة:

٢. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١] وهذا يعني أنّ الاعتقاد بأنّ خلقهما من دون هدف ونفي المعاد إنّما هو ظنّ الكافرين: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

٣. يقول الله تعالى في آية تجمع بين غنى الله المحض وكونه حكيمًا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾[٣]؛ أي أنّ خلق نظام الوجود الأعم من الملك، الجن، الإنسان، الحيوان، و... جميعها بالحقّ ولأجل هدف، والهدف هو القيامة والجنّة و... ولا مكان للباطل والعبث.

قدّم القرآن الكريم استدلالات عديدة في هذا الشأن، حيث تشكّل الآية الآتية أكثرها جامعيّة في ضرورة القيامة وحتميّة وقوع المعاد: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[٤]، وبما أنّه لا يمكن لأيّ مخلوق أن يكون موجودًا من دون خالق؛ ولأنّ كلّ فاعل لا يكون الوجود عين ذاته، فهو بحاجة إلى فاعل آخر، فإنّ من لوازم التربية الكاملة لكلّ موجود تجهيزه بجميع أدوات وآلات التكامل، وخالق الكون هو الوحيد القادر على هذا الأمر، حيث يهدي الجميع نحو الرشد والتكامل، أي الهدف النهائيّ، والهدف النهائيّ لجميع الموجودات، ومن جملتها الإنسان، هو الوصول إلى المعاد والقيامة.

نقاط حول برهان الحكمة

١. إنّ النقاط الإيجابيّة الموجودة في برهان الحركة جميعها موجودة في برهان الحكمة أيضًا.

---

١. ص: ٢٧.

٢. الدخان: ٣٨ و٣٩.

٣. الحجر: ٨٥.

٤. طه: ٥٠.

٢. إنّ دائرة برهان الحكمة هو كافّة موجودات عالم الخلق، أعمّ من المادّيّ والمجرّد؛ لأنّ الحركة والمرونة الملازمان لبرهان الحركة ليسا في هذا البرهان، بل يشكّل أصل الهدفيّة والاستكمال مدار الاستدلال بالحكمة، وبالتالي الخروج بشكل عام عن دائرة اللهو واللعب، والعبث والبطلان واللغو، ويشمل هذا الحدّ الوسط ضمن سعته الموجودات المجرّدة.

إذًا لا ينبغي أن يظنّ الإنسان أنّه خُلق عبثًا: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[١]؛ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[٢]؛ وعليه فإنّ الهدف النهائيّ والحكيم لله سبحانه وتعالى في مقام الفعل هو القيامة والمعاد والعودة إليه: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[٣].

٦. برهان الرحمة

برهان الرحمة هو البرهان الذي تكون رحمة الله هي الحدّ الوسط فيه، وهو عبارة عن إيصال كلّ صاحب استعداد إلى كماله اللائق به، وإيصال كلّ موجود إلى ما يمتلك استعدادًا ذاتيًّا له: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٤]، وبالتالي فإنّ رحمة الله تعالى ليست صفة عاطفيّة أو انفعاليّة، بل ألزم الله نفسه بها وثبّتها، وبما أنّ كلّ إنسان يمتلك الاستعداد للحياة السعيدة والأبديّة، فإنّ من لوازم رحمة الله أن يعطيها للإنسان؛ لأنّ الله من جهة قادر ومالك على الإطلاق ولا يضرّ أيّ خلل بإرادته في إنجاز هذه الرحمة ولا وجود لشيء يمنع تحقّق إرادته، أو يمنع نفوذ إرادة رحمته، ومن جهة أخرى فقد أَعَدّ للإنسان حياة أبديّة دائمة لا يمكن اختصارها بالحياة العابرة المقتضبة، ولا يمكن حصرها بالأطر الدنيويّة الضيّقة، فلا بدّ للإنسان من التوجّه نحو عالم الأبديّة شاء أم أبى. من هنا جاء في الآية الشريفة: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]. ولا شكّ ولا ترديد في تحقّق

---

١. القيامة: ٣٦.

٢. القيامة: ٤٠.

٣. العلق: ٨.

٤. غافر: ٧.

٥. الأنعام: ١٢.

القيامة من وجهة نظر القرآن الكريم، ويبرز الشكّ والترديد عند الذين عاشوا الدنيا بزخارفها وزينتها، ويشير القرآن الكريم إلى أنّ الله تعالى مالك كلّ ما في السماوات والأرض على وجه الاطلاق، وما نطلق عليه نحن اسم الملك إنّما هو ملك اعتباريّ، فكل الملكيّات البشريّة اعتباريّة وينبغي أن لا تخدعنا الاعتباريّات.

تشير آيات سورة «الحمد» إلى هذا المعنى، يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1]. إنّ رحمة الله اللامتناهية هي التي توجب تحقّق يوم المعاد، والله هو مالك ذاك اليوم؛ إذًا ندرك من خلال التدقيق أنّ ألوهيّة الله تقتضي ضرورة المعاد؛ فالسماوات والأرض في قبضته يوم القيامة: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

ملاحظة: إنّ جميع النقاط الإيجابيّة التي يحتويها برهان الحكمة موجودة في برهان الرحمة أيضًا، ويشمل البرهان أنحاء عالم الخلق، أعمّ من المجرّد والماديّ، وكلّ ما ورد في القرآن الكريم حول حشر السماوات والأرض والحيوان يمكن إثباته بواسطة برهانيَ الحكمة والرحمة، كما يمكن الاستعانة ببرهان الحركة لإثبات ما له علاقة بالمادّيّات من قبيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[3]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[4]، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[5].

٧. برهان الحقيقة

إنّ أصل الفكر والتفكير لا ينفصل عن البشر، بل هو ملازم للإنسان على الدوام؛ لذلك فإنّ الاختلاف بين الآراء وتعارض الأفكار، وحرب المدارس، وعراك الاثني وسبعين ملّة،

---

١. الفاتحة: ٢-٤.

٢. الزمر: ٦٧.

٣. الزمر: ٦٧.

٤. الأنعام: ٣٨.

٥. هود: ٥٦.

والتغافل عن الحقيقة، وكذلك صراع الحقّ والباطل... كلّ ذلك موجود وما زال، والحقّ المحض يظهر في القيامة فقط، وقبل الوصول إلى مرحلة ظهور الحقّ المحض، فإنّ كلّ شخص يدّعي امتلاك زمام الكلام ويظن أنّه الوحيد الكاشف لنقاب الفكر.

من جهة أخرى لا يمكن اعتبار كافّة هذه الأفكار والآراء محقّة؛ لأنّها تعارض بعضها، مع العلم أنّ الفكر الحقّ لا يعارض فكرًا حقًّا آخر على الإطلاق؛ كما لا يمكن اعتبار كافّة الآراء المتناقضة باطلة، وبطلانها يعني رفع النقيضين، وهو نوع من السفسطة وإنكار لكافّة أشكال الواقع.

وعليه تكون إحدى الأفكار والطرق محقّة والأخرى باطلة، وما لم تتضح الصورة الواقعيّة للحقّ لن تظهر صورة الباطل.

من جهة ثالثة فإنّ الدنيا لا تمتلك ظرفيّة ظهور الحقّ فيها فقط، بحيث لا يجد الباطل إليها طريقًا؛ لانتفاء التكليف والامتحان والاختلاف؛ إذًا يجب وجود مكان يظهر فيه الحقّ بشكل كامل وينتفي فيه الباطل وتقطع فيه أواصر الخلاف والاختلاف.

كما يجب أن يكون هناك مكان تُعرف فيه أوجه المرائين ومتعدّدي الأوجه وازدواجيّي القلب والقالب، ومدعي الزهد والمحتالي، حيث ترفع الحجب بشكل كامل ليُعرف محرّفوا الحقائق أو كاتموها، وتُعرض المؤامرات والدسائس أمام الملأ العامّ، وهذا لا يتحقّق إلّا مع وصول يوم الحقيقة (القيامة)؛ ففي ذاك اليوم يظهر باطن كلّ شخص وأسراره: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾[1] ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[2]. نعم، الله تعالى هو الحقّ وهو الذي يقضي بالحقّ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾[3]، ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[4]. الله تعالى هو عين الحقّ، وهو الذي على هذا النحو ينهي كافّة الاختلافات، ولا يبقى أيّ مجال للحديث عن

---

١. النبأ: ٣٩.

٢. النور: ٢٥.

٣. غافر: ٢٠.

٤. الحج: ٦٩.

اختلاف بين الحقّ والباطل، ولا يبقى من يكتم كلامًا عن الله، حيث يعجز عن ذلك: ﴿**وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا**﴾[١]، ولا يمكن حجب العقائد والأفكار: ﴿**لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ**﴾[٢]، ويخرج كلّ ما اكتنز في باطن الأرض: ﴿**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾[٣].

مسائل حول برهان الحقيقة

١. على الرغم من أنّ طريقة الأنبياء في بيان الحقّ وطرد الباطل وحلّ الاختلاف، وتهذيب الأنفس وتطهيرها ذات تأثير كبير: ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾[٤]، إلّا أنّ بيان الحقّ يختلف عن «تجلّي الحقيقة الكاملة». من هنا ومع وجود كافّة المرسلين والأنبياء الإلهيّين بقي الاختلاف بين الأفكار والمفكّرين واضحًا، واستمرّ النفاق عند المرائين، فلم يُتَوقّع الوفاق المطلق، ولم يرتفع أصل النفاق؛ لذلك أضحى من الضروريّ وجود يوم معيّن (القيامة) لظهور الحقّ الكامل والحقيقة: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾[٥]؛ ﴿**اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[٦].

٢. بما أنّ القيامة هي ساحة ظهور الحقّ الكامل، فإنّ الذي يصبح ميزانًا ومعيارًا فيها عبارة عن «الحقّ»؛ أي أنّ «الحقّ» هو المعيار الوحيد لقياس كافّة ما يجري يوم القيامة؛ لذلك جاء في الآية الشريفة: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾[٧]. وكلّ عمل ثقيل في الميزان أيّ بالحقيقة، يوجب الفلاح، وكلّ عمل لا وزن له أي أنّه يفتقد الحقيقة يكون سببًا للضلال.

---

١. النساء: ٤٢.

٢. الحاقة: ١٨.

٣. الزلزال: ٢.

٤. النحل: ٣٩.

٥. يونس: ٩٣.

٦. الحج: ٩٣.

٧. الأعراف: ٨.

تحدّث القرآن الكريم عن الذين لا يشكرون والذين لم يأتوا بعمل حقّ، يقول: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[١]؛ لأنّ أفئدتهم خالية فارغة: ﴿أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[٢] والفارغ بشكل كامل لا يقبل الوزن.

٣. تتّضح مع ظهور بواطن وخفيّات الموجودات مراتبها الوجوديّة، ويطلعون على حقائقهم، وتتضح أنّ ظنونهم الباطلة لم تكن سوى سراب، وتُعلَن للملأ العام الأسباب والعلل الكاذبة: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[٣]؛ وتقطع كلّ الأسباب؛ الأسباب الباطلة من غير الشاكرين، ولا تبقى أيّ علاقة باطلة.

٨. برهان العدالة

يقوم خلق العالم على أساس الحقّ والعدل والإحسان والحكمة، حيث يقول الإمام أمير المؤمنين: «إنّه بالحقّ قامت السماوات والأرض»[٤]، ويقول الإمام الجوادعليه السلام: «قامت السماوات والأرض بحكمه»[٥]، وورد عن رسول اللهصلى الله عليه وآله قوله: «بإحسان الله قامت السماوات والأرضون»[٦] وقال أيضًا: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[٧].

من جهة أخرى فإنّ كافة الجهود التي بذلها الأنبياء في سبيل هداية البشر وكلّ المجاهدات التي قدّموها لأجل تهذيب الأنفس وإصلاح المجتمع لم تصل إلى النجاح الكامل، ولم يتمكّنوا من قطع أساس الظلم، بل ظهر في وجه الأنبياء والصالحين والأتقياء مجموعة من الأشرار الذين سفكوا الدماء وارتكبوا القبائح واتّبعوا الأهواء، فضيّعوا الكثير ممّا عمل الأنبياء لأجل إنجازه، ولكن للأسف لم يصل هؤلاء إلى عقابهم وجزائهم المناسب.

---

١. الكهف: ١٠٥.

٢. إبراهيم: ٤٣.

٣. البقرة: ١٦٦.

٤. *بحار الأنوار*، ج٣٣، ص٤٩٣.

٥. م.ن، ج٩١، ص١٩٩.

٦. م.ن، ج٤٣، ص٢٥٢.

٧. *تفسير الصافي*، ج٥، ص١٠٧.

من جهة ثالثة فإنّ عالم الطبيعة لا يمتلك ظرفيّة الجزاء الكامل؛ فلا ثواب الصالحين الذين لا يفكّرون سوى بمقام القرب الإلهي ممكن، ولا عقاب بعض المذنبين الذي يضلّون الأجيال ويقتلون الآلاف من الأبرياء الذين يمتلكون قلوبًا أقسى من الحجارة وأنيابًا أكثر حدّة من الذئاب ودسائس توازي الشياطين، فذلك كلّه غير ميسّر في عالم الطبيعة. كيف يمكن في هذا العالم معاقبة شخص لم يتورّع عن ظلم الآلاف وإهدار حقوق كثير من الناس ومنع الكثير من الوصول إلى كمالهم اللائق؟ الشخص الذي يقتل شخصًا آخر في هذه الدنيا ويحرمه من حياته يُقْتَل جزاء عمله؟ أمّا الذي يقتل مئات الأفراد فكيف يتمّ التعامل معه؟ هل يكفي الاقتصاص منه بقتله؟!

بناءً على ما تقدّم، فإنّ عدل الله تعالى يقتضي وجود عالم آخر بعد عالم الطبيعة، ووجود نظام عادل ليقوم العدل ويسوّى حساب الجميع.

لا بدّ من وجود هذا اليوم الذي يؤخذ فيه للمظلوم حقّه، ويصل الفاسدون إلى جزاء أعمالهم. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله تعالى لم يرضها ثوابًا لأوليائه، ولا عقابًا لأعدائه»[١].

إذا لم يكن يوجد يوم للعدل بين الناس في عالم الوجود، بحيث يصل فيه المذنب إلى جزاء عمله، ويصل فيه الأتقياء إلى مقامهم اللائق والنعم الأبديّة، وإذا لم يصلوا إلى آثار أعمالهم الحسنة وحياتهم الدنيويّة المطهّرة يلزم من ذلك كلّه تساوي الظالم والعادل والصالح والطالح، وهذا لا يتلاءم مع عدل الله والنظام الربّاني الأحسن.

نعم، لا بدّ من عالم آخر يفصل فيه حساب الصالحين عن المسيئين؛ فقد جاء في الآية الشريفة: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٢]، فهذا اليوم هو يوم «الفصل». إنّ عدم وجود عالم آخر غير هذا العالم يعني أن يتساوى الصالح مع الطالح، والباب والحائط، والقمح والتبن، وهذا بعيد كلّ البعد من العقل السليم، من هنا جاء في الآية الشريفة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٣]؛ هل يمكن أن يفنى

---

١. *نهج البلاغة*، الحكمة ٤١٥.

٢. يس: ٥٩.

٣. ص: ٢٨.

الصالحون والمفسدون عند الموت ولا يبقى أيّ مجال للثواب والعقاب! يقول تعالى في جواب هذا السؤال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]، هل يحاسب المؤمن كالفاسق؟ الأمر ليس كذلك قطعًا، بل سيلقى كلّ شخص جزاء عمله المناسب له: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2]، وكما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وذلك يوم يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال»[3].

ملاحظة ١: أشرنا إلى أنّ كلّ برهان يثبت مدّعاه بمقدار حدّه الوسط. ومن هنا يمكن القول إنّ برهان العدالة نافذ في حالات القوانين الوضعيّة، التكاليف، الأوامر والنواهي، والأوامر الإلهيّة أي الدين، وعليه فإنّه لا يمكن أن يحكم عالم ما وراء المادّة كعالم الملائكة مثلاً، حيث لا مكان للعصيان والفساد، وبناء على أنّ المقصود من العدل الإلهيّ ظهور الحقّ المطلق والحقيقة التامّة؛ فإنّ إثباته يجري بواسطة برهان الحقيقة، وليس العدل الحقوقيّ أو الفقهيّ.

ملاحظة ٢: على الرغم من أنّ عدالة الله تعالى صفة فعليّة، وليست صفة ذات، إلا أنّها لا تتخلّف على الإطلاق، وذلك بالاستناد إلى قدرة الله وقادريّته، ولا يمكن أن نتصوّر حالة لا يقيم الله العدل فيها: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[4].

٩. برهان تجرّد الروح

يتولّى برهان تجرّد الروح إثبات قسم من المعاد، فيثبت أنّ للإنسان حقيقة لا تقبل الزوال، إذًا الروح لا تزول بعد ترك البدن وموته بل تستمر بحياتها. ويمكن الرجوع إلى الفلسفة في تحليل الموضوع.

---

١. الجاثية: ٢١ و٢٢.

٢. الزلزلة: ٧ و٨.

٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٠٢.

٤. الأنبياء: ٤٧.

تحدّث القرآن الحكيم عن أنّ للإنسان جسمًا ماديًّا وروحًا مجرّدة، والمعاد الروحانيّ يثبت دليل تجرّد الروح. والقرآن الكريم يوضح كافّة المعارف والقيم التي تلعب الدور الأساس في تأمين سعادة البشر: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[١].

وبما أنّ القرآن الكريم أوضح المعارف والقيم التي تلعب دورًا في تحصيل السعادة الإنسانيّة، فمن غير الممكن أن لا يتطرّق لمعرفة الإنسان نفسه، فهل يعقل أن يُعَرّف الله الإنسان بالكون وخالقه ولا يعرفه بنفسه؟ البديهيّ أن يعرّف الله الإنسان أوّلًا بنفسه، ثمّ يقدّم له خالق الكون، إذًا لا يمكن أن يكون عامل المعرفة مجهولًا عند ذاته.

النتيجة أنّ القرآن الكريم لم يقصّر في أمر معرفة الإنسان، فكان يتحدّث تارة على سبيل الإجمال، وأخرى على سبيل التفصيل وبشكل شفاف.

طُلب من رسول اللهﷺ أن يحدّثهم عن الروح، فأجاب بأنّ الروح من أمر الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾[٢]، وهذا جواب إجماليّ.

وجاء الجواب التفصيليّ في القرآن الكريم في آية أخرى، مبيّنًا أنّ «الأمر» شيء بسيط ذو وحدة ومنزّه عن التدريج: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾[٣]، حيث لا تركيب فيه. أمر الله هو أن يقول للشيء كلّما أراده: «كن»، فيصبح الشيء موجودًا «يكون»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٤]. إنّ أمر الله واحد، وهو خارج عن عالم الملكوت وعن عالم الخلق؛ (على الرغم من اندراجه تحت مجموع الخلق الكليّ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٥]، والخلق الجامع لا مقابل له، وهو يشمل كلّ ساحة «الأمر»؛ لأنّه في الآية الشريفة متفرّع عن تسبيح الله، حيث جاء في الآية: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٦]، وعلى هذا الأساس، فإنّ لكلّ شيء ملكوت هو بيد الله تعالى ويفهم من ذلك أنّ «الأمر»

---

١. النحل: ٨٩.

٢. الإسراء: ٨٥.

٣. القمر: ٥٠.

٤. يس: ٨٢.

٥. الزمر: ٦٢.

٦. يس: ٨٣.

دفعيّ «كن»، والملكوت منزّه عن التكثّر، وهو عبارة عن ظهور إرادة الحقّ تعالى، وهذا الأمر لا يتوقّف على الشروط المادّيّة والاستعداديّة، هذا الأمر هو شيء يعود إليه. وعليه، فالله تعالى بيده ملكوت كلّ شيء وكافّة جوانب تحقّقه منزّه عن المادّيّة والتدريج ونظائرها.

وبما أنّ خطاب «كن» تكوينيّ، فهو يهيّئ الأرضيّة لتحقّق الشيء؛ أي أنّ المخاطب يتحقّق بمجرّد تحقّق الخطاب التكوينيّ، بخلاف الخطابات الاعتباريّة التي لا يكون الخطاب فيها جدّيًّا ما لم يكن المخاطب موجودًا. ومن هنا، فالروح من سنخ «أمر» الله التي يكفي في وجودها إرادة الله، ولا حاجة في ذلك لمبدأ؛ أي لمادّة تحلّ فيه.

تحدّث أئمة الدين عن النفس، يقول رسول الإسلامﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[١]، «أعرفكم بنفسه، أعرفكم بربّه»[٢]، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[٣].

أمّا الآيات الشريفة التي تدل بالتفصيل على بقاء الروح وتجرّدها فهي:

١. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٤].

٢. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٥]، وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ أرواح الشهداء حيّة لا تزول على الإطلاق وهذا المعنى لا يصحّ إلّا مع الاعتقاد ببقاء الروح وعودتها إلى الله الذي «لا يموت».

ومن هنا، فإذا تناثرت وتلاشت جميع ذرّات جسد الشهيد ولم يبق منها شيء، فإنّ روحه الملكوتيّة تبقى حيّة تتمتّع برزق خاصّ، إلّا أنّه لا يمكن القول إنّ أرواح الشهداء فقط حيّة ومجرّدة ولا تفنى بالموت، بينما أرواح الآخرين مادّيّة تفنى به؛ لأنّ أرواح الأنبياء وخواصّ الله وأئمّة الدين أرفع وأعلى من أرواح الشهداء.

وأمّا لو كانت أرواح البشر غير مجرّدة، فكيف تصبح كذلك بعد الشهادة؟

---

١. *بحار الأنوار*، ج٢، ص٣٢.

٢. *غرر الحكم*، فصل الميم.

٣. الحشر: ١٩.

٤. البقرة: ١٥٤.

٥. آل عمران: ١٦٣.

إذا قيل إن أرواح الشهداء مادّيّة، وهي تُرزق في حضور الخالق، فيُقال في الجواب إنّه يلزم من ذلك أن يكون الحضور نوعًا من الحضور المادّيّ، وليس حضور مقام «عنديّة» الخالق المنزّه عن المادّة ولوازمها. والسؤال فيه خلط بين الضيافة البشريّة المتعارفة وبين عنديّة الخالق وضيافة الله تعالى ورزقه، وما يفهم في المعنى العرفيّ من الكون عند فلان مفهوم مصنوع ومجعول ولا يصحّ أن يفسّر به معنى الكون عند الله والشهادة.

٣. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١] إنّ الأشخاص الذين تحضرهم الوفاة ينتقلون إلى عالمٍ هو برزخ متوسّط بين الدنيا والآخرة، ولا يمكن تبرير وتوجيه هذا الانتقال إلّا من خلالِ القول بتجرّد الروح؛ فكلّ شخص، ومهما كانت وفاته سواء أبقي شيء من ذرّات بدنه أم لم يبق، سينتقل إلى عالم البرزخ، والبرزخ الذي يُعبّر عنه بـ «القبر» هو حياة متوسّطة بين الدنيا والآخرة؛ أي أنّ الموت ليس برزخًا عدميًّا بين الدنيا والآخرة حيث يُعْدم الإنسان بالموت ثمّ يعاد من جديد للحياة في المعاد، بل هو حيّ باستمرار ينتقل من نشأة إلى نشأة أخرى.

٤. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٢].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مشيرًا إلى حياة الآخرة الأبديّة: «قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية»، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٣].

٥. عندما يموت الظالمون يدخلون النار حتّى لو غرقوا في ماء البحار وجرفتهم الأمواج العاتية: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[٤]، فبسبب فساد قوم نوح وطغيانهم الطويل أغرقوا في الطوفان ودخلوا النار، وهذه النار هي نار البرزخ المشتعل في باطن البحر، فلو لم تكن روح الإنسان مجرّدة ولو لم يكن يوجد حياة بعد تخلّص البدن من

---

١. المؤمنون: ١٠٠.

٢. السجدة: ١٠ و١١.

٣. الأنبياء، ١٠٤؛ *نهج البلاغة*، الخطبة ١١١.

٤. نوح: ٢٥.

الحياة، فلن يكون ثمّة مجال ومكان للعذاب، خاصّة وأنّ نار البرزخ يشتعل لهيبها داخل مياه البحر. وعليه فلو اخترقت أبدان الأتقياء في النار الملتهب، فإنّ أرواحهم وبمجرّد مفارقتها الأبدان تدخل حدائق من حدائق الجنّة، ويشهد على ذلك الآيات الشريفة في سورة البروج: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ**﴾[1]. بعض المؤمنين كانوا يعذّبون بالنار ويلقون فيها ليكونوا طعمة للهبها على أيدي ظلم الطغاة في عصرهم، وبما أنّ الأصل الدينيّ ينصّ على انتقال المؤمنين الأتقياء بعد الموت إلى روضة من رياض الجنّة في البرزخ، فإنّ هؤلاء يدخلون الجنّة بعد الموت مباشرة، وهذا يدلّ على تجرّد الروح وحياتهم الأبديّة بعد الانتقال من هذا العالم إلى عالم آخر ذي نظام خاصّ.

٦. إنّ الأشخاص الذين وصلوا إلى قمم الاطمئنان الشامخة والذين حفظوا أنفسهم بعيدًا عن الوساوس والأذيّة والاضطراب الروحيّ والداخليّ، هؤلاء يخاطبهم الله تعالى عند الموت وبعده، حيث جاء في الآيات الشريفة: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾[2]، فأنفسهم راضية ومرضيّة، وبما أنّ الله تعالى منزّه عن المادّة وبعيد عن القوانين المادّيّة، فإنّ العودة إلى ذاك المقام المتعالي وتلك الذات التي لا مثال ولا جهة ولا حدود لها، هو ليس رجوعًا مادّيًّا. وعليه فالذي يرجع (روح الإنسان) ليست مادّيّة ولو كان رجوع الإنسان محكومًا للقوانين المادّيّة، ولو كان الإنسان مادّةً بالكامل، لكان رجوعه مادّيًّا من دون شكّ في ذلك، ويلزم من ذلك ـ معاذ بالله ـ أن يكون الله تعالى مادّيًّا، ويجب أن تكون له حدود وجهات معيّنة، ليتمكّن الأمر المادّي من الرجوع المادّيّ نحو جهة مادّيّة، مع العلم أنّ الله تعالى منزّه عن الجهة والمادّة. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

بناءً على ما تقدّم، يمكننا بعد إثبات أنّ الله تعالى مجرّد، أنّ فهم أنّ الرجوع إليه ليس رجوعًا مادّيًّا، وبهذا النحو يمكن تعميم الكلام حول جميع الأرواح؛ لأنّ الجميع مشمول

---

١. البروج: ٤-٧.

٢. الفجر: ٢٧ و٢٨.

بقانون العودة إلى الله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١]. طبعًا درجات الموجودات ومراتب عودتها إلى الله ليست على نحو واحد.

ـ ملاحظات

١. إنّ تجرّد الروح لا يستلزم حصر البرزخ أو المعاد الروحانيّ المحض؛ لأنّ الإنسان في كلّ مرحلة من مراحل الدنيا والبرزخ والمعاد يمتلك بدنًا.

٢. إنّ الدائرة الدلاليّة لبرهان تجرّد الروح هو معاد الإنسان، وكلّ شيء يمتلك روحًا مجرّدة؛ لذلك لا يمكن إثبات معاد عالم الخلق أو عالم الحركة ومنطقة التحوّل والتبدّل بواسطته؛ أي إنّ الذين يمتلكون روحًا مجرّدة يدخلون نظام الآخرة، ولكن لا يمكن إثبات أنّ النظام الموجود بأكمله يتحوّل إلى نظام خاصّ؛ كما أنّ أدلّة تجرّد الروح والحياة بعد الموت، هي الآيات التي تشير إلى حقيقة الإنسان وليس أيّ موجود آخر.

٣. بما أنّ تجرّد الروح يشكّل الحد الوسط لهذا البرهان، والموجود المجرّد يعتمد على القدرة الإلهيّة الأبديّة فقط، ولا يحتاج إلى المادّة، فهو لا يزول على الإطلاق. إذًا، عودة الإنسان إلى الله بعد التخلّص من الدنيا أمر قطعي، وليس أمرًا محتملاً أو ممكنًا، بل هو حتميّ وضروريّ، حيث تفيد عبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٢] الضرورة وليس الإمكان.

٤. كما أنّ تجرّد الروح يبيّن ضرورة المعاد وتحقّق القيامة بشكل حتميّ، فهو يبيّن بالإضافة إلى ذلك البرزخ والحياة المتوسّطة بين الدنيا والآخرة؛ أي يمكن الاستدلال بواسطة تجرّد الروح على البرزخ الذي هو القيامة الصغرى؛ لأنّ هويّة الإنسان لا تفنى بالموت والبرزخ هو الحدّ المتوسّط بين الدنيا والآخرة والطفرة في السير أمر محال، فالمتوفى يعبر مرحلة البرزخ من دون شكّ.

---

١. البقرة: ١٥٦.

٢. البقرة: ٢.

٥. ليس الإنسان روحًا مجرّدة فقط، بل هو مركّب من الروح والبدن الجسمانيّ، والأصالة هنا للروح، والجسم تابع لها. تشكّل الروح البعد الأصيل للإنسان في كافّة مراحل الدنيا والبرزخ والآخرة، والبدن في كلّ مرحلة تابع لنظامها، إلّا أنّ أصالة الروح وتبعيّة البدن تكون أكثر وضوحًا وشفافيّة في القيامة.

وعليه، يكون الجسم في كلّ مرحلة مناسبًا لها، فللجسم الدنيويّ عوارض وآثار دنيويّة، والجسم البرزخيّ يتناسب مع البرزخ، وللجسم الآخروي آثار وخصائص مناسبة للآخرة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أصل الإنسان لبّه»[١]، وعليه عندما تحين علائم الموت، فإنّ أصل الإنسان، أي الروح تترك البدن؛ لأنّ الروح أكثر اشتياقًا لعالم الملكوت، حيث لا يطلب منها أيّ جهد أو تعب فإذا تركت الروح البدن، يفنى البدن بالتدريج. إذًا ليس صحيحًا القول إنّ البدن يطرد الروح بعد الفناء[٢]، بل الروح كسلطان عزم الهجرة فترك الخيمة التي انهارت بالتدريج.

لا شكّ أنّه من المحتمل أن يكون المراد من البيت المتقدّم الموت الفجائي وليس الموت الطبيعي، وعليه يكون المبدأ الصحيح أنّ الروح التي تشكّل أصل الإنسان وحقيقته وقد تركها بدنها.

إنّ البدن والقوى الجسمانيّة ظلُّ الروح، والبعد الجسماني للإنسان تابع بعد الموت للبعد الروحاني وفرع له؛ فجسم الإنسان في الدنيا تابع للروح، حيث يحين ذاك الوقت الذي يفقد فيه البدن لياقة الضيافة، فيكسر قفص البدن ليخرج من هذا السجين ويتخلّص من معاناته.

إنّ روح الإنسان كطائر يعشق التحليق، لكن عليه أن يحطم قشرة تلك البيضة ليطير بجناحيه نحو قلل القصور. إنّ أيّ شكل تتّخذه روح الإنسان في الآخرة هو الذي تظهر فيه وتحشر على أساسه؛ أي أنّ شاكلة الإنسان تتحقّق على أساس خصائصه الداخليّة، فتظهر في القيامة على أساسها.

---

١. *بحار الأنوار*، ج١، ص٨٢.

٢. الروح تنوي الرحيل قلت: لا ترحلي، قالت ما العمل المنزل سيؤول إلى الانهيار.

الخلاصة أنّ الآيات الشريفة التي توضح المعاد الجسماني، جميعها تشير إلى أنّ جسم الإنسان تابع لشروط وضوابط الآخرة؛ على الرغم من أنّ الإنسان غافل عن أسرارها وتفاصيلها. ففي المعاد الجسماني يكون الجسم مناسبًا لنظام الآخرة.

ملاحظة ١: الرأي النهائي أنّ الشيء الذي لا يكون البرهان القطعي واضحًا فيه، لا مجال فيه سوى التسليم المحض والانقياد الصرف للوحي الإلهي المقدّس الذي يتجلّى في القرآن والعترة.

ملاحظة ٢: إنّ اعتبار الدليل النقلي وحجيته في كل مسألة مناسب للمطلب المطروح؛ فإذا كان من المعارف الأصيلة فالدليل يجب أن يكون مناسبًا لأصول الدين، وإن كان من الفقه والحقوق والأحكام الفرعيّة وجب أن يكون الدليل مناسبًا لفروع الدين.

الفصل السادس

الموت، القبر والبرزخ

مصطلح الموت والقبر

الموت هو إيداع الروح، الخلو من الروح، فقدان القوى الحيوانيّة والحرارة الغريزيّة، فناء الحياة، تلاشي الحياة، والرحيل عن الدنيا، هذا في الاستخدام الفارسي، وفي العربيّة تستخدم عبارات الموت، الممات، الفوت، الأجل...

القبر كلمة عربيّة، وهو المكان الذي يدفن فيه الإنسان الميّت، وتوجد أسماء أخرى للدلالة على القبر من قبيل: التربة، الجدث، الحفير، الرمس، الريم، المرقد، المرمس، المضجع، المدفن، الروضة، الضريح و... .

الموت في ثقافة القرآن الكريم

استخدم القرآن الكريم عبارة «الوفاة» وليس «الفوت»؛ لأنّ الفوت يعني الزوال والعدم، ولكن الوفاة تعني الأخذ التام والملكية الكاملة وكمال الحقيقة وانتقالها إلى عالم آخر. ويجري الأمر بواسطة الملائكة المأمورة بالوفاة: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾[1].

كان الكافرون يدّعون بأنّنا إذا متنا وانتشرنا في الأرض، فهل نحيا من جديد. فكان الخطاب على لسان الرسولﷺ: «قل يتوفاكم ملك الموت... ولا يبقى من حقيقتكم شيء على الأرض، وهذا يعني أنّ الموت ليس فناءً وعدمًا ولن تزولوا بالكامل، هذا مضافًا إلى أنّ كامل حقيقتكم تحفظ عند الملائكة المأمورين من الله، فإنّ إرجاعكم يكون بإرجاع المأمور إلى الخالق: ﴿**...ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾».

---

١. السجدة: ١١.

إذًا الموت وفاة وليس فوتًا والإنسان هو «المتوفى»، وليس «ضالًّا»، فالموت توفٍّ وليس ضلالاً وتشتتًا في الأرض. وعلى هذا الأساس، عندما ينتقل الإنسان إلى عالم آخر فقد بدأ سفرًا جديدًا يصل فيه إلى مقصده النهائيّ: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[١]؛ «الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا»[٢]. وينسب الله تعالى التوفيّ والأخذ التامّ إلى نفسه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

وعلى هذا الأساس، ليس الموت كنزع قشر الفاكهة ونشرها على وجه الأرض، بل العمر أشبه بفاكهة لذيدة كثيرة الماء يعمل المزارع بعد نضوجها على قطافها بدقّة متناهية ويهيئها لهدف أعلى من ذلك. والموت شبيه بطائر قد أطلق من قفصه وحلّق متوجّهًا نحو عالم أعلى، وهذا لا يعني الفناء والعدم.

الموت في الروايات

١. قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت، فقال: «على الخبير سقطتم، هو أحد ثلاثة أمور يرد عليه: إمّا بشارة بنعيم الأبد، وإمّا بشارة بعذاب الأبد، وإمّا تحزين وتهويل»[٤].

٢. وسُئل الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: ما الموت الذي جهلوه؟ قال:

«أعظم سرور يرد على المؤمنين إذا نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذا نقلوا عن جنتهم إلى نار لا تبيد ولا تنفد»[٥].

٣. وقال علي بن الحسين عليهما السلام: لمّا اشتدّ الأمر بالحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام نظر إليه من كان معه، فإذا هو بخلافهم؛ لأنّهم كلّما اشتدّ الأمر تغيّرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم، وكان الحسين صلوات الله عليه وبعض من معه من

---

١. القيامة: ٣٠.

٢. *بحار الأنوار*، ج٥٠، ص١٣٤.

٣. الزمر: ٤٢.

٤. *بحار الأنوار*، ج٦، ص١٥٣.

٥. م.ن، ص١٥٤.

خصائصه تشرق ألوانهم، وتهدأ جوارحهم، وتسكن نفوسهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا لا يبالي بالموت! فقال لهم الحسين عليه السلام: «صبراً بني الكرام! فما الموت إلا قنطرة يعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسطة والنعيم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟ وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب، إنّ أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم، ما كذبت ولا كذبت»[1].

٤. قيل لعليّ بن الحسين عليه السلام: ما الموت؟ قال: «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة، وفك قيود وأغلال ثقيلة، والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح، وأوطئ المراكب، وآنس المنازل، وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل عن منازل أنيسة، والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظم العذاب»[2].

٥. قيل للصادق عليه السلام صف لنا الموت، قال عليه السلام: «للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كله عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشد»[3].

٦. دخل موسى بن جعفر عليه السلام على رجل قد غرق في سكرات الموت وهو لا يجيب داعيًا، فقالوا له: يا بن رسول الله، وددنا لو عرفنا كيف الموت وكيف حال صاحبنا؟ فقال: «الموت هو المصفاة تصفّي المؤمنين من ذنوبهم، فيكون آخر ألم يصيبهم كفارة آخر وزر بقي عليهم، وتصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو راحة تلحقهم هو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأمّا صاحبكم هذا فقد نخل من الذنوب نخلاً وصفّي من الآثام تصفية، وخلص حتى نقي كما ينقّى الثوب من الوسخ، وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد»[4].

---

١. م.ن، ص١٥٤.

٢. م.ن.

٣. م.ن، ص١٥٢.

٤. م.ن، ص١٥٥.

٧. وقيل لمحمّد بن عليّ عليه السلام: ما الموت؟ قال: «هو النوم الذي يأتيكم كلّ ليلة، إلا أنّه طويل مدّته، لا ينتبه منه إلاّ يوم القيامة، فمن رأى في نومه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره ومن أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره فكيف حال فرح في النوم ووجل فيه؟ هذا هو الموت فاستعدّوا له»[١].

نعم، توجد العديد من الروايات في هذا الشأن، حيث وصفت حقيقة الموت في بعضها، وعرّفت في بعضها الآخر؛ وقد شاهدنا في الرواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عند مسألة المحيطين بالمريض أن يحدّثهم عن الموت ويعرّفهم به فأجاب: «الموت هو المصفاة». فهو إذًا أمر وجوديّ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢]، وعلى هذا الأساس، فالحياة والممات نحوُ حركة من حركات الشيء المتحرّك.

وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وبعبارة جميلة وبليغة الموت فقال: يا عليّ... ما خلقت أنت ولا هم لدار الفناء، بل خلقتم لدار البقاء، ولكنّكم تنتقلون من دار إلى دار»[٣].

موتتان وحياتان

يستفاد من الأحاديث الشريفة أنّ الموت عبارة عن: جسر عبور، خلع لباس وارتداء آخر، استشمام رائحة ورد ذكيّ، البشرى بالحياة الأبديّة أو لسع حيّة أو عقرب، والوعيد بالعذاب الدائم، سجن المؤمن وجنّة الكافر، نوم الليل، أداة التصفية، الانتقال من مكان إلى آخر، إنّ جميع هذه المفاهيم هي من نوع المفاهيم الوجوديّة التي تختلف باختلاف الأفراد.

إذًا من الخطأ تصوّر أنّ الإنسان يفنى بالموت. القافلة البشريّة في حال حركة ولا تعدم أو تفنى في وسط الطريق على الإطلاق. يتحرّك الإنسان ليصل إلى الهدف الأعلى والمستقرّ الأصليّ؛ أي عند الخالق، ويترك أحماله على الأرض: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[٤]، وفي ذلك

---

١. م.ن، ص١٥٤.
٢. الملك: ٢.
٣. *بحار الأنوار*، ج٣٧، ص١٤٦.
٤. القيامة: ١٢.

اليوم لا وجود لأحد سوى وجه الله تعالى. إنّ هذا العالم المضطرب المتلاطم سيستقرّ ويهدأ في الآخرة. بينما يعتقد الكافرون أنّ للإنسان حياة يعقبها الموت وتطوى صفحة الحياة للأبد، وبالتالي لن يكون هناك برزخ ولا حساب ولا نشر: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾[١]. ويقول أيضًا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[٢]، إلا أنّ القرآن أثبت للإنسان حياتين وموتين، وليس صحيحًا أنّ الإنسان يموت من الدنيا ولا يبقى بعد ذلك مجال لمساءلته. يقول هؤلاء: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٣].

هناك الكثير من الكلام حول الحياتين والمماتين، وقد أوضح الأستاذ العلامة الطباطبائي بعد استعانته بالآيات ذات الصلة أن للإنسان موتتين أصيلتين، كما أنّ له حياتين أصيلتين؛ الموت الأوّل الانتقال من الدنيا إلى البرزخ، والموت الثاني هو الانتقال من البرزخ إلى القيامة؛ وبالتالي يكون البرزخ هو حياة الإنسان الأولى والقيامة حياته الثانية؛ لأنّ الموت والحياة أمران نسبيّان وقياسيّيان. لا وجود للموت المطلق الذي هو الزوال المطلق من الأساس؛ كما لا وجود للشرّ المطلق كذلك فكل الكون خير. إذًا الموت أمر نسبيّ، كما أنّ الشرّ أمر نسبيّ أيضًا، أمّا الحياة فهي أمر نفسيّ؛ أي أنّ الكون بأكمله حياة. عندما ينتقل الموجود الحيّ من مكان إلى مكان آخر، فهو يموت بالنسبة للمكان «المنقول عنه»، ويحيا بالنسبة إلى المكان «المنقول إليه».

عندما يدخل الإنسان البرزخ يكون قد مات في الدنيا وفي الوقت عينه عاش في البرزخ، وكذلك عندما ينتقل إلى القيامة الكبرى يكون قد مات في البرزخ وعاش في القيامة الكبرى. في جميع هذا التفاصيل والحركة، من المحال أن يتخلّل الموت العدم والفناء المحض بين المتحرّك والمقصد. أثبت القرآن الكريم في إحدى آياته البرزخ باعتباره عالماً متوسّطًا بين الدنيا والقيامة: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤] يشار إلى أنّ

---

١. الدخان: ٣٤ و٣٥.

٢. الأنعام: ٢٩.

٣. غافر: ١١.

٤. المؤمنون: ١٠٠.

الإنسان وقبل موته الطبيعي، قد شهد موتًا وحياة قبليّة؛ فهو كان في السابق على صورة: تراب، طين، حمأ مسنون، صلصال و...، فمات ثمّ أحياه الله في عالم الطبيعة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[١].

فالقرآن يصرّح أنّ الإنسان كان ميّتًا، وهذا يعني أنّه لم يكن هناك إماتة، على الرغم من أنّه «موت» ولم يكن هناك ذكر للحياة الدنيويّة؛ باعتبار أنّ الحياة الدنيا ما هي إلّا لهو ولعب؛ فالحياة الدنيا لهو وما له أهمّيّة خاصّة هو مراحل الإحياء والحياة، الإماتة، القبر (البرزخ)، القيامة والحياة الأبديّة، وليس الحياة الدنيويّة السريعة الانقضاء. يحمل الإنسان في حياته الدنيويّة آثارًا وألوانًا تعرض عليه حيث تزول مع الموت، وبالتالي يمكن اعتبار الموت زوال الأثر الدنيويّ، فالدنيا من جهة هي لهو، لعب، زينة، تفاخر وتكاثر، وهي من جهة أخرى ومع كونها يقظة هي نوم، ومع كونها انتباهًا هي غفلة، وبالتالي لا يمكن اعتبار الدنيا حياةً جامعة وكلّيّة في المسير البشريّ الرحب.

قانون الموت العام

يعتبر القرآن الكريم وفي نظرة شاملة أنّ قانون الموت هو قانون عام وقد أكّد على ذلك في بعض الآيات، يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢]. تتضمّن الآية أربعة أجزاء.

١. الموت قانون عامّ لا يقبل الاستثناء.

٢. يعطى الأجر الكامل لعمل الشخص في القيامة فقط.

٣. الصالح والفائز هو الذي ينجو من النار ويدخل الجنّة.

٤. متاع الدنيا الزهيد إنّما هو غرور ولعب.

توضيح: يحاول القرآن الكريم تعليم المسائل العلميّة بوضعها إلى جانب المسائل الأخلاقيّة، فقد ذكر عبارة ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٣] إلى جانب عبارة ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي أنّ

---

١. البقرة: ٢٨.

٢. آل عمران: ١٨٥.

٣. الجمعة: ٢.

المعارف والاعتقادات والقيم الأخلاقيّة تكمل بعضها. وقد ذَكّر القرآن الكريم في الآية الشريفة بقانون الموت العامّ؛ ولا يحتوي القرآن على أيّ استثناء بحيث يحفظ الشخص نفسه بعيدًا عن الموت، فليس قانون الموت شبيهًا بقوله تعالى ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ التي جاء على أثرها الاستثناء ﴿**إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ**﴾[1]؛ هنا يكون حال النفس تابعًا للعمل، إلاّ أصحاب اليمين الأحرار غير المرتهنين الذين يتنعمون في رياض الجنّة. الموت من المقدّرات الحتميّة لكلّ إنسان والتي لا تتخلّف: ﴿**نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**﴾[2]؛ لا يمكن لأيّ سبب أن يمنع ذلك أو أن يسبق أمر الله. وأشارت الآيات الشريفة بشكل واضح مخاطبةً رسول اللهﷺ: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[3]. وجاء في إحدى الآيات الشريفة ومن باب تحدّي الخصم في استدلالاته: ﴿**تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[4]؛ عندما تصل الأرواح الحلقوم وأنتم تنظرون إليها، فلو كنتم صادقين أعيدوها إلى البدن الميت من جديد. إذًا الموت قانون عامّ ثابت لا يقبل أيّ شكل من أشكال التغيير، وأمّا عبارة «إنّ الموت حقّ»[5]، فهي من لوازم الإيمان الكامل، وتُستخدم بهدف التنبّه البرزخيّ للميت والتذكير الدنيويّ للحاضرين والمشيعين.

تؤيّد القوانين العقليّة هذا المعنى؛ فلا معنى لأن يخلق العالم لأجل الاختبار والامتحان ويكون في الوقت عينه أبديًّا وثابتًا؛ أي أنّ أصل الامتحان هو دائمًا لأجل هدف؛ والامتحان لا يكون هدفًا بعينه؛ فليس من المعقول أن يعيش الإنسان وللأبد في عالم الامتحان والاختبار؛ لذلك جاء بعد قوله تعالى ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[6] ﴿**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[7].

---

١. المدثر: ٣٨ وما بعدها.

٢. الواقعة: ٦٠.

٣. الأنبياء: ٣٤ و٣٥.

٤. الواقعة: ٨٧.

٥. *بحار الأنوار*، ج١٣، ص٢٨٥.

٦. آل عمران: ١٨٥.

٧. م.ن.

نعم، تقول الآية الشريفة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وفيها أقوال للمفسّرين، فقال بعضهم: المقصود من النفس الذات؛ لأنّ «نفس الشيء» هو بعينه «ذات الشيء»، وذات كلّ شيء ماهيّته؛ وبناء عليه فجميع الماهيّات تذوق الموت، حتّى لو كانت الماهيّة جمادًا كالحجارة، ولكنّ هذا التفسير غير صحيح؛ لأنّ الآية في مقام توضيح موت الموجود الحيّ؛ لذلك جاء في الآية الشريفة الواردة بعد تلك الآية ﴿إِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وبالتالي لا تشتمل على الجماد وأمثاله.

المسألة الأخرى أنّ العديد من المفسّرين كالفخر الرازي صرّحوا بأنّ المستفاد من الآية موت البدن وليس الروح، والموت عبارة عن قطع العلاقة بين الروح والبدن. وعليه فالموت لا يتعلّق بالروح، بل الروح تتذوّق الموت وتهضمه؛ كما يتذوّق الشخص العصير ويهضمه. وعليه فما يُتذوّق «الموت» لا يزول، وليس الذي يَتَذوّق. فمن يموت يكون في الحقيقة قد أمات الموت لا أن يموت هو بنفسه. تتخلّص روح الإنسان بعد تذوّق الموت من التحوّل والانتقال؛ لذلك يتحدّث القرآن الكريم حول ساكني الجنّة ويقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾[١].

رأي الشيخ الطوسي

يقول الشيخ الطوسي إنّ استخدام كلمة «ذوق» في الآية المذكورة من باب المجاز؛ لأنّ الذوق حقيقة في الماهيّات وأمثالها، ولسان الإنسان هو الذي يتذوّق الطعام. والموت ليس على شاكلة أن تقوم نفس الإنسان بتذوّقه، وكما تقول العرب مجازًا «شرب كأس المنون»، فالقرآن الكريم يقول مجازًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢].

إنّ التفسير المتقدّم ليس صحيحًا؛ لأن الألفاظ وضعت لروح المعاني، وليس لمصاديقها المادّيّة والشخصيّة؛ فمصطلح المصباح مثلاً وُضع لشيء محدّدة ولم يلحظ في وضعه خصوصيّات المصباح الذي يعمل على الحطب، أو الزيت، أو النفط أو

---

١. الدخان: ٥٦.

٢. الأنبياء: ٣٥.

الكهرباء. المصباح أداة للإضاءة، والإنسان هو الذي يحاول تهيئة الإضاءة تارة بواسطة الحطب وتارة أخرى بواسطة الزيت وتارة ثالثة بواسطة النفط أو الكهرباء. المصباح لم يتمّ وضعه للمصابيح المادّيّة والشخصيّة، فكلّ ما يفيد النور حتّى المعنويّ منه يطلق عليه اللفظ؛ فكلمة النور تطلق على الأنوار والمصاديق المادّيّة وعلى الأنوار والمصاديق المعنويّة كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]. وعليه يكون معنى التذوّق صحيحًا سواء أكان المتذوِّق والمتذوَّق مادّيًّا أم مجرّدًا؛ وهذا يعني أنّ إطلاق عبارة الذوق في الآية الكريمة حقيقة وليس مجازًا، والإنسان متذوّق بالحقيقة وليس بالمجاز والموت يتذوّق حقيقة وليس بالمجاز.

توّهم شبهة

قد تطرح شبهة في هذا الخصوص وهي أنّ آية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تدلّ على أنّ كلّ موجود صاحب روح يتذوّق الموت، ومن جهة أخرى فقد استثنت بعض الآيات الشريفة «وجه الله» كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2]. كذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[3].

الجواب إنّ القانون العام والموت العموميّ مرتبط بعالم التكليف؛ فما دام الإنسان في هذا العالم فهو يتذوّق الموت ويزيل الموت والتحوّل؛ إذًا لا علاقة لذلك بعالم الآخرة ونفخة الصور، إلّا أنّ الآيتين الأخيرتين تخبران عن دائرة أكثر اتّساعًا؛ أي عن الفناء العام باستثناء وجه الله والأشخاص المستثنون منه. وبالتالي فإنّ «وجه الله» باقٍ، وهو خارج عن شمول آية الفناء العامّ، كما أنّه توجد مجموعة من المدهوشين بالصوّر مستثنون أيضًا، وهم مجموعة أولياء الله الخاصّين.

---

١. النور: ٣٥.

٢. الرحمن: ٢٦ و٢٧.

٣. الزمر: ٦٨.

بقاء وجه الله

أشرنا إلى استثناء وجه الله من الآية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[١] ويبقى وجه الله تعالى. وتبيّن الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٢] هلاك الجميع إلّا وجه الله، وليس المقصود من «الهالك والفاني» أنّ كلّ شيء أو جميع الأفراد على الأرض سيهلكون ويفنون في المستقبل ويوم القيامة؛ لأنّ استعمال المشتقّ (هالك، فانٍ، يهلك، يفنى...) مجاز فيما سيتحقّق لاحقًا، ولا اختلاف في ذلك، ولكن محلّ الخلاف هو في «ما انقضى عنه المبدأ» هل هو حقيقة أم مجاز؛ مثال ذلك في الشخص الذي كان طبيبًا في الماضي ونسي الطبّ الآن، وهو ليس بطبيب فعلاً، فهل إطلاق لفظ الطبيب على هذا الشخص هو من باب الحقيقة أم المجاز؟ نعم، استعمال المشتقّ فيما سيتحقّق لاحقًا مجاز من دون شكّ.

إذًا يكون المعنى الحقيقيّ للآيات المتقدّمة أنّ كلّ ما هو على الأرض فانٍ وهالك الآن، وليس أنّه سيفنى ويهلك في المستقبل، وقولنا «كلّ شيء يهلك ويفنى» لا يعني أنّ كلّ شيء سيفنى ويهلك في المستقبل. فقد يعطي الإنسان الأمور الدنيويّة الاعتباريّة شكل الحقيقة من باب الخطأ، فيظنّ الاعتباريّ حقيقيًا؛ ويظن أنّ السراب ماء.

نعم، الثابت والباقي هو «وجه الله»، وقد أشارت الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٣] إلى دائرة شمول وجه الله؛ فإلى أيّ شيء نظرتم ستشاهدون فيه بُعدًا هو غير وجه الله وهو الذي يفنى ويهلك، وسيكون فيه بعدًا آخر هو وجه الله، وهو الثابت الذي لا يتغيّر. إنّ وجه الله ظاهر في أنحاء الوجود؛ فقد يكون في إطعام اليتيم جانب من وجه الله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[٤] وتارة تشتمل الزكاة على جانب من وجه الله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾[٥].

---

١. الرحمن: ٢٦.

٢. القصص: ٨٨.

٣. البقرة: ١١٥.

٤. الإنسان: ٩.

٥. الروم: ٣٩.

بناءً على ما تقدّم فإنّ جميع أعمالنا قد يكون فيها جانب من وجه الله؛ أمثال: الصلاة، الصيام، الإطعام، التعليم، التربية، والحركات العباديّة. وقد ذكر الله تعالى صفة «ذو الجلال والإكرام» لوجه الله واعتبرها مكرمة وعزيزة؛ أي أنّ وجه الله تعالى أجّل من أن يموت؛ على الرغم من أنّ عزرائيل سيموت في القيامة والموت يموت فيها أيضًا: «فيؤتى بالموت على صورة كبش أملح... فيذبح»[1]، إلاّ أنّ وجه الله أبديّ ودائم ولا طريق للفناء والهلاك إلى ساحته المقدّسة.

يُشار إلى أنّ الأنبياء وأئمة الدين عليهم السلام هم النموذج الأتم لوجه الله؛ وهذا ما صرّحت به العديد من الروايات كما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام: «نحن وجه الله نتقلّب في الأرض بين أظهركم ـ ونحن عين الله في خلقه ويده المبسوطة بالرحمة على عباده»[2] وعليه، فإنّ وجه الله الذي هو أمر الله تعالى حيّ دائمًا والأئمة الطاهرون هم محلّ تجلّي هذا الأمر.

حضور الموت

ينبغي على الإنسان من وجهة نظر القرآن الكريم وأحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الاستعداد دائمًا لحضور الموت واستقباله والتهيّؤ لملاقاته، وأن يوصي لما بعد الموت. يبدو من ظاهر القرآن أن الوصيّة حكم إلزاميّ، ولكن الوصيّة واجبة عند وجود حقّ لله أو حقّ للخلق على عاتق الشخص، وإلاّ فهي ليست واجبة، والإجماع قائم على أنّها مستحبّة: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[3].

وأوصى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام بالوصية، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ينبغي للمؤمن أن يوصي. ما ينبغي لأمرء مسلم أن يبيت ليلة إلّا ووصيّته تحت رأسه»[4]،

وأصرّ الرسول على هذا المعنى وأكّد أن من يموت من دون وصيّة فقد مات ميتة

---

١. *بحار الأنوار*، ج٨، ص٣٤٦، باب ذبح الموت؛ النهاية، ابن الأثير، ج٤، ص٣٥٤.

٢. *أصول الكافي*، ج١، ص١٤٣، باب النوادر.

٣. البقرة: ١٨٠.

٤. *وسائل الشيعة*، ج٢٠، ص١٧١، كتاب الوصايا.

جاهليّة: «من مات بغير وصيّة مات ميتة جاهليّة»[١].

أكّد الإمام الصادقعليه السلام على أنّ الوصيّة من الأحكام الثابتة والمفروضة على المسلمين: «هي حقّ على كلّ مسلم»[٢]؛ لذلك من المناسب أن يوصي المسلم سواء أكان شيخًا أم شابًا، وقد تكفّل الفقه توضيح مورد وجوب الوصيّة وموارد استحبابها، حيث أشرنا إلى شيء من ذلك مسبقًا بالأخص وأنّ الموت من دون وصيّة عند الوجوب يعتبر موتًا جاهليًّا.

يمكن تصوّر عدّة معاني لحضور الموت:

١. أن تظهر علامات الموت على الإنسان المحتضر، ومن أحكام الاحتضار الفقهيّة الأعم من الواجب والمستحب توجيه المحتضر إلى القبلة، قراءة أدعية خاصّة و...

ليست الوصيّة في هذا الحال هي المقصودة من الآية الشريفة؛ لأنّ ظهور علامات الموت على المحتضر تعني سلب الإرادة والاختيار منه، وبالتالي لن تكون الوصيّة نافذة ولا يترتّب عليها أثر شرعيّ؛ والسبب في ذلك أنّه في هذا الحال تقطع علاقته بعالم الطبيعة أو تكون قريبة من القطع، وينتقل للاتّصال والانتقال بعالم البرزخ. في هذا الحال يتمثّل له الملائكة والأولياء، وتتوقّف قواه الطبيعيّة أو تكون في طريق التوقّف، ولا يصدر عنه العمل الحسن أو القبيح؛ لأنّه في حدود الخروج من دائرة التكليف، حتّى إذا طلب إرجاعه ليعمل حسنًا يأتيه الجواب: ﴿كَلَّا﴾[٣]. الخلاصة أنّ هذا الشخص يفقد اختياره في العقل والإرادة والترك ويتولّى المحيطون به تكليف توجيهه إلى القبلة.

٢. اليأس من حياة الدنيا والدخول في مرحلة الموت؛ كالإنسان الذي يعيش حالة الغرق أو الذي يتعرّض لحادث أو سقوط، أو الذي تحاصره النيران، أو الذي يواجه عدوًّا يسفك الدماء، أو الذي وُضع أمام الإعدام. مثال ذلك فرعون عندما شاهد الموت بأمّ

---

١. م.ن، ج١٩، ص٢٥٩.

٢. م.ن، ج٢، ص٤٤٦.

٣. المؤمنون: ١٠٠.

عينه وأدرك غرقه وأحاط به الماء في البحر: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]. في هذا الحال من حضور الموت لا يكون الوقت مخصَّصًا للوصيّة، ويكون الإيمان غير مقبول.

٣. عندما يصل الإنسان إلى مرحلة الشيخوخة يقولون: أصبح موته قريبًا؛ لأنّ الجزء الأكبر من عمره قد انقضى واقترب من الموت.

تحدّث الحكماء والعقلاء حول هذا المقطع من العمر واعتبروه زمان الوصيّة، الذكاء، اليقظة والاستعداد لبناء الذات، تقديم النصح، تقديم الحكم، وزمان التوبة والعودة السريعة إلى الله تعالى؛ مع أنّه يظهر من بعض الأدلّة النقليّة أنّ الفاصل بين التوبة وارتكاب المعصية ينبغي أن لا يكون طويلاً: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾[2]، إلّا أنّ إطلاق بعض الأدلّة الأخرى وسعة رحمة الله، وأسبقيّة رحمة الله غضبه، والتشجيع على الرجاء والتحذير من اليأس والترهيب من الخوف الزائد، كلّها شواهد على قبول التوبة في مرحلة الهرم.

كيفيّة موت المؤمنين والكافرين

أشرنا إلى أنّ الموت عبارة عن تجرّع عصارة الحياة، فتكون للمؤمنين عذبة، لذيذة، داعية للنشاط، وللكافرين مؤلمة ومؤسفة وحزينة؛ أمّا قصّة موت المؤمنين، فتكون على هذه الشاكلة: عند موتهم تتنزل ملائكة الله ويتمثّل لهم الرسول والأئمة المعصومون عليهم السلام، ويقولون لهم: نحن أصدقاؤكم في الدنيا والآخرة، فلا تخافوا ولا تحزنوا، ويبشّرونهم بالجنّة حيث فيها ما يشتهون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[3]. يعتقد العديد من المفسّرين أنّ هذه الأمور

---

١. يونس: ٩٠ و٩١.

٢. النساء: ١٧.

٣. فصلت: ٣٠ و٣١.

تحصل عند الموت. وخاصّة وأنّ الملائكة تحدّثهم بأنّنا أصدقاؤكم في الدنيا والآخرة، حيث يدلّ هذا التعبير على أنّ كلامهم يجري عند الاحتضار. أمّا عند موت الكافرين، فتكون شربة الموت صعبة، نتنة، مرّة، وتستقبلهم ملائكة العذاب يحملون هراوات من نار.

ولتوضيح الصورتين نذكر عدّة نماذج من الأخبار:

١. سئل رسول الله ﷺ: «كيف يتولّى ملك الموت المؤمن؟ فقال: إنّ ملك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد الذليل من المولى، فيقوم وأصحابه لا يدنون منه حتى يبدأه بالتسليم ويبشّره بالجنة»[1].

٢. عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

> «إذا حيل بينه وبين الكلام أتاه رسول الله ﷺ ومن شاء الله، فجلس رسول الله ﷺ عن يمينه، والآخر عن يساره، فيقول له رسول الله ﷺ: أما ما كنت ترجو فهو ذا أمامك، وأما ما كنت تخاف منه فقد أمنت منه، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول: هذا منزلك في الجنة فإن شئت رددناك إلى الدنيا ولك فيها ذهب وفضّة، فيقول: لا حاجة في الدنيا...»[2].

ثمّ يسأل سدير الصيرفي في إكمال الحديث: جعلت فداك فأين ضغطة القبر؟ فقال: «هيهات ما على المؤمنين منها شيء».

٣. عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ما يموت موالٍ لنا مبغض لأعدائنا إلّا ويحضره رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والحسن والحسين صلوات الله عليهم فيرونه ويبشّرونه، وإن كان غير موالٍ لنا يراهم بحيث يسؤوه، والدليل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام لحارث الهمدانيّ:

يا حارث همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلا[3]

٤. عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

---

١. *من لا يحضره الفقيه*، ج١، ص١٣٥.

٢. م.ن، ج٦، ص١٩٦.

٣. *بحار الأنوار*، ج٦، ص١٧٩.

«ما من قبر إلّا وهو ينطق كلّ يوم ثلاث مرات: أنا بيت التراب، أنا بيت البلى، أنا بيت الدود، قال: فإذا دخله عبد مؤمن قال: مرحبًا وأهلًا، أما والله لقد كنت أحبّك وأنت تمشي على ظهري فيكف إذا دخلت بطني؟! فسترى ذلك! قال: فيفسح له مدّ البصر ويفتح له باب يرى مقعده من الجنة، قال: ويخرج من ذلك رجل لم تر عيناه شيئًا أحسن منه فيقول: يا عبد الله ما رأيت شيئًا قط أحسن منك، فيقول: أنا رأيُك الحسنُ الذي كنتَ عليه، وعملك الصالح الذي كنت تعمله، قال: ثمّ تؤخذ روحه فتوضع في الجنّة حيث رأى منزله، ثمّ يُقال له: نمْ قرير العين، فلا تزال نفحة من الجنة تصيب جسده، يجد لذّتها وطيبها حتى يُبعث، قال: وإذا دخل الكافر قالت: لا مرحبًا بك ولا أهلًا، أما والله لقد كنت أبغضك وأنت تمشي على ظهري، فكيف إذا دخلت بطني؟ سترى ذلك، فتضمّ عليه فتجعله رميمًا ويُعاد كما كان، ويفتح له باب إلى النار فيرى مقعده من النار، ثمّ قال: ثمّ إنه يخرج منه رجل أقبح مَن رأى قطّ قال: فيقول: يا عبد الله من أنت؟ ما رأيت شيئًا أقبحَ منك! قال: فيقول: أنا عملك السيّئ الذي كنت تعمله، ورأيُك الخبيث، قال: ثمّ تُؤخذ روحه فتوضع حيث يرى مقعده من النار، ثمّ لم تزل نفحة من النار تصيب جسده فيجد ألمها وحرّها إلى يوم البعث، ويسلّط على روحه تسعة وتسعون تنّينًا تنهشه ليس فيها تنّين تنفخ على ظهر الأرض فتنبت شيئًا»[١].

٥. عن حبيب بن عمرو قال:

دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام في مرضه الذي قُبض فيه، فحلّ عن جراحته، فقلت: يا أمير المؤمنين ما جرحك هذا بشيء وما بك من بأس، فقال لي: يا حبيب أنا والله مفارقكم الساعة، قال: فبكيت عند ذلك وبكت أمّ كلثوم وكانت قاعدة عنده، فقال لها: ما يبكيك يا بنيّة؟ فقالت: ذكرت يا أبه أنّك تفارقنا الساعة فبكيت، فقال لها: يا بنيّة لا تبكين، فوالله لو ترين ما يرى أبوك ما بكيت قال

١. *فروع الكافي*، ج٣، *كتاب الجنائز*، *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٦٦.

حبيب: فقلت له: وما الذي ترى يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا حبيب أرى ملائكة السماء والنبيّين بعضهم في أثر بعض وقوفًا إلى أن يتلقّوني، وهذا أخي محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله جالس عندي يقول: أقدم فإنّ أمامك خير لك ممّا أنت فيه، قال: فما خرجت من عنده حتى توفّي عليه السلام[1].

٦. عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه قال: «إنّما أبكي لخصلتين: لهول المطلع وفراق الأحبّة»[2].

سلوك الملائكة عند الموت

أشارت الآيات القرآنيّة الشريفة وببيان جميل إلى كيفيّة تعاطي الملائكة مع المؤمنين والكافرين عند الموت. جاء في الآية الشريفة حول المؤمنين: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[3] وقد أشار الأستاذ العلامة الطباطبائي في تفسير الآية إلى نقاط ثلاث:

١. الطيّب والمنزّه من الظلم

٢. السلامة والأمن

٣. الإرشاد إلى الجنّة[4] وهي التي أشارت إليها الآية الشريفة المتقدّمة الذكر.

وأشارت آية أخرى إلى قضيّة الأمن والهداية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[5].

أمّا الآيات التي أشارت إلى الكافرين والذين رغبوا عن الدين أساسًا، والذين ماتوا وهم كفار: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ**

---

١. *بحار الأنوار*، ج٤٢، ص٢٠١.

٢. *بحار الأنوار*، ج٦، ص١٥٩.

٣. النحل: ٣٢.

٤. *الميزان*، ج١٢، ص٢٣٦.

٥. الأنعام: ٨٢.

الْحَرِيقِ﴾[١]، تتحدّث الآيات الشريفة عن الذين أداروا ظهورهم لدين الله ونسوه، وغفلوا عن أحكام الله، واتّخذوا النفاق مسلكًا، فهؤلاء سيواجهون أوضاعًا صعبة للغاية عندما تأتيهم ملائكة العذاب لتقبض أرواحهم ولتضربهم بسياط القوّة والقهر: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾[٢]؛ وذلك لأنّهم اتبعوا ما يغضب الله تعالى وأحجموا عن ما يرضيه فأبطل أعمالهم.

جاء في بعض الروايات أنّ من جملة من استوجب عملهم العذاب الأليم بنو أميّة الذين كرهوا عليًّا، وكان أمر الله بولايته يوم بدر ويوم حنين وببطن نخلة ويوم التروية ويوم عرفة[٣].

قدّم المرحوم الشاه آبادي تبريرًا يعتمد على أنّ الملائكة مجموعتان: مجموعةُ متصدّي أمر الآخرة، ومجموعة مدبّري أمور الدنيا. عندما يشاهد ملائكة الدنيا أنّ عمر الشخص قد انتهى في الغفلة ولم يأتِ بعمل صالح، يضربون ظهره ويعذّبونه ويخرجونه من الدنيا، ثمّ تودّعه ملائكة البرزخ، وعندما يشاهده ملائكة الآخرة خالي الوفاض يضربون وجهه[٤].

وكذلك الأمر بالنسبة إلى المتكبرين الذين لا يرجون لقاء الله، والذين يعتقدون أنّ الملائكة يجب أن تتنزل عليهم ويتوقّعون مشاهدة الله تعالى و...: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾، وعندما يشاهد الملائكةَ لا يحصلون منهم على البشرى، بل تخاطبهم الملائكة بحرمانهم من رحمة الله: ﴿**يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا**﴾[٥].

تشكّل المادّة والمادّيّة أساس البناء الفكريّ والعمليّ لهذه المجموعة من حيث

---

١. الأنفال: ٥٠.

٢. محمّد: ٢٧.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٣.

٤. *شذرات المعارف*، ص٦٤.

٥. الفرقان: ٢٢.

الرؤية الكونيّة، ويشكل الاتّجاه الحسّيّ أساسهم من ناحية المعرفة؛ لأنّهم يتوقّعون رؤية الله تعالى. هؤلاء أشبه ما يكونون ببني إسرائيل الذين خاطبوا النبيّ موسى عليه السلام: ﴿**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ**﴾[١].

من جملة المجموعات الأخرى، الذين كانوا عند الموت ظالمين لأنفسهم، فكانوا يقولون: نحن متأخّرون ثقافيًّا، عاجزون، مستضعفون ونعيش في أجواء مكدّرة ومزعجة، هنا تخاطبهم الملائكة: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها وتنتقلوا من أرض الكفر والجهل إلى وادي الإيمان وقرى التقوى والعلم؟ وهذا يعني أنّ عذرهم غير مقبول. ومكانهم جهنّم وساءت مكانًا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا**﴾[٢].

وتواجه مجموعة أخرى سلوكًا قاسيًا عند الموت، وهم الذين يفترون على الله الكذب، ويتّخذون لأنفسهم مراتب لا تليق بهم، ولا يتواضعون لكلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾[٣].

وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ ظالمي آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جزاؤهم العطش يوم القيامة والذلّة»[٤].

على كل حال، فإنّ الموت ومواجهة الملائكة المأمورين بالموت والقبر والبرزخ والسؤال والجواب صعب للغاية كثير المصاعب معقّد الأحداث؛ لذلك عبّر القرآن الكريم عن ذلك بأنّه «الطامة الكبرى»، وهذا يعني أنّ أحداث ذاك اليوم صعبة ومعقّدة:

---

١. البقرة: ٥٥.

٢. النساء: ٩٧ و٩٨.

٣. الأنعام: ٩٣.

٤. *نور الثقلين*، ج١، ص٧٤٦.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[١]. وعلى هذا الأساس ترتكز قضيّة تلقين الميت؛ إنّ صعوبة الاحتضار عند بعض الأشخاص تترك تأثيرها إلى حدود بعيدة، فينسى مسائل المذهب الأوّليّة كربوبيّة الله ورسالة النبيّ محمّدﷺ والقبلة والكتاب؛ خصوصًا إذا لم تستقر معارف الدين في أرواحهم؛ لذلك يسكت عندما يُسأل: ما هو كتابك، فهو كمن تعرّض لسكتة دماغيّة، حيث يفقد حافظته وينسى كلّ شيء، فعندما يتعرّض الشخص لحادث بسيط كالسكتة الدماغيّة أو الحصبة، يفقد كلّ معلوماته، فكيف الحال عند الحادثة الأكبر أي الموت؟! فمن المؤكّد أنّه سينسى أولى المسائل الدينيّة وأكثرها بداهة، لذلك يجري تلقين الميت وتذكيره بها.

قال رسول اللهﷺ: لما أسري بي إلى السماء رأيت ملكًا من الملائكة بيده لوح من نور لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، مقبلاً عليه، ثبّه كهيئة الحزين، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟! فقال: هذا ملك الموت، مشغول في قبض الأرواح، فقلت: ادنني منه يا جبرئيل لأكلّمه، فأدناني منه فقلت له: يا ملك الموت أكلّ من مات أو هو ميّت فيما بعد أنت تقبض روحه؟ قال: نعم، قلت: وتحضرهم بنفسك؟ قال: نعم، ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّرها الله لي ومكّنني منها إلّا كدرهمٍ في كفّ الرجل يقلّبه كيف يشاء، وما من دار في الدنيا إلّا وأدخلها في كلّ يوم خمس مرّات، وأقول إذا بكى أهل البيت على ميّتهم: لا تبكوا عليه فإنّ لي إليكم عودة وعودة حتى لا يبقى منكم أحد، قال رسول الله: كفى بالموت طامة يا جبرئيل! فقال جبرئيل: ما بعد الموت أطم وأعظم من الموت[٢].

يشار إلى أنّ الأخبار الدالّة على تمثّل الرسولﷺ والأئمة الطاهرينعليهم السلام وحضورهم، وكذلك الصلاة، الزكاة كثيرة حيث يمكن ادّعاء التواتر فيها.

بيان وتفسير العلّامة المجلسي

يقول العلّامة المجلسي:

«اعلم أنّ حضور النبيّﷺ والأئمة صلوات الله عليهم عند الموت ممّا قد ورد به

---

١. النازعات: ٣٤.

٢. *بحار الأنوار*، ج٦، ص١٤١.

الأخبار المستفيضة، وقد اشتهر بين الشيعة غاية الاشتهار، وإنكار مثل ذلك لمحض استبعاد الأوهام ليس من طريقة الأخبار، وأمّا نحو حضورهم وكيفيّته فلا يلزم الفحص عنه، بل يكفي فيه وفي أمثاله الإيمان به ما صدر عنهم عليهم السلام... :

الأوّل، أنّ الله تعالى قادر على أن يحجبهم عن أبصارنا لضرب من المصلحة، كما ورد في أخبار الخاصّة والعامّة في تفسير قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ أنّ الله تعالى أخفى شخص النبيّ صلى الله عليه وآله عن أعدائه مع أنّ أولياءه كانوا يرونه، وإنكار أمثال ذلك يفضي إلى إنكار أكثر معجزات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وقد مرّ فيما نقلنا من تفسير العسكريّ عليه السلام التصريح بهذا الوجه.

الثاني: أنّه يمكن أن يكون حضورهم بجسد مثاليّ لطيف لا يراه غير المحتضر، كحضور ملك الموت وأعوانه، وسيأتي الأخبار في سائر الموتى أنّ أرواحهم في البرزخ تتعلّق بأجساد مثاليّة، وأمّا الحيّ من الأئمة عليهم السلام، فلا يبعد تصرّف روحه لقوّتها في جسد مثاليّ أيضًا.

الثالث: أنّه يمكن أن يخلق الله تعالى لكلٍّ منهم مثالاً بصورته، وهذه الوجودات المثاليّة تكلّم الموتى وتبشّرهم من قِبلهم عليهم السلام، كما ورد في بعض الأخبار بلفظ التمثيل.

الرابع: أنّه يمكن أن يرتسم صورهم في الحسّ المشترك، بحيث يشاهدهم المحتضر ويتكلّم معهم.

الخامس: ما ذكره السيّد المرتضى رضي الله عنه، وهو أنّ المعنى أنّه يعلم في تلك الحال ثمرة ولايتهم وانحرافه عنهم؛ لأنّ المحبّ لهم يرى في تلك الحال ما يدلّه على أنّه من أهل الجنّة، وكذا المبغض لهم يرى ما يدلّه على أنّه من أهل النار، فيكون حضورهم وتكلّمهم استعارة تمثيليّة، ولا يخفى أنّ الوجهين الأخيرين بعيدان عن سياق الأخبار، بل مثل هذه التأويلات ردّ للأخبار، وطعن في الآثار. وأمّا الجواب عن الوجه الثاني فبأنّه إنّما تتمّ الشبهة إذا ثبت وقوع هذا الاتفاق، ومحض الإمكان لا يكفي في ذلك، مع أنّه إذا قلنا إنّ

حضورهم في الأجساد المثاليّة يعني أنّه يمكن أن يكون لهم أجساد مثاليّة كثيرة لما جعل الله لهم من القدرة الكاملة التي بها امتازوا عن سائر البشر، وفي الوجوه الثلاثة الأخيرة على تقدير صحّتها اندفاع هذا الإيراد ظاهر، والأحوط والأولى في أمثال تلك المتشابهات الإيمان بها، وعدم التعرّض لخصوصيّاتها وتفاصيلها، وإحالة علمها إلى العالمعليه‌السلام كما مر في الأخبار التي أوردناها في باب التسليم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[١].

من الممكن أن يكون ثمّة مجال آخر لتحليل وتبيين معنى البرزخ وحضور البعض والتمثّل وكيفيّة الانتقال من الدنيا إلى البرزخ.

عدم قبول التوبة عند الموت

يعتقد الشيخ الطوسيّرحمه‌الله أنّ التوبة إذا حصلت عند الموت أو عند مشاهدة آثاره، فهي غير مقبولة؛ فالله تعالى يقول: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾[٢].

في الجواب يجب القول إنّ الآية الشريفة تتعلّق بالعذاب في الدنيا والإيمان والتوبة يقبلان الاستثناء عند رؤية العذاب الدنيويّ، فقد يكون ذلك نافعًا ومفيدًا؛ كما حدث لقوم النبيّ يونسعليه‌السلام، حيث رفع الله عنهم العذاب الدنيويّ: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾[٣]. وعلى هذا الأساس، فإنّ سنّة الله جرت على أن لا تُقبل توبة المجموعة التي نزل بها العذاب، وأنّ الإيمان عند مشاهدة العذاب لا يؤتي ثماره؛ إلّا أنّ ثمّة بعض الاستثناءات كما أشرنا.

والكلام في العذاب الأخرويّ المتعلّق بالاحتضار والبرزخ والقيامة، حيث لا تؤتي التوبة حينها النتيجة المطلوبة، ولا وجود للاستثناء. من جملة النماذج التي يمكن ذكرها

١. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٠٠.

٢. غافر: ٨٤ و٨٥؛ *تفسير التبيان*، ج٩، ص١٠٢.

٣. يونس: ٩٨.

هنا ما يتعلّق بأهل جهنّم، حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١]؛ كما أنّ الله تعالى لا يقبل إنفاق المنافقين، لأنّهم اعتادوا على نفاقهم وفسقهم ولن يتخلّوا عنه، لذلك جاء في الآية الشريفة: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[٢]. لذلك فطريق العودة عن المعصية ليس مشرعًا عند مشاهدة العذاب الأخرويّ، والتوبة لا تُقْبل.

قبض الروح

إنّ قبض روح المؤمن أمر سهل للغاية ومريح جدًّا، وبناءً على بعض الروايات، فإنّ ذلك شبيه باستشمام عطر وردة، حيث يشاهد نفسه فجأة في حدائق الجنّة[٣]. ولكن قبض روح المنافق والكافر صعب للغاية وثقيل؛ كما لو أرادوا قلع ضرس إنسان من دون تخدير أو قطع إصبعه من دونه أيضًا، أو كما لو أراد الطبيب إجراء عمليّة في القلب من دون تخدير، أو سحب ظفر من اللحم، فقبض روح الكافر والمنافق أصعب من هذه الأمور بمراتب عديدة، من هنا فإنّهم يستسلمون بسرعة للعذاب والآلم وللملائكة الموكلين بذلك، ويقولون: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٤].

جاء في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذيل الآية الشريفة يقول:

> «فمن كان من أهل الطاعة تولّت قبض روحه ملائكة الرحمة، ومن كان من أهل المعصية تولّت قبض روحه ملائكة النقمة، ولملك الموت أعوان من ملائكة الرحمة والنقمة»[٥].

على كل حال، عندما تستولي حالة الدهشة والخوف على الظالمين يشاهدون أنفسهم أمام حدث عظيم كالزلزال، فينسون كلّ وجودهم، ثمّ يلتفتون إلى أنّهم ماتوا.

---

١. الأنعام: ٢٨.
٢. التوبة: ٥٣.
٣. *أصول الكافي*، ج١، ص٣٥.
٤. النحل: ٢٨ و٢٩.
٥. *نور الثقلين*، ج٣، ص٥٠.

يدركون احتراقهم وتتضح حقيقة الأمر لهم. جاء في القرآن الكريم في هذا السياق: ﴿**بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾[١].

من جملة حِكَم تلقين الميت أنّهم يذكّرونه بالأهوال العظيمة وأوّليات الدين، ولا شكّ أن هذا التلقين يترك أثره، مع العلم أنّه غير مفيد للكافر والمنافق.

إذا ادّعى الظالمون أنّنا كنّا مستضعفين في الأرض لا نميّز بين الحسن والقبيح ولا نفهمهما، تجيبهم الملائكة: لماذا لم تهاجروا أرض الكفر والعصيان والنفاق، ألم تكن أرض الله واسعة؟، ﴿**قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾[٢].

السؤال، ضغط القبر وعذابه

يقول الرسول الأكرمﷺ: «القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفرة النيران»[٣]. وكانﷺ يردّد عقب كلّ صلاة: «أعوذ بك من عذاب القبر»[٤]. ويقول المفسّرون إنّ المقصود من ﴿**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾[٥] هو عذاب القبر؛ باعتبار أنّه واحد من أبرز مصاديقه.

عن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«إنّ سعدًا لما مات شيّعه سبعون ألف ملك، فقام الرسولﷺ على قبره فقال: ومثل سعد يضم...»[٦].

تشير بعض الروايات إلى سرّ ضغطة القبر معتبرة أنّها نتيجة سوء معاملة العائلة؛ وهذا الذي أشار إليه الرسولﷺ حول ضغط قبر سعد، وأشارت روايات أخرى إلى أنّ ضغط القبر كفّارة تضييع النعم: «قال رسول اللهﷺ ضغطة القبر للمؤمن كفّارة لما كان منه من

---

١. الأنبياء: ٤٠.

٢. النساء: ٩٧.

٣. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٠٥.

٤. م.ن، ص٢١٤؛ ٢٥٠.

٥. طه: ١٢٤.

٦. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢.

تضييع النعم»[١]، وفي روايات أخرى أنّ سبب عذاب القبر النميمة[٢]. وجاء في بعض الروايات حول الكافرين:

«إنّ العبد إذا أُدخل قبره أتاه منكر، ففزع منه يسأل عن النبيّ ﷺ فيقول له: ما تقول في هذا الرجل الذي كان بين أظهركم؟... وإذا كان كافرًا قال: ما أدري، فيُضرب ضربة يسمعها كلّ من خلق الله... وسلّط عليه الشيطان... ويسلّط عليه الحيّات والعقارب ويُظْلِم عليه قبرَه، ثمّ يضغطه ضغطة يختلف أضلاعه عليه»[٣].

يوضح بعض العلماء أنّ سؤال القبر هو للأشخاص الذين كان إيمانهم محضًا أو كفرهم محضًا. ولا يتعلّق السؤال بسائر الناس، فيُتركون لحالهم، وقد تمسّك أصحاب هذا الرأي بمجموعة من الأحاديث من جملتها ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا يُسأل في القبر إلّا من مُحض الإيمان محضًا أو مُحض الكافر محضًا. فقلت له: فسائر الناس؟ فقال يُلهى عنهم»[٤]، وجاء في رواية أخرى عبارة: «ما يعبأ بهم»[٥]، والقول الحق هو ما يستفاد من الروايات التي تبيّن، أنّ جميع أنّ الناس يشملهم السؤال والجواب؛ على رغم وجود شدّة وضعف في ذلك، فبعض الناس يكون سؤالهم أقلّ من الآخرين.

كلام الفيض الكاشاني

يوضح بعض المتكلّمين أنّ البدن المادّيّ للإنسان هو الذي يتكلّم في القبر، وهو الذي تقع عليه الضغطة أو العذاب، ولكن ثمّة استنتاج خاصّ لآخرين يختلفون معهم في هذه النقطة، ونشير هنا إلى رأي الفيض الكاشاني في توضيحه سؤال القبر وضغطه، يقول:

«قال بعض العلماء: والذي يوضح لك كيفيّة ضغطة القبر ـ وإن كان جسد الميت ساكنًا أو كان في الهواء أو الماء ـ أنّ من كان في ضيق شديد أو تفرق اتّصال

---

١. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٢١ وما بعدها.

٢. م.ن، ص٢٢٢ و ٢٧٩.

٣. م.ن، ص٢٢٤.

٤. م.ن، ص٢٣٥.

٥. م.ن، ص٢٦٢.

بالنار وغيرها، أو وقع بين حجرين عظيمين: فإنّ الذي يؤلمه ويؤثّر في نفسه بالذات ليس هذه الأمور الواقعة على بدنه، بل صورتها الواصلة إلى نفسه لعلاقة لها مع البدن، حتّى أنّه لو فرض حصول تلك الصور إلى النفس من سبيل آخر، لا من جهة هذه الأسباب المادّيّة، لكان التأثير بحالها ما دامت النفس ذات علاقة بهذا البدن سواء كان البدن بعينه باقيًا أم لا. فضغطة القبر وعذابه من هذا القبيل الذي ذكرناه، وكذلك ثوابه وراحته، فسحة القبر وضيقه تابعان لانشراح الصدر وضيقه»[١].

يجب الالتفات إلى أنّ مسألة عذاب القبر وكيفيّته من المسائل النظريّة المعقدة وفيها آراء متعدّدة ذكر فيها المحقّقون احتمالات مختلفة.

ليس المهم أن يعلم الإنسان أيّ بدن يُسأل، فلا ثمرة عمليّة وعلميّة في ذلك، بل المهمّ أن يفكّر الإنسان بالنجاة. إنّ البحث عن البدن المذكور من نوع العطش الكاذب الذي ليس له ثمرة. والأهم أن يحفظ الإنسان نفسه من سهام الشيطان المهلكة، وأن يبقى بعيدًا عن ساحات هجومه. إنّ أدعية الأئمةعليهم السلام كلّها في مقام دفع البلاء وليس في مقام رفعها؛ فهم كانوا يبكون ويتأوّهون لدفع العيب والنقص، لا ليبتلوا بها ثم يسعون لرفعها.

عذاب القبر

أشرنا بشكل مجمل إلى عذاب القبر والكلام التفصيليّ حوله خارج عن سعة هذا البحث، ولكن نظرًا لأهمّيّة هذا البحث في رعاية الأحكام والحقوق، كان لا بدّ من إضافة بعض المطالب.

عند الموت يتمثّل للإنسان ماله وأبناؤه وعمله، فيقول لماله:

«والله، إنيّ كنت عليك حريصًا شحيحًا، فما لي عندك؟ فيقول: خذ منّي كفنك. قال: فيلتفت إلى ولده، فيقول: والله إنيّ كنت لكم محبًّا وإنيّ كنت عليكم محاميًا، فما لي عندكم؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها. قال:

---

١. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٦٨.

فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنيّ كنت فيك لزاهدًا، إن كنت عليّ لثقيلاً، فما لي عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى أُعرض أنا وأنت على ربّك»[١].

وفي بعض الروايات أنّ عمل الإنسان الحسن يتمثّل على صورة شاب جميل، وأمّا عمله السيّئ، فيتمثّل على صورة سيّئة نتنة. وهذا النوع من التمثّلات هو من باب تجسّد الأعمال والأوصاف والاعتقادات[٢].

قال الشيخ المفيد رحمه الله:

«إنّ اسمي الملكين الذين ينزلان على الكافر: ناكر ونكير، واسمي الملكان الذين ينزلان على المؤمن: مبشّر وبشير. قيل: إنّما سمّي ملكا الكافر ناكرًا ونكيراً؛ لأنّه ينكر الحقّ وينكر ما يأتيانه به ويكرهه؛ وسمّي ملكا المؤمن مبشرًا وبشيراً لأنّهما يبشّرانه بالنعم ويبشّرانه من الله بالرضى والثواب المقيم؛ وأن هذين الاسمين ليسا بلقب لهما، وإنّما هو عبارة عن فعلهما»[٣].

يقول الفيض الكاشاني رحمه الله:

«روى العامّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[٤] قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عذاب الكافر في قبره؛ يسلّط عليه تسعة وتسعون تنينًا؛ هل تدرون ما التنين؟: تسعة وتسعون حيّة، لكل حيّة تسعة رؤوس تنهشونه وتلحسون وتنفخون في جسمه إلى يوم القيامة»[٥].

قال بعض العلماء: وليس التخصيص بهذا العدد بعجيب، فلعلّ عددها بقدر الأخلاق المذمومة ـ من الكبر والرياء والحسد والحقد وغيرها ـ ، فإنّما تنشعب وتتنوّع وتنقلب بعينها حيّات في تلك النشأة.

---

١. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٧٠.

٢. م.ن، ص١٠٧٠-١٠٧١.

٣. م.ن، ص١٠٧٣.

٤. طه: ١٢٤.

٥. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٧٤.

يقول الشيخ البهائي رحمه الله:

«لمّا كان لله تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنّة، وله تسعة وتسعون رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة، كما ورد في الحديث: والكافر لم يعرف الله بشيء من تلك الأسماء، جعل له في مقابلة كلّ اسم ورحمة تنين تنهشه في قبره»[1].

ملاحظة: إنّ ذكر الأرقام في المأثور بعيد عن العقل المتعارف، ولا يمكن لأحد تبيينها سوى مصابيح النبوّة والولاية. وأفضل الطرق، قبولها والتسليم بها. والمقصود إنّ أعقل الأساليب وأفضلها هو القبول بها عند ثبوت صحّتها؛ لأنّ البرهان العقليّ لا سبيل له في الأمور الجزئيّة، وهذا يعني أنّه كما لا يمكن قبولها بالبرهان العقليّ، فإنّه لا يمكن رفضها بواسطة البرهان عينه. وليس جديرًا بالإنسان استبعاد ما لا يجد طريقًا له سوى النقل.

نتائج الأعمال في القبر

قال بعض العلماء إنّ كلّ من شاهد بنور البصيرة باطنه في الدنيا، لرآه مشحونًا بأنواع المؤذيات والسباع، مثل الشهوة والغضب، والمكر والحسد، والحقد والكبر، والرياء والعجب، وهي لا تزال تفترسه وتنهشه إنْ سَهَا عنها لحظة، إلّا أنّ أكثر الناس محجوب العين عن مشاهدتها لشغلهم بالأمور الدنيويّة، وبما يرِد عليهم من الخارج من طرق الحواس؛ فإذا انكشف الغطاء ووُضع الإنسان في قبره عاينها، وقد تمثّلت بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها، فيرى بعينه العقارب والحيّات وقد أحدقت به، وإنّما هي ملكاته وصفاته الحاضرة الآن في نفسه ـ وقد انكشفت له صورها الأصليّة، فإنّ لكلّ معنى صورة تناسبه. فهذا عذاب القبر، إن كان شقيًّا، يقابله النعيم فيه إن كان سعيدًا.

وحاصله أنّ عذاب القبر وثوابه هي عين الأمور التي كانت مع الإنسان في الدنيا تلذه وتؤذيه، وهو لا يشعر بذلك لانهماكه في الحسّيّات الفانية، ويؤيّده كثير من الآيات والأخبار: قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

---

١. م.ن، ص١٠٧٥.

نَارًا﴾[1]، وفي الحديث النبويّ: «إنّما هي أعمالكم تُردّ إليكم»[2]، و«الجنّة قيعان وإنّ غراسها سبحان الله وبحمده»[3].

وقال ﷺ لقيس بن عاصم:

«لا بدّ لك ـ يا قيس ـ من قرين يدفن معك، وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت؛ فإن كان كريمًا أكرمك، وإن كان لئيمًا أسلمك. ثمّ لا يحشر إلّا معك ولا تُبعث إلّا معه، ولا تسأل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحًا، فإنّه إن صلح آنست به، وإن فسد لا تستوحش إلّا منه وهو فعلك»[4].

تحدّث صدر المتألّهين ﺗﺪ في ذيل حديث «سماعة بن مهران» المعروف الذي عَدّد فيه جنود العقل والجهل، وأنّه يوجد خمس وسبعون جنديًّا للعقل، ومثلها للجهل، فاعتبر أنّ مثل هذه المعرفة خارجة عن قدرة الفلسفة، ولا يمكن للعقل فهمها، كما أنّهما عاجزان عن فهم مسألة القبر وتسلّط تسع وتسعين حيّة على القبر...[5]

يقول صدر المتألّهين، وهو النموذج البارز للعقل البشريّ في القرون الأربعة الأخيرة، شارحًا الحديث المذكور:

«وتعيين عددها بهذا المبلغ المعيّن ـ أعني الخمسة والسبعين ـ وكذا عدد مقابِلاتها مما لا يُعرف إلّا بنور النبوّة ومشكاة الولاية، فمعرفة حصرها في هذا العدد، وكذا حصر مقابلاتها فيه موكول إلى السماع من أولياء العصمة وأهل بيت النبوّة سلام الله عليهم»[6].

فالعقل لا يتطرّق لهذه الجزئيّات على الإطلاق. وفي المعارف الإسلاميّة فإنّ العقل والوحي يجب أن يتحرّكا دائمًا إلى جانب بعضهما، ففي بعض المعارف

---

١. النساء: ١٠.

٢. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٧٨.

٣. م.ن، ص١٠٧٩.

٤. *بحار الأنوار*، ج٧، ص٢٢٨.

٥. *شرح أصول الكافي*، ج١، ص٤٠٩.

٦. م.ن.

يمكن الاستعانة بالوحي، وفي بعضها الآخر بالعقل، وقد تتم الاستعانة بكليهما في بعض الحالات.

سؤال أهل البرزخ

قيل إنّ ضيوف الإنسان في القبر عقيدته أوصافه وأعماله؛ فإذا أكل الإنسان نارًا وزقّومًا، فهو قد حملها معه إليه، وإذا استقرّ في روضة من رياض الجنّة، فهو الذي زرعها، فالإنسان هو الضيف وهو المضيف وهو الذي يجلس على المائدة التي أعدّها.

يبيّن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه عندما يدخل الإنسان القبر والبرزخ، يسرع إليه البرزخيّون لتهدئته ليعود إلى نفسه، فقد مرّ بأهوال القبر وصعوباته ورهبة السؤال وعذاب الضغطة...، ثمّ يتقدّمون إليه يسألونه عن أحوال الأصحاب والخلّان. فإذا أجابهم أنّهم ما زالوا في الدنيا يأخذهم الأمل بالتحاقهم بعد الموت، وإذا أخبر أنّهم قد رحلوا، يقولون قد هوى أي أنّه ابتلي بالعذاب الإلهيّ، وإلّا لكان حاضرًا بينهم؛ «إنّ الأرواح لتلتقي في الهواء فتعارف وتساءل. فإذا أقبل روح من الأرض قالوا دعوه، فقد أفلت من هول عظيم، ثمّ سألوه ما فعل فلان وما فعل فلان؛ فكلّما قال قد بقي رجوه أن يلحق بهم، وكلّما قال: قد مات قالوا: هوى هوى وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾ ومثل الدنيا كمثل البحر والملّاح والسفينة»[١].

القبر والبرزخ

وضّحنا المقصود من كلمة القبر سابقًا، أمّا البرزخ فهو الشيء الذي يحول بين أمرين؛ لذلك يطلق البرزخ على العالم الواقع بين الدنيا والآخرة؛ كما جاء في سورتي «الفرقان»، الآية ٥٣ وسورة «الرحمن»، الآية ٢٠؛ حول توضيح الفاصل بين البحرين.

البرزخ والقبر من وجهة نظر القرآن والروايات شيء واحد، فقد يطلق عليه تارة «عالم القبر» وتارة أخرى «عالم البرزخ».

---

١. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٤٩.

أخبر القرآن الكريم عن البرزخ في بعض الآيات، كما في قوله تعالى:

١. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

وجاء في بعض التفاسير أنّ البرزخ هو عين الثواب أو العقاب بين الدنيا والآخرة؛ فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: البرزخ هو القبر، وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة، والدليل على ذلك قول العالم عليه السلام: «والله، ما نخاف عليكم إلاّ البرزخ»[٢].

وضّح الإمام الصادق عليه السلام البرزخ بأنّه الفاصلة الواقعة بين زمان الموت إلى زمان قيام القيامة. وعندما سأله عمر بن يزيد عن البرزخ قال: «القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة»[٣]؛ ويدخل الإنسان البرزخ عند الموت سواء أدفن في التراب أو أحرق بالنار أو أصبح غذاءً للحيوانات المفترسة أو غرق في البحر.

يقول الله تعالى حول عبّاد الأصنام في زمان النبيّ نوح عليه السلام: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[٤]، ولا شكّ أن الكلام هنا مختلف عن الأحكام الفقهيّة من قبيل: وجوب الغسل، الحنوط، والكفن، الصلاة، الدفن وكذلك صلاة ليلة الدفن. فحتّى لو لم يدفن الميت يبقى هناك برزخ وسؤال وجواب؛ لذلك أطلقوا على البرزخ عبارة القيامة الصغرى، فالبرزخ قيام وحياة جديدة وعالم جديد؛ سواء أكان حفرة من حفر جهنّم أم روضة من رياض الجنّة. إذًا البرزخ معبر وممرّ دخول القيامة والحشر الأكبر، ويدخل الإنسان عالم البرزخ استمرارًا لمسيرة الحياة الدنيا، حيث يكون هذا العالم حياةً ووعيًا بأكمله: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[٥].

في البرزخ تُكشف له حقائق عالم الوجود إلى حدود معيّنة، ويصحو من غفلة سنوات طويلة، وينظر بتعجّب إلى نتيجة أعماله؛ سواء أتلاشى جسده أو بقي سالمًا أو احترق أو

---

١. المؤمنون: ٩٩ و١٠٠.

٢. *نور الثقلين*، ج٣، ص٥٥٣.

٣. م.ن، ج٣، ص٥٥٤.

٤. نوح: ٢٥.

٥. *بحار الأنوار*، ج٤، ص٤٢.

أصبح طعامًا للحيوانات؛ أي أنّ إنسانيّة الإنسان التي تشّكل تمام حقيقة الإنسان تدخل عالم البرزخ وسيكون للإنسان بدن في ذاك العالم طبعًا؛ مع العلم أنّ بدن ذاك العالم مناسب لعقيدته وأخلاقه وأعماله من جهة، ومناسب للبرزخ من جهة ثانية.

٢. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[١].

٣. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٢]، وقد اعتبر المفسّرون أنّ هذه الحياة هي الحياة البرزخيّة؛ على الرغم من عدم اختصاصها به.

عن يونس بن ظبيان عن الإمام الصادق‌عليه السلام أنّه قال:

«يا يونس، المؤمن إذا قبضه الله تعالى صيّر روحه في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا»[٣].

٤. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٤].

وقد ورد عن الرسول الأكرم‌صلى الله عليه وآله في ذيل هذه الآية الشريفة قريب من رواية يونس، حيث روي عنه أنّه قال: «رأيته [جعفر بن أبي طالب] وله جناحان يطير بهما مع الملائكة في الجنّة»[٥]. وعليه، فالشهداء لا يموتون ويدخلون الجنّة وهم غير أموات؛ على الرغم من أنّهم ماتوا من ناحية للقوانين الحاكمة على الطبيعة.

٥. ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾[٦] أشار المفسّرون إلى أنّ هذه النار هي كالتي جرى الحديث عنها في الآية الآتية، أي أنّها نار برزخيّة، وقد تحدثنا عنها سابقًا، وهذا النوع من النار موجود حتّى داخل الماء؛ لأنّها على علاقة بالظالمين.

٦. ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[٧].

---

١. غافر: ١١.

٢. البقرة: ١٥٤.

٣. مجمع *البيان*، ج١، ص٤٣٤؛ *نور الثقلين*، ج١، ص١٤٢.

٤. آل عمران: ١٦٩.

٥. مجمع *البيان*، ج٢، ص٨٨٣.

٦. نوح: ٢٥.

٧. غافر: ٤٦.

عن الرسول الأكرمﷺ أنّه قال:

«إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة، وإن كان من أهل النار فمن النار، فيُقال: هذا مقعدك حتّى نبعثك يوم القيامة»[١].

وعن الإمام الصادقعليه السلام في تفسير الآية المتقدّمة: «ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة، حيث لا يكون غدوٌّ وعشيٌّ في النار يوم القيامة»[٢].

٧. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٣].

٨. ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٤]. هذه الآية وما بعدها تدل على الجنّة البرزخيّة.

٩. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾[٥].

١٠. ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٦].

البدن البرزخي

من المناسب بعد إثبات الحياة البرزخيّة الإشارة إلى البدن البرزخي:

١. يقول الإمام الصادقعليه السلام بعد أن يوضح حضور الرسول، علي، فاطمة، الحسن والحسينعليهم السلام عند المحتضر:

«فإذا قبضه الله عزّ وجلّ صَيّر تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون ويشربون، فإذا قدِم عليهم القادم، عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا»[٧].

---

١. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٧٥؛ مجمع *البيان*، ج٨، ص٨١٨.

٢. مجمع *البيان*، ج٨، ص٨١٨.

٣. طه: ١٢٤.

٤. إبراهيم: ٢٧.

٥. الحج: ٥٨.

٦. يس: ٢٦ و٢٧.

٧. *فروع الكافي*، ج٣، ص٢٤٥.

٢. سأل أبو بصير الإمام الصادقعليه السلام عن أرواح المؤمنين وأين تذهب بعد الموت؟ قال: «في روضة كهيئة الأجساد»[١].

٣. سأل أبو ولّاد الحناط الإمام الصادقعليه السلام: أين تستقرّ أرواح المؤمنين بعد الموت؟ قال: «في أبدان كأبدانهم»[٢].

استنتج الشيخ البهائيّ بعد دراسة آيات البرزخ أنّ الروح بعد مفارقتها البدن تتعلّق ببدن شبيه ببدنها العنصريّ؛ وقد ذكر حديثًا عن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام يبيّن فيه أنّ الأرواح في عالم البرزخ تجتمع مجموعات مجموعات حول بعضها على شكل أجسادها...[٣]

يقول العلاّمة المجلسي:

«يمكن أن يكون حضورهم بجسد مثاليّ لطيف»، وأضاف: «...فأمّا عذاب الكافر في قبره ونعيم المؤمنين فيه، فإنّ الخبر أيضًا قد ورد بأنّ الله تعالى يجعل روح المؤمن في قالب مثل قالبه في الدنيا في جنّة من جنّاته ينعّمه فيها إلى يوم الساعة»[٤].

البدن البرزخيّ هو بدن مثاليّ طبعًا، وهو في الوقت عينه بدن الشخص ذاته؛ كما أنّه عين البدن الدنيويّ. ويوجد تفسير وتوضيح لمسألة عينيّة ومثاليّة البدن واجتماعهما في حال واحد، فما لا يدركه صاحب النظر يفهمه صاحب البصر.

العين والأذن البرزخيّتان

يستفاد من الآيات والروايات المتقدّمة أنّ الإنسان عندما يحتضر يشاهد صورة الملائكة والرسول والأئمّةعليهم السلام، ويسمع كلامهم ويحاورهم؛ سواء أكانوا يهدّدونه أم يلاطفونه؛ كما أنّ العين والأذن البرزخيّتان تتفتّحان عند بعض الأفراد في الحياة الدنيا. من هنا يقول المفسّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا**

---

١. *فروع الكافي*، ج٣، ص٢٤٥.

٢. م.ن، ص٢٤٤.

٣. *الأربعين*، ص٢٥١ و ٢٦١.

٤. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٠١ و ٢٧٢.

﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[١]، إنّ تحصيل علم اليقين والعمل بمقتضاه سبب الوصول إلى مقام عين يقين الجنّة والنار في الدنيا. لقي رسول اللهﷺ الحارثة بن مالك ذات صباح، فسأله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقنًا، فعجب رسول الله من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ ثمّ يقول في الجواب:...

«حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربيّ وقد نُصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعمّون في الجنّة ويتعارفون، وعلى الآرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معَّذبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول اللهﷺ لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان»[٢].

يشار إلى أنّ أغلب الناس تُفْتح أعينهم وآذانهم بعد الموت ويشاهدون ويسمعون الكثير من الأسرار الخفيّة، مع العلم أنّ هناك العديد من هذه الأسرار التي تتّضح في البرزخ وتُدرك عند دخول الإنسان ساحة القيامة الكبرى، في ذاك اليوم ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[٣] تشاهد جميع الأسرار عيانًا؛ لذلك اعتبروا البرزخ نوعًا من المرقد؛ كما جاء في سورة «يس» المباركة: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾[٤]؛ ولذلك من جملة فوراق عالم البرزخ أن يكون الفكر والتفكير والبدن في كل عالم بما يناسبه؛ لأنّ موقف البرزخ ليس مرحلة الشهود المحض، فهناك ثبات في ذاك الطريق يتطلّب بدنًا وظروفًا أخرى مناسبة للبرزخ.

ملاحظات

١. كان أصل المعاد والقيامة واضحاً في مرحلة صدر الإسلام على أثر تكرار الآيات الشريفة وكثرة التبيين والتوضيح والتفسير الذي قدّمه رسول اللهﷺ؛ فكان بعض المسلمين يظنّ أنّ الإنسان بعد الموت يفنى بشكل مؤقّت، وكان آخرون يظنّون أنّ الحياة البرزخيّة

---

١. التكاثر: ٥-٧.

٢. *أصول الكافي*، ج٢، ص٥٢، باب حقيقة الإيمان واليقين.

٣. الطارق: ٩.

٤. يس: ٥٢.

حياة لا فائدة فيها، وقد أجاب القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١]، وهذا يعني أنّ الشهداء أحياء في البرزخ، وبالإضافة إلى ذلك هم يُرزقون.

٢. تظهر أعمال الإنسان الصالحة على صورة شاب جميل المنظر، وأمّا أعماله الطالحة فتظهر على صورة شخص كريه الرائحة.

٣. إنّ عذاب البرزخ شديد وعظيم، وقد سأل عمر بن يزيد الإمام الصادقؑ:

«كلّ شيعتنا في الجنّة على ما كان فيهم؟ قال صدقتك كلهم والله في الجنّة. قال قلت جعلت فداك إنّ الذنوب كثيرة كبار، فقال: أمّا في القيامة فكلكم في الجنّة بشفاعة النبيّ المطاع أو وصيّ النبيّ، ولكنّي والله أتخوّف عليكم في البرزخ. قلت وما البرزخ؟ فقال: القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة»[٢]،

٤. وعلى هذا الأساس، فالقبر بناءً على كلام المعصومينؑ عبارة عن البرزخ الذي يعذّب فيه الضالّون حتّى لو كانوا شيعةً ليتطهّروا، وهو عذاب لا يُحتمل، حتّى لو كانت مدّته قليلة، فكيف إذا كانت المدّة طويلة.

٥. الأموات يسمعون ويدركون، وعلى الرغم من توقّف الأذن والذهن المادّيّان عن العمل، مع ذلك يتمّ تلقينهم.

روي عن النبيﷺ أنّه وقف على قليب بدر، فقال للمشركين الذين قتلوا يومئذ وقد أُلقوا في القليب: لقد كنتم جيران سوء لرسول اللهﷺ، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثمّ اجتمعتم عليه فحاربتموه، فقد وجدت ما وعدني ربيّ حقًّا، فقال له عمر: يا رسول الله، ما خطابك لهامٍ قد صديت؟ فقال له: مه يا بن الخطاب، فوالله ما أنت بأسمع منهم...[٣]

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه ركب بعد انفصال الأمر من حرب البصرة، فصار يتخلّل بين الصفوف حتّى مرّ على كعب بن سورة، فوقف عليه أمير المؤمنينؑ

---

١. آل عمران: ١٦٩.

٢. *نور الثقلين*، ج٣، ص٥٥٣.

٣. *بحار الأنوار*، ج٣، ص٢٥٤ وما بعدها.

وهو صريع بين القتلى فقال: أجلسوا كعب بن سورة، فأُجلس بين نفسين، فقال: يا كعب بن سورة قد وجدت ما وعدني ربيّ حقًّا، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقًّا؟ ثمّ قال: أضجعوا كعبًا، وسار قليلاً فمرّ بطلحة بن عبد الله صريعًا فقال: أجلسوا طلحة، فأجلسوه، فقال: يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقًّا؟ ثمّ قال: أضجعوا طلحة، فقال له رجل من أصحابه: يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟ فقال: يا رجل، فوالله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله صلى الله عليه وآله.[1]

٦. البرزخ ليس أمرًا عدميًّا، بل هو أمر وجوديّ يقع بين الدنيا والآخرة.

٧. الإنسان في عالم البرزخ إمّا مؤمن أو كافر أو مستضعف؛ المؤمن في الجنّة البرزخيّة والكافر في النّار البرزخيّة، وقد أعدّ الله تعالى مكانًا للمستضعف؛ أي الذين لم يأتوا بعمل طالح يستحقّون به النار البرزخيّة ولم يأتوا أيضًا بعمل صالح يستحقّون به الجنّة البرزخيّة: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3]. لا شكّ أن من المحتمل أنّهم مشمولون برحمة الله تعالى؛ لأنّ العجزة من الرجال والنساء والأطفال والمقعدين كانوا لا يملكون حيلة، وليس لهم سبيل إلى مكان، فهم خارجون عن استحقاق النار والجنّة: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[4]. بخلاف الكافرين الذين تظهر عليهم آثار الضلال بمجرّد دخولهم البرزخ لذلك وبمجرّد دخولهم تضربهم الملائكة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[5].

---

١. *بحار الأنوار*، ج٣، ص٢٥٤ وما بعدها.

٢. التوبة: ١٠٢.

٣. التوبة: ١٠٦.

٤. النساء: ٩٨.

٥. محمّد: ٢٧.

السرّ في تطبيق الآية المتقدّمة على البرزخ أنّ كافة الأحكام تتّضح في القيامة الكبرى ويتحدّد المصير فيها، مع احتمال أن يكون للآية ظهور أيضًا في طليعة المعاد.

٨. أهل الدنيا كالنيام بعد الموت، يحملون بعض الذكريات ولا يدركون انتقالهم إلى العالم الآخر، ثمّ يعلمون انتقالهم إلى عالم البرزخ بعد سماعهم تلقين الميت ومشاهدتهم أمورًا خاصّة. وهم كالمدمنين المسجونين الذين ما زالوا يحافظون على أصل إدمانهم، إلا أنّهم لا يملكون مواد الإدمان؛ لذلك يصابون بآلام شديدة. وأهل الدنيا يودّعونها وفي قلوبهم حبّ كبير لها، ومع ذلك يبقى تعلّقهم بها مؤذيًا حتّى يزول على إثر العقبات الكنود التي يعيشونها في البرزخ حيث لا علاج هناك.

٩. تحصل ظلمة البرزخ على أثر المعاصي، كما يحصل نور البرزخ على أساس الأعمال الصالحة. إذًا شروع الآخرة يبدأ من عالم البرزخ، والبرزخ بمنزلة مدخل ومعبر الآخرة. ويستفاد من قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾[١] أنّه يمكن من خلاله النظر إلى الدنيا من منظار أهل الآخرة.

١٠. تدور الأسئلة البرزخيّة حول الأمور الكلّيّة كالتوحيد والنبوّة، والدين والقبلة، أمّا أسئلة المعاد فهي كليّة وجزئيّة، حيث يُسأل هناك عن أدقّ الأعمال والأفكار والنيّات.

١١. إنّ حمد الله تعالى يمهّد الطريق للانتقال من البرزخ إلى القيامة؛ لأنّ الإنسان الحامد والشاكر هو الذي يتّخذ الله تعالى وليًّا له ويتحرّك في جميع أعماله وأموره تحت ولايته وهدايته. يقول الإمام السجّاد﴿ع﴾ عند حمد الله تعالى: «الحمد لله... حمدًا يضيء لنا به ظلمات البرزخ»[٢]. والله تعالى هو المبدأ الفاعليّ في كافّة الأعمال الموجودة وأعمال الخير كما جاء في الدعاء، فالله تعالى هو مبدأ الإضاءة والنور، إلا أنّ هذا الأمر يستلزم وسائل وأدوات خاصّة ليمهّد الله لنا الأرضيّة، والحمد من أفضل وسائل التمهيد.

---

١. المؤمنون: ١١٢.

٢. *الصحيفة السجادّيّة*، الدعاء ١.

وفاة عيسى المسيحعليه السلام

أكّد القرآن الكريم أنّ قانون الموت عام، وقد أشرنا إلى أنّ هذا المعنى يستفاد من العديد من الآيات القرآنيّة من قبيل قوله تعالى:

١. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[1]. والعمر الطويل ممكن، ولكن الموت قطعيّ للجميع.

٢. ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2] وقد مرّ تفصيل الحديث في عموم الموت للجميع.

وعلى هذا الأساس، ألا تعتبر قصّة النبي عيسىعليه السلام مخالفة لأصل عموم الموت؛ لأنّ نبي الله عيسىعليه السلام إمّا أنّه قد رحل وغاب، أو هاجر ثمّ سيرحل فيما بعد، وبالتالي الرحيل يقينيّ لا محالة؛ والدليل قول الله تعالى في سورة مريم ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[3].

إذًا سيكون هناك يوم يموت فيه نبيّ الله، فهو غير مستثنى من قانون الموت العامّ؛ وقد جاء في آية أخرى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] وقد سبق الآية الشريفة قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[5]. وتفيد كلمة «توفى» في الآية السابقة الموت قطعًا.

توجد العديد من الآيات القرآنيّة الشريفة حول النبي عيسىعليه السلام التي لم تحدّد موته ولم تؤيّد حياته الحاليّة، إلاّ أنّ الآيات القرآنيّة تقدّم إجابات للذين ادّعوا أنّه صلب وقتل،

---

١. آل عمران: ١٨٥.

٢. الأنبياء: ٣٤ و٣٥.

٣. مريم: ٣٣.

٤. المائدة: ١١٧.

٥. المائدة: ١١٧.

فتبيّن أنّه لم يُصلب ولم يُقتل. وقد أشارت الآيات إلى الأمل الذي أعطاه الله تعالى لعيسى لنجاته من الأعداء: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

إذًا، يخاطب الله تعالى عيسى عليه السلام أثناء حياته بأنّه سيتوفّى كامل حقيقته: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، ولكن من غير المعلوم إن كان هذا التوفيّ والأخذ قد حصل سابقًا أم أنّه سيحصل آخر الزمان؟ كما أنّه من غير المعلوم ما هو المقصود من ﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، هل سيرفع روحه فقط، أم سيرفع روحه وبدنه معًا؛ حيث يقول المسيحيّون إنّ عيسى قتل ودفن ثمّ خرج من بين الأموات وبقي مدّة في الأرض ثمّ صعد إلى السماء.

عن أبي جعفر عليه السلام قال:

إنّ عيسى عليه السلام وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه، فاجتمعوا إليه عند المساء، وهم اثنا عشر رجلاً: فأدخلهم بيتًا، ثم خرج عليهم من عين في زاوية البيت وهو ينفض رأسه من الماء: فقال إنّ الله أوحى إليّ أنّه رافعي إليه الساعة ومطهّري من اليهود، فأيّكم يلقى عليه شبحي فيُقتل ويُصلب ويكون معي في درجتي؟ فقال شاب منهم: أنا يا روح الله، فقال: فأنت هوذا فقال لهم عيسى: أما إنّ منكم لمن يكفر فيَّ قبل أن يصبح اثنى عشر كفرة، فقال له رجل منهم: أنا هو يا نبيّ الله فقال عيسى: أتحسّ بذلك في نفسك، فلتكن هو، ثمّ قال لهم عيسى: أما أنّكم ستفترقون بعدث على ثلث فرق، فرقتين مفريتين على الله في النار، وفرقة تتبع شمعون صادقة على الله في الجنّة، ثمّ رفع الله عيسى إليه من زاوية البيت وهم ينظرون إليه قال:

إنّ اليهود جاءت في طلب عيسى من ليلتهم فأخذوا الرجل الذي قال له عيسى إنّ منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنى عشر كفرة، وأخذوا الشاب

---

١. آل عمران: ٥٥.

الذي ألقي عليه شبح عيسىعليه السلام، فقتل وصلب، وكفر الذي قال له عيسى تكفر قبل أن تصبح اثنتي عشرة كفرة[١].

يقول العلاّمة الطباطبائيّ بعد نقل الحديث المتقدم:

أقول وروي قريب منه عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وقال بعضهم إنّ الذي ألقي عليه شبح عيسى هو الذي دلّهم ليقبضوا عليه ويقتلوه، وقيل غير ذلك والقرآن ساكت.

عن الإمام الرضاعليه السلام قال:

إنّه ما شبه أمر أحد من أنبياء الله وحججه على الناس إلاّ أمر عيسى وحده؛ لأنّه رُفع من الأرض حيًّا ـ وقبض روحه بين السماء والأرض، ثمّ رُفع إلى السماء وردّ عليه روحه، وذلك قوله عز وجلّ؛ إذ قال الله يا عيسى إنيّ متوفّيك ورافعك إليَّ ومطهّرك ـ ، وقال الله حكاية لقول عيسى يوم القيامة وكنت شهيدًا عليهم ما دمت فيهم ـ فلما توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد[٢].

وفي حديث عن الإمام الصادقعليه السلام؛ بعث الله عز وجل عيسى بن مريمعليه السلام واستودعه النور والعلم والحكمة وجميع علوم الأنبياء قبله، وزاده الإنجيل، وبعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه وحكمته وإلى الإيمان بالله وبرسوله، فأبى أكثرهم إلاّ طغيانًا وكفرًا، فلمّا لم يؤمنوا به دعا ربه وعزم عليه، فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا، فلم يزدهم ذلك إلاّ طغيانًا وكفرًا، فأتى بيت المقدس، فمكث يدعوهم يرغّبهم فيما عند الله ثلثًا وثلثين سنة حتى طلبته اليهود وادّعت أنّها عذّبته ودفنته في الأرض حيًّا، وادّعى بعضهم أنّهم قتلوه وصلبوه، وما كان الله ليجعل لهم عليه سلطانًا، وإنمّا شبّه لهم، وما قدروا على عذابه ودفنه، ولا على قتله وصلبه، وقوله عزّوجلّ: أنيّ متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، فلم يقدروا على قتله وصلبه، لأنّهم لو قدروا على ذلك كان تكذيبًا لقوله، ولكن رفعه الله بعد أن توفّاهعليه السلام، فلمّا أراد الله أن يرفعه أوحى إليه

---

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٣٤٥، ح١٥٤.

٢. م.ن، ص٢٥٢: ١١٧.

أن يستودع نور الله وحكمته، وعلم كتابه شمعون ابن حمون الصفا خليفته على المؤمنين ففعل ذلك.

قال مؤلّف هذا الكتاب عفا الله عنه: قد كتبنا لهذا الكلام تتمّة عند قوله (ونبيًّا من الصالحين) مخالفة لإحياء عيسى يحيى بن زكرياعليه السلام، فتأمّل فيهما[1].

ملاحظة: ليس ببعيد أن تكون بعض هذه النصوص من الإسرائيليّات؛ لذلك لا بدّ من الاحتياط في قبول المشتركات مع أهل الكتاب.

خطأ اليهود والمسيحيّين

تشير الآية والروايات المتقدّمة إلى أنّ اليهود لم يصلوا إلى النبيّ عيسىعليه السلام، أمّا المسيحيّون فيظنّون أنّه صلب. وما زال المسيحيّون يعتقدون صلب السيّد المسيحعليه السلام ويمثّلون في مراسمهم عمليّة صلبه، مع أنّ ثمّة بعض المجموعات المسيحيّة الجديدة التي تحاول تبرئة اليهود من ذلك. أمّا القرآن الكريم فينصّ على أنّ اليهود اعترفوا بقتلهم السيّد المسيح، كما أنّ اليهود روّجوا لبعض الاتّهامات الكبيرة بحقّ السيّدة مريمعليها السلام: ﴿**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[2].

يظنّ المسيحيّون أنّ السيّد المسيحعليه السلام ابن الله، أو هو أحد الآلهة الثلاثة (الأقانيم الثلاثة)، وهدفه تطهير البشر من ذنوبهم ونجاتهم من البرزخ، وذكروا أنّه فدى البشر بنفسه. أمّا الأناجيل التي دوّنها تلامذته أو تلامذة تلامذته، فهي مكتوبة بأقلامهم، حيث دوّنوا أنّ جيوش الروم واليهود هاجمت مكان إقامة السيّد المسيح ليلاً واعتقلوا شخصًا اعتقدوا أنّه المسيح، حيث عمدوا إلى صلبه، أمّا الشخص المعتقل فلم ينطق بأيّ عبارة ولم يدافع عن نفسه، وأمّا تلامذة السيّد المسيح فقد هربوا في ظلام الليل. ينفي

---

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٣٤٦.

٢. النساء: ١٥٦-١٥٨.

إنجيل برنابا قصّة صلب النبيّ عيسىعليه السلام، حتّى أنّ بعض المحقّقين يعتقدون بوجود شخصين باسم عيسى: أحدهما صُلب والآخر لم يصلب والفارق بين الشخصين خمسمئة سنة.

يقول العلاّمة الطباطبائيّ في تفسير ذيل الآية الشريفة:

«ذكر بعد قوله «وما قتلوه» قوله «وما صلبوه» ليؤدّي الكلام حقّه من الصراحة، وينصّ على أنّهعليه السلام لم يتوفّ بأيديهم لا صلبًا ولا غير مصلوب، بل شبّه لهم أمره، فأخذوا غير المسيحعليه السلام مكان المسيح فقتلوه أو صلبوه، وليس من البعيد عادة، فإنّ القتل في أمثال تلك الاجتماعات الهمجيّة والهجمة والغوغاء ربّما أخطأ المجرم الحقيقيّ إلى غيره، وقد قتله الجنديّون من الروميّين، وليس لهم معرفة بحاله على نحو الكمال، فمن الممكن أن يأخذوا مكانه غيره، ومع ذلك فقد وردت روايات أنّ الله تعالى ألقى شبهه على غيره فأُخذ وقتل مكانه»[١].

يقول بعض المحقّقين:

«إنّ القصص التاريخيّة ذات العلاقة بالنبيّ عيسى وكذلك الأحداث المتعلّقة بدعوته وقضيّة الحكّام والدعاة المعاصرين، تنطبق على شخصين، كان يطلق اسم المسيح على كليهما ويبعدان عن بعضهما خمسمئة سنة. المسيح الأوّل كان على الحقّ ولم يُقتل، والثاني كان على الباطل وقد صلب»[٢].

إذا صحّ تحليل هذا المحقّق فإنّ الاشتباه الذي نسبه القرآن الكريم لمجموعة من أهل الكتاب عبارة عن الاشتباه بين شخصين أحدهما المسيح عيسى ابن مريم والآخر شخص آخر هو الذي صلب.

---

١. *الميزان*، ج٥، ص١٣٤.

٢. العقيد بهروز، مسؤول مكتبة نادي الضباط ومتخصّص في علم اللغات وقد أنجز أخيراً دراسة حول تاريخ الإنجيل وبشارة العهدين. كما يعتقد أنّ ما هو مشهور بالتاريخ الميلاديّ مشكوك في صحته من الناحية التاريخيّة (ذيل ترجمة *الميزان*).

المسألة من وجهة نظر الروايات

عالجت الروايات قضيّة المسيح عليه السلام من زوايا متعدّدة؛ لذلك فالبحث يقتضي التطرّق إلى ما أشارت إليه.

يقول العلاّمة الطباطبائيّ رحمه الله:

«عن أبي حمزة، عن شهر بن حوشب: قال لي الحجّاج: يا شهر آية في كتاب الله قد أعيتني فقلت: أيّها الأمير أيّة آية هي؟ فقال: قوله «وإنّ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ به قبل موته» والله إنيّ لآمر باليهوديّ والنصرانيّ فيضرب عنقه، ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرّك شفتيه حتى يخمد، فقلت: أصلح الله الأمير ليس على ما أوّلت قال: كيف هو: قلت: إنّ عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا، فلا يبقى أهل ملّة يهوديّ ولا غيره إلاّ آمن به قبل موته، ويصلّي خلف المهديّ قال: ويحك أنّى لك هذا؟ ومن أين جئت به؟ فقلت: حدثني به محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فقال: والله، جئت بها من عين صافية»[1].

وفي تفسير الدر المنثور:

«أخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجّاج: يا شهر آية من كتاب الله ما قرأتها إلاّ اعترض في نفسي منها شيء قال الله: «وإنّ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ به قبل موته» وإنيّ أوتى بالأسارى فأضرب أعناقهم ولا معهم يقولون شيئًا، فقلت: رفعت إليك على غير وجهها، إنّ النصرانيّ إذا خرجت روحه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره وقالوا: أيّ خبيث، إنّ المسيح الذي زعمت أنّه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته، فيؤمن حين لا ينفعه إيمانه، وإنّ اليهوديّ إذ أخرجت نفسه ضربته الملائكة من قبله ومن دبره، وقالوا: أيّ خبيث، إنّ المسيح الذي زعمت أنّك قتلته، عبد الله وروحه فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان، فإذا كان عند نزول عيسى آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم: فقال: من أين أخذتها؟ فقلت: من محمّد بن عليّ قال: لقد أخذتها من معدنها... قال

١. *الميزان*، ج٥، ص١٤٥.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويقبض المال، وتكون السجدة واحدة لله ربّ العالمين، واقرؤوا إن شئتم: «وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به قبل موته» موت عيسى بن مريم»[١].

يقول العلاّمة الطباطبائيّ بعد ذكر الأحاديث المتقدّمة:

«أقول: والروايات في نزول عيسى عليه السلام عند ظهور المهديّ عليه السلام مستفيضة من طرق أهل السنّة، وكذا من طرق الشيعة عن النبيّ والأئمة من أهل بيته عليهم الصلاة والسلام»[٢].

يستنتج العلاّمة الطباطبائيّ قدس سره من الآية الشريفة: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إنّ الرفع يتناسب مع القتل أيضًا، وكذلك مع الموت الطبيعيّ، فهذا الرفع نوع من النجاة، حيث نجّى الله تعالى عيسى عليه السلام. ولا يختلف الأمر إذا ما كان الموت الطبيعيّ والرحيل عن الدنيا قد تمّ بعد التخلّص من العدوّ، أو أنّه بقي حيًّا فحفظه الله بكيفيّة لا ندركها. كلّ هذا الكلام محتمل؛ فليس ببعيد أن يرفع الله المسيح إليه بصورة مخالفة للعادة الجارية، وبذلك يكون قد حفظه[٣].

السيّد المسيح عليه السلام وإحيائه الموتى

عند الحديث عن المسيح عليه السلام يتمّ الكلام عن إحيائه الموتى، فقد تمكّن من إحياء الموتى. والأموات الذين أحياهم السيّد المسيح عليه السلام لم يكونوا من الذين توفّوا حديثًا فقط، بل أحيا أشخاصًا مرّ على موتهم مدّة طويلة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم حول إحياء السيّد المسيح عليه السلام للموتى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي أنّه في الإحياء والإخراج مظهر الله تعالى؛

---

١. *الدر المنثور*، ج٢، ص٧٣٦-٧٣٧؛ *الميزان*، ج٥، ص١٤٥.

٢. *الميزان*، ج٥، ص١٤٦.

٣. م.ن، ص١٣٥.

لأنّ الله مخرج الأموات بالأصالة والذات: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[١].

تجلّى الله تعالى باسمه هذا أي إخراج الموتى في السيّد المسيح عليه السلام حيث يقول الله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[٢]. وإخراج الموتى عبارة عن إحيائهم، وقد ذكرت الآيات الشريفة الأمر نفسه تحت عنوان الإحياء: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣].

زمان ومكان الموت مجهول

لا يمكن لأيّ شخص أن يدرك في أي أرض يموت ولا على أيّ عقيدة؛ لذلك كانت الوصيّة أن تكونوا على دين الإسلام دائمًا: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٤]. وقد أوصى إبراهيم ويعقوب أبناءهما التسليم أمام الأوامر الإلهيّة، وأخبروهما أنّ الله تعالى قد دعاهم للدين الحنيف، فلا تتبعوا غيره، ولا تسلموا الروح إلاّ وأنتم مسلمون لرضى الله تعالى.

إنّ حكمة الله لا توجب اطّلاع البشر على مصيرها وزمان ومكان موتها؛ فذلك ليس من مصلحة دنيا الإنسان وآخرته، ويقول الله تعالى في هذا السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٥].

تشير بعض الروايات إلى أنّ تفصيل هذه الأمور هو لله تعالى بالذات والأصالة، وهذا لا يتنافى مع أن يعلّم بعضها أو إجمالها خزّان علم الله، كالنبيّ والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وهم عيبة علم الله بلا عيب ولا ريب: «وروي عن أئمّة الهدى عليهم السلام أنّ هذه الأشياء الخمسة

---

١. طه: ٥٥.

٢. المائدة: ١١٠.

٣. آل عمران: ٤٩.

٤. البقرة: ١٣٢.

٥. لقمان: ٣٤.

لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غيره تعالى»[١]؛ ويقول الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[٢]، والمقصود من الغيب في الآية الشريفة، إمّا جنس الغيب، وإمّا خصوص المعاد، حيث إن سياق الآيات يتمحور حول المعاد، وعلى كلّ حال، فإنّ العلم بالقيامة داخل في المقصود.

لقاء الله

يتّجه جميع البشر للقاء الله تعالى بناءً على الرؤية الكونيّة للقرآن الكريم؛ سواء أكان الأفراد من الصالحين أم من الضالين: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[٣]، والعودة إلى الله تعالى ليست خاصّة بالمؤمنين والصالحين، بل الإنسان مهما كان يُقبل على لقائه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٤]؛ لذلك فالجدير بالإنسان أن يبذل جهوده ليكون لقاؤه بالله على أحسن شكل، وإذا لم يتمكّن الإنسان من طيّ هذا الطريق، أي الصراط المستقيم، بإرادة صحيحة ونيّة خالصة، فإنّه يؤخذ إلى اللقاء مرغمًا، فالأَوْلَى أن يذهب الإنسان إلى هذا اللقاء بالشكل الذي يكون محببًا، لا أن يؤخذ مرغمًا معذّبًا: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[٥].

والفرق بين الصالحين والضالين هو أنّ الصالحين يتقدّمون على الصراط المستقيم سالمي النفس مسرعين وهم على أفضل حال، ويكونون في مقدّم الصفّ، يعاينون جمال المليك المقتدر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٦]، أمّا الضالّون المتهوّرون والمعادون للدين، فيتقدّمون بصعوبة ويصلون متأخّرين ويجلسون في مكان بعيد: ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٧]. وعلى هذا الأساس، فالمؤمنون يشاهدون جمال

---

١. *نور الثقلين*، ج٤، ص٢٢٠.
٢. الجن: ٢٦ و٢٧.
٣. المائدة: ١٠٥.
٤. الانشقاق: ٦.
٥. الحاقة: ٣٠.
٦. القمر: ٥٤ و٥٥.
٧. فصلت: ٤٤.

الحقّ ويلاقون الله أرحم الراحمين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١]، أمّا الضالّون فيلاقون الله باسم «**أشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة**»[٢] ويشاهدون اسم ﴿**إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**﴾[٣]، ويشعرون بجهنّم بكلّ وجودهم، ويدركون جلال الحقّ وليس جماله؛ لذلك فهم عميٌ محجوبون عن رؤية جماله ﴿**إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾[٤]، وعليه فهم يسارعون للقاء اسم المنتقم الإلهيّ، وهو الذي يشاهدونه.

بناءً على ما تقدّم يوصي القرآن الكريم ويعظ بأنّ من كان سالمَ الروح وصاحب شعور وإحساس، فعليه أن ينظر أمامه، وأن يجهّز الزاد للعالم الآخر: ﴿**وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾[٥]؛ يا أهل الإيمان اخشوا الله، ولتنظر كلّ نفس ما عملت ليوم قيامتها، خافوا الله المطّلع على جميع أعمالكم. عندما يحضر الضالّون القيامة يكونون أذلّاء، ويقولون: لقد رأينا العذاب، أعيدونا إلى الدنيا لنعمل صالحًا: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾[٦]، ولكن لا فائدة عند ذلك، ولن يعود الإنسان مرّة أخرى إلى الدنيا؛ لذلك يجب أن يبدأ الاستعداد لرحلة الآخرة من هنا، أي من دار الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**﴾[٧].

رؤية العرفاء

يوضح العرفاء أنّ الكون بأكمله هو مرآة الله التي ستتحطّم في يوم من الأيّام: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ**﴾[٨]. طبعًا هذه المرآة من وجهة نظرهم كبيرة إلى مستوى أنّ

---

١. القيامة: ٢٢ و٢٣.

٢. *مفاتيح الجنان*، دعاء الافتتاح.

٣. السجدة: ٢٢.

٤. المصطفين: ١٥.

٥. الحشر: ١٨.

٦. السجدة: ١٢.

٧. الانفطار: ٤ و٥.

٨. التكوير: ١ و٢.

الفاصل بين أجزائها يبلغ مليارات السنوات الضوئيّة؛ لذلك لم يُقْدّم حتّى الآن تعريف لها، وما زالت بدايتها ونهايتها مع ما فيها من مليارات النجوم والسيارات محاطة بهالة كبيرة من الإبهام، وقد لفتت انتباه عقول العقلاء وأفكار المفكّرين إليها، فأصبح الكثيرون عاشقين لها، ومع ذلك أنهكهم التدقيق في عظمتها اللامتناهية. إنّ هذه المرآة الكبيرة والكون العظيم هو علامة على الله تعالى، فكلّ ورقة منه كتاب في معرفة الفاعل، وإذا دقّقنا النظر فسنشاهد الآخر وراء المرآة وهو الصانع، حيث يُظهر جماله وجلاله للعباد، وكثير من الناس يشاهدون جمال الحبيب في المرآة فقط، ولا يلتفتون إلى أنّ ما يشاهدونه هو المرآة، وحتّى لو تحطّمت فسيتجلّى جمال الحبيب لهم من ورائها. وفي النهاية ستتحطم المرآة: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[١].

سبيل الوصول للقاء الله

يبدأ الطريق للوصول إلى لقاء الله تعالى من وجهة نظر القرآن الكريم من الإنسان نفسه، من عقائده وأفكاره وأوصافه الداخليّة والنفسانيّة التي تشكّل شؤون النفس البشريّة المتنوّعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢]؛ أي توجّهوا إلى أنفسكم لتبنوها، راقبوا أنفسكم، سيطروا على أرواحكم، فلا يضرّكم ضلال الآخرين. وهذا الحكم لا يتنافى مع محاولة الإنسان صناعة أفراد المجت، مع ولا يتنافى مع مبادرته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ترك إحدى الواجبات الإلهيّة المهمّة، وبالتالي لن يصل إلى الهداية، وقد أكّدت الآية الشريفة ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، إذاً يجب الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يهتدي الإنسان من دونها.

سأل أبو ثعلبة رسول اللهﷺ عن معنى الآية الشريفة. فقالﷺ:

---

١. الزمر: ٦٧.

٢. المائدة: ١٠٥.

«ايتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيًا مؤثرة، وشحًّا مطاعًا، وهوى متّبعًا، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك وذر عوامهم»[١]؛

لذلك يجب أن نبذل الجهود لإصلاح أنفسنا، وينبغي أن نعالج أخطاء الآخرين ومساوئهم، لا أن نتّخذها سبيلاً. لقد أرشدَنا الله تعالى إلى طريق تهذيب الأخلاق وبناء الذوات وأعطى الروح والجسم الوسائل اللازمة لذلك: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾[٢].

عندما وصل الرسولﷺ إلى قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾ توقّف وقال: «اللّهم آت نفسي تقواها. أنت وليّها ومولاها وزكّها أنت خير من زكّاها»[٣].

إنّ تشخيص العيب والنقص أوّلاً، ومقدار ابتلاء النفس بالنقص والعيب ثانيًا، كيفيّة معالجة كلّ مريض في خصوصيّاته الروحيّة ثالثًا، العلاج الشافي والنهائيّ رابعًا... جميع ذلك في دائرة علم الله وقدرته اللامتناهية.

---

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٦٨٤.

٢. الشمس: ٧-٩.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٨٥٦.

الفصل السابع

الشهيد والشهادة

معنى الشهيد

الشهيد هو الشخص الذي يُقتل في ساحة حرب مشروعة ومأذون بها، ويُطلق عليه اسم الشهيد لحضور الملائكة لديه، أو لأنّ الله وملائكته يُشهدونه الجنّة، أو لأنّه من الأشخاص الذين يشهدون في القيامة على الأمم الماضية، أو لأنّه وقع على «الشاهدة»، أي على الأرض، أو لأنّه حاضر وحيّ عند الله تعالى، أو لأنّه يشاهد الملكوت وملك الله تعالى...

يطلق لفظ الشهيد في المصطلح الفقهيّ على شخصين: الأوّل هو «الشهيد الحقيقيّ»، وهو المسلم العاقل والبالغ الذي قُتل ظلمًا في ساحة حرب مشروعة، والثاني هو «الشهيد الحكميّ» وهو المسلم الذي توفي على إثر مرض خاصّ، أو المرأة حين الولادة. والشهيد الحكميّ بحاجة إلى غُسل وكفن، والشهيد بالمعنى الاصطلاحيّ ليس بحاجة إليهما.

ملاحظة: للشهيد الحكميّ موارد وحالات عديدة، وإذا أُشير إلى بعضها في الأحاديث، فيكون ذلك من باب التمثيل وليس التعيين.

حياة الشهيد

تتغيّر الحياة الطبيعيّة في الدنيا صعودًا وهبوطًا، أمثال الصعوبات والمسرّات، المرض والسلامة، الأمن والخوف، الجوع والشبع، الحرب والصلح، وكافّة الأحداث المتعبة والباعثة على الحيويّة، الحسن والسيّئ، الجميل والقبيح، والعقل البشريّ عاجز عن الوصول إلى سبيل واضح بينها؛ فهو ليس مطّلعًا عن سرّ أقدارها، وليس عارفًا بنتائجها ومآلاتها؛ فيظنّ الإنسان المادّي على سبيل المثال أنّ المجاهد في سبيل الله عندما يقع على الأرض أو عندما يُقطع إربًا إربًا، أو عندما تفترسه الحيوانات في الصحاري والبحار،

فقد زال وانتهى بالكامل؛ كما كان يحصل في صدر الإسلام، حيث كانوا يعتبرون من يقضي في ساحة الحرب قد مات. وقد فتح القرآن الكريم على معارف البشر نافذة نحو الغيب، فحارت فيها العقول. يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾[1]؛ والسبب في ذلك أنّ إنسانيّة الإنسان بنفسه الناطقة، وليست بعناصر بدنه المتبدلة. يصل الشهيد إلى مقام الحياة عند الله التي هي فوق تصوّر العقل البشريّ المتعارف، وتدل الآية الشريفة كما أشرنا سابقًا على تجرّد الروح وعلى وجود البرزخ أيضًا.

اعتبر المفسّرون إنّ هذه الحياة هي الحياة البرزخيّة، وهي عالم يمتدّ منذ لحظة الموت إلى القيامة، فيتمتّع الشهداء فيها بنعم خاصّة، حيث جاء في الآية الشريفة: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2]، وتتحدّث الآية الشريفة عن الرزق، والحياة، وفضل الله، وعدم الخوف على المؤمنين والثواب الكبير.

والنقاط التي تضمّنتها الآية الشريفة جديرة بالتفكير والتأمّل، حيث سنشير إلى بعضها:

أجر الشهداء

يقول العلاّمة الطباطبائيّ ﷺ في ذيل الآيات المتقدّمة:

«والتدبّر في الآيات يعطي أنّها في صدد بيان أجر المؤمنين أوّلًا، وأنّ هذا الأجر رزقهم عند الله سبحانه ثانيًا، وأنّ هذا الرزق نعمة من الله وفضل ثالثًا، وأنّ الذي يشخّص هذه النعمة والفضل هو أنّهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رابعًا، وهذه الجملة، أعني قوله أنّ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، جملة عجيبة، كلّما أمعنت في تدبّرها زاد في اتّساع معناها على لطف ورقّة وسهولة بيان، وأوّل ما يلوح من معناها أنّ الخوف والحزن مرفوعان عنهم والخوف إنّما يكون من أمر ممكن محتمل يوجب انتفاء شيء من سعادة

---

١. البقرة: ١٥٤.

٢. آل عمران: ١٦٩-١٧١.

الإنسان التي يقدر نفسه واجدة لها، وكذا الحزن إنّما يكون من جهة أمر واقع يوجب ذلك، فالبليّة أو كلّ محذور إنّما يخاف منها إذا لم يقع فإذا وقعت زال الخوف وعرض الحزن، فلا خوف بعد الوقوع ولا حزن قبله.

فارتفاع مطلق الخوف عن الإنسان إنّما يكون إذا لم يكن ما عنده من وجوه النعم في معرض الزوال، وارتفاع مطلق الحزن إنّما يتيسّر له إذا لم يفقد شيئًا من أنواع سعادته لا ابتداءً ولا بعد الوجدان، فرفعه تعالى مطلق الخوف والحزن عن الإنسان معناه أن يفيض عليه كلّ ما يمكنه أن يتنعّم به ويستلذّه وأن لا يكون ذلك في معرض الزوال، وهذا هو خلود السعادة للإنسان وخلوده فيها. ومن هنا يتّضح أن نفي الموت والحزن هو بعينه ارتزاق الإنسان عند الله، فهو سبحانه يقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[1] ويقول: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[2] فالآيتان تدلّان على أنّ ما عند الله نعمة باقية لا يشوبها نقمة ولا يعرضها فناء.

ويتّضح أيضًا أن نفيهما هو بعينه إثبات النعمة والفضل، وهو العطيّة، لكن تقدّم في أوائل الكتاب، وسيجيء في قوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[3] أنّ النعمة إذا أُطلقت في القرآن، فهي الولاية الإلهيّة، وعلى ذلك فالمعنى أنّ الله يتولّى أمرهم ويخصّهم بعطيّة منه»[4].

ويقول مفسّر الإسلام الكبير الطبرسيّ رحمه الله:

«وما رُوي في الأخبار عن ثواب الشهداء أكثر من أن يُحصى، أعلاها إسنادًا ما رواه عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، عن الحسين بن عليّ عليه السلام قال: بينما أمير المؤمنين يخطب، ويحضّهم على الجهاد، إذ قام إليه شابّ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله؟ فقال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته العضباء، ونحن منقلبون عن غزوة (ذات السلاسل)، فسألته عمّا سألتني عنه فقال: الغزاة إذا همّوا بالغزو، كتب الله لهم براءة من النار، فإذا تجهّزوا لغزوهم، باهى الله بهم الملائكة.

---

١. آل عمران: ١٩٨.

٢. النحل: ٩٦.

٣. النساء: ٦٩.

٤. *الميزان*، ج٤، ص٦١.

فإذا ودّعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان والبيوت، ويخرجون من الذنوب كما تخرج الحيّة من سلخها، ويوكل الله بكلّ رجل أربعين ملكًا يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. ولا يعمل حسنة إلّا ضُعِّف له، ويكتب له كلّ يوم عبادة ألف رجل، يعبدون الله ألف سنة، كلّ سنة ثلاثمئة وستون يومًا، اليوم مثل عمر الدنيا. وإذا صاروا بحضرة عدوّهم، انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إيّاهم. فإذا برزوا لعدوّهم، وأُشرعت الأسنّة، وفوقت السهام، وتقدّم الرجل إلى الرجل، حفّتهم الملائكة بأجنحتها، يدعون الله بالنصرة والتثبيت، فينادي منادٍ: الجنّة تحت ظلال السيوف.

فتكون الطعنة والضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد في اليوم الصائف، وإذا زال شهيد من فرسه بطعنة أو ضربة، لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث الله إليه زوجته من الحور العين، فتبشّره بما أعد الله له من الكرام. فإذا وصل إلى الأرض، تقول له الأرض: مرحبًا بالروح الطيّب الذي أُخرج من البدن الطيّب، أبْشِر فإنّ لك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويقول الله عزّ وجل: أنا خليفته في أهله، من أرضاهم فقد أرضاني، ومن أسخطهم فقد أسخطني»[١].

نقاط حول الآيات

١. ليس من المتعارف أن يطلق الموت على الشهيد. الشهادة استمرار لحياة جميلة، مضيئة، خالدة، (الحياة البرزخيّة).

٢. يمتلك الإنسان عمومًا والشهيد على وجه الخصوص روحًا مجرّدة، وينتقل إلى العالم الآخر؛ لذلك فإنّ الرؤية المادّيّة والتفسير المادّي الذي يقدّمه المادّيّون عن الروح والنفس الإنسانيّة لا أساس له، حتّى لو زال واحترق بدن الإنسان بشكل كامل.

٣. إنّ الروح المجرّدة حيّة عند الله تعالى ويرزقها الرزق المناسب (أي الرزق المجرّد العقليّ والبرزخيّ).

---

١. مجمع *البيان*، ج١-٢، ص٨٨٤؛ *بحار الأنوار*، ج٩٧، ص١٢.

٤. إنّ قرب الشهيد الإلهيّ هو قرب معنويّ، وليس مادّيًا، ومرتبته «عند الله» هي أعلى مراتب القرب المعنويّ الخاصّة به.

٥. لا يشعر الشهيد بأيّ ألم ووجع. وعندما سئل الإمام الباقرعليه السلام عن مقدار الألم الذي شعر به شهداء كربلاء مقابل أسلحة الأعداء، فأجاب بأنّ ما كان يقع على أبدان الشهداء لا يتجاوز ضغط الأصابع على اليد، فالشهيد يتذوّق الموت ويمضي، وليس صحيحًا أنّه يقع تحت تأثير ذائقة الموت.

٦. الشهيد ناظر على أعمال الآخرين في الدنيا؛ فقد انتقل إلى مقام عند الله، وهو مقام محاط بالشعور والعلم والمعرفة والشهادة على الأعمال، يضاف إلى ذلك اطّلاعه على ما يجري في عالم البرزخ، فإذا قيل إنّ ذكرى المدافعين عن الوطن والمجتمع حيّة في الخواطر والأذهان، وهي نوع من الحياة، فيجب أن يُقال لهم إنّ هذا الكلام بعيد عن حريم أفكار الشهداء المخلصين؛ لأنّ الشهداء قدّموا أنفسهم لله فقط، ولأجل رضاه، من دون أن يكون عندهم طمع في ذكر وخاطرة ووطن ومجتمع و...؛ على الرغم من أنّ شهادتهم يترتّب عليها حفظ الوطن الإسلاميّ واستقلال الأمّة الإسلاميّة وحرّيّتها.

٧. الشهيد يفكّر بالآخرين؛ لذلك فإنّ أوّل أسئلة الشهداء في البرزخ إنّما تكون عن أحوال الأصحاب والمجاهدين، طلبًا للبشارة بالتحاقهم بركب الشهداء.

٨. يبشّر الله تعالى الشهداء بأنّهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٩. كما يردّد سالكو طريق الشهادة في الزيارات «يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزًا عظيمًا»[١] كذلك الشهيد الشاهد يرسل نداءه من مقامه أن ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٢]. وهكذا تستمر عمليّة التمنّي من الطرفين على امتداد التاريخ وعرض الجغرافيا وعمق المجتمع الإنسانيّ وارتفاع الروح.

١٠. إنّ لعبارة «المكرمين» في الثقافة القرآنيّة مصاديق من أبرزها ملائكة الله، فقد

---

١. *مفاتيح الجنان*، زيارة وارث.

٢. يس: ٢٦ و٢٧.

جاء في سورة «الأنبياء»: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[١]، فإذا كان الشهيد في رتبة المكرمين طبق المستفاد من سورة «يس»: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٢]، يتّضح حينها أنّ الشهداء يُحشرون مع الملائكة، وما وصل عن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بحقّ أخيه جعفر الطيّار يفيد أنّه مشمول باللطف الإلهيّ الخاصّ، وامتلاكه جناحان يطير بهما في الجنّة: «يطير بهما مع الملائكة في الجنّة»[٣] هو من هذا السنخ.

الشهادة والفائدة الوافرة

لا شكّ أنّه ليس للقرآن الكريم مثيل في عرض المعارف، كما أنّه لا نظير له في كيفيّة عرضها وتبيينها أيضًا. من هنا كان القرآن الكريم تارة يقدّم المطالب العرشيّة المعنويّة المتعالية في قالب مثال، وهو مثال جذّاب وجميل، قابل للفهم عند العموم، ممكن التطبيق ومحسوس، حيث يعتبر هذا الأسلوب من الأساليب البليغة، وهي مصداق تامّ وكامل لجمال «الفنّ» (تشبيه المعقول بالمحسوس).

تحدّث القرآن الكريم حول مقام الشهداء المتعالي وما يصلهم من نفع عن طريق الجهاد والشهادة، وصوّرها على أنّها تجارة ومعاملة، فجاء في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤].

بيّن العديد من المفسّرين العظماء أنّ الله تعالى قدّم عناصر ستّة في الآية الشريفة، وهي: تحديد المشتري، البائع، البضاعة المباعة، ثمن البضاعة، الشاهد الموثوق، تنظيم الوثيقة.

---

١. الأنبياء: ٢٦ و٢٧.

٢. يس: ٢٧.

٣. *نهج البلاغة*، الرسالة ٢٨.

٤. التوبة: ١١١.

الأوّل: المشتري، فقد أشارت الآية الشريفة إلى أنّ الله تعالى هو المشتري: «إنّ الله اشترى».

الثاني: البائع، فالله تعالى لا يشتري من غير المؤمن ولا يقبل من غيره متاعًا، فإذا كان هدف البيع أو الإجارة الرياء، أو الشهرة والمنصب أو الخبز والماء، فالله لا يشتري هذا النوع من البضاعة.

الثالث: البضاعة هي الروح والمال: ﴿**أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**﴾، وفي هذه الحال يصبح البائع غير مالك لروحه وماله؛ وبذلك لا يضايقه أمر في بذل الروح في سبيل الله، ولا يمنعه مانع عن بذل المال في سبيل إحياء الحقّ، فهي أمور قد باعها لله تعالى.

الرابع: الجنّة ثمن البضاعة المباعة: ﴿**بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾. الإنسان المغبون هو الذي يبيع نفسه بشيء غير الجنّة، والخاسر هو الذي يصرف ماله في سبيل غير الله، فمال المؤمن كروحه تساوي قيمته الجنّة، وفي هذه الحالة فقط يصبح المال بضاعة ذات قيمة؛ أي عندما يُصرف في سبيل عمل مقدّس دعمًا للقوى المسلّحة، فمن البديهيّ أن تكون الجنّة هي المقابل لهذا المال. وعن رسول اللهﷺ أنّه قال: «من جهّز غازيًا أو خلّفه في أهله بخير فإنّه معنا»[١]؛ لذلك فإنّ الاهتمام بالمعاد يلعب دورًا كبيرًا على مستوى تشييد عظمة المجتمع الإسلاميّ ومجده. والله ليس شاريًا في ما عدا ذلك. يفوز الإنسان عندما يُقتل في هذا الطريق، وهو فائز أيضًا إذا أردى عدوَّه وعاد سالمًا: ﴿**فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾، وفي كلا الحالين تكون جنّة الخلد والحياة الأبديّة من نصيبه.

الخامس: الشاهد والدليل على هذه المعاهدة موسى الكليم عليه السلام وعيسى المسيح وخاتم الأنبياءﷺ، أي أنبياء الله العظام.

السادس: وثائق المعاملة الموثوقة هي القرآن الكريم والتوراة والإنجيل. إنّ الله تعالى الذي لا يبلغه إنسان بالوفاء بالميثاق والعهد يبارك لعباده هذا البيع والشراء، وعباده يبشّرون بعضهم بها، فهي معاملة مع الله تعالى، وفيها سعادة وفوز كبيرين، عدا عن ما يلحق بهم من نفع عظيم، فالله تعالى هو الذي أعطى عباده النفس والمال، وهو الذي

---

١. *مسند أحمد بن حنبل*، ج٥، ص٢٣٤.

يعيد شراءها وثمنها الجنّة. فالإنسان لم يدّخر من نفسه شيئًا، وقد وصل إلى ما وصل على إثر الهداية الإلهيّة والنفع العظيم.

تجدر الإشارة إلى أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بيّنت المصداق البارز للآية الشريفة أي أئمّة أهل البيت عليهم السلام؛ حيث يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «إنّما هم الأئمّة صلوات الله عليهم»[1]. والنفع يلحق كافّة الصالحين بناءً على مقدار معرفتهم بهذه التجارة؛ فهي تجارة مستمرّة إلى القيامة. حتّى الذين يعودون من جبهات الحرب سالمين، يحصلون على ثواب الشهيد؛ لأنّ من يحضر جبهة الحقّ على الباطل قد قدّم روحه على طبق من الإخلاص وباع نفسه مسبقًا، وحضورهم في ساحات الحرب لا يقلّ عن الذين أنجزوا معاملة البيع هذه و«إنّما الأعمال بالنيّات»[2].

أمّا سرّ استحقاق هذا الثواب الكامل، فلأنّ البائع وبعد استقرار عقد البيع وقانونه كان وفيًّا له، فسلّم نفسه وماله للمشتري، وبعد ذلك انتقل إلى جبهة الحقّ على الباطل، ولم يقصّر في الدفاع عن الكيان الإسلاميّ طبق أوامر المشتري، وهو مالك النفس والروح، إلا أنّه لم يستشهد، ومع ذلك فهو يستحقّ الثمن الكامل.

الشهادة، المغفرة والرحمة

إنّ الذي تعلّق بالحياة الدنيا الفانية وعشق أرزاقها وزينتها، قدّم الرفاه على الجهاد في سبيل الله، حتّى أنّ هؤلاء يصرّحون باعتراضهم واهتمامهم، ويقولون: لو كان الشهداء معنا لما ماتوا أو قتلوا: ﴿**وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾[3]. فزرع الله في قلوبهم الحسرة، ومن ثمّ جاءهم الجواب: ﴿**وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ**﴾[4]. وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج الآتي:

---

١. *نور الثقلين*، ج٢، ص٢٧٣.

٢. *بحار الأنوار*، ج٦٧، ص٢١٢، ح٤٠.

٣. آل عمران: ١٥٦.

٤. آل عمران: ١٥٧ و١٥٨.

أوّلًا: إذا مات الإنسان في سفر يحمل عنوان «سبيل الله» دخل رحمة الله الواسعة وغفر الله له.

ثانيًا: الشهادة مقام متعالٍ يحمل في طيّاته التكامل ولقاء الله.

ثالثًا: إنّ أيّ مخطّط دنيويّ لا يندرج في إطار القيم المتقدّمة هو حسرة وفق منطق القرآن الكريم، وهو باطل ونكبة وشهوة وعبادة للدنيا: ﴿**لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾[1].

رابعًا: إنّ موت جماعة أفضل من حياة الآخرين؛ لأنّ نصيبهم مغفرة الله ورحمته؛ لذلك يمكن الاستدلال بعد طيّ بعض المبادئ التي تحفظ الحدّ الوسط: فكلّ من استشهد في سبيل الله أو مات أثناء سفره إلى الله نصيبه مغفرة الله ورحمته (المقدّمة الأولى)، ورحمة الله ومغفرته أفضل من متاع الدنيا الذي جمعه الآخرون (المقدّمة الثانية). إذًا كلّ من استشهد في سبيل الله أو مات أثناء السفر إليه حصل له نفع أفضل من متاع الآخرين.

الشهادة والرجعة

يظهر من بعض الروايات (الواردة في ذيل الآيات المتقدّمة) أنّ الشهداء سيرجعون إلى الدنيا. يقول زرارة: «كرهت أن أسأل أبا جعفرعليه السلام عن الرجعة واستخفيت ذلك. قلت: لأسألن مسألة لطيفة أبلغ فيها حاجتي، فقلت: أخبرني عمن قتل أمات؟ قال: لا، الموت موت والقتل قتل. قلت: ما أحدٌ قتل إلّا وقد مات؟ فقال: قول الله أصدق من قولك فرّق بينهما في القرآن فقال: ﴿**أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ**﴾[2] وقال: ﴿**وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ**﴾، ليس كما قلت يا زرارة، الموت موتٌ والقتل قتل. قلت: فإنّ الله يقول: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...**﴾[3] قال: من قتل لم يذق الموت. ثُمَّ قَالَ: لا بدّ من أن يرجع حتّى يذوق الموت»[4].

وأشار الإمام الباقرعليه السلام في رواية أخرى موضحًا رجعة الشهداء، واعتبرها المصداق

---

١. آل عمران: ١٥٦.

٢. آل عمران: ١٤٤.

٣. آل عمران: ١٨٥.

٤. *نور الثقلين*، ج١، ص٤٠٣.

الأبرز لـ «سبيل الله»، وقد ورد في الرواية أنّه: «سئل عن قول الله ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ قال: أتدري يا جابر ما سبيل الله؟ فقلت لا والله إلّا أن أسمعه منك. قال: سبيل الله عليّ عليه السلام وذريّته. فمن قتل في ولايته قتل في سبيل الله، ومن مات في ولايته مات في سبيل الله. ليس من يؤمن من هذه الأمّة إلّا وله قتله وميتة. قال: إنّه من قتل ينشر حتّى يموت ومن مات يُنشر حتّى يُقتل»[١].

الشهادة ودخول الجنّة

يظهر من سياق القرآن الكريم أنّ الشهيد لا يعيش مراحل النزع، القبر، الضغطة، سؤال القبر و...، فيدخل الجنّة عند الشهادة مباشرة.

من أبرز النماذج على هذا الأمر، شهادة حبيب النجار التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[٢]؛ ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٣]، وقد خاطب الرسل: أنيّ آمنت بربّكم ومع كلّ الأذى الذي تعرّض له لم يكفر حبيب على الإطلاق.

نقل جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «ثلاثة لم يكفروا بالوحي طرفة عين: مؤمن آل ياسين وعليّ بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون»[٤]. وفي حديث آخر: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: عليّ بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون، فهم الصدّيقون وعليّ أفضلهم»[٥].

كان حبيب من أوّل المؤمنين والصادقين، وعندما قتلوه دخل جنّة البرزخ في اللحظة عينها: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٦].

استخرج العلّامة الطباطبائيّ نقاطًا ذات أهمّيّة بالغة من آيات هذه القصّة خلاصتها:

---

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٤٠٣.

٢. يس: ٢٠.

٣. يس: ٢١.

٤. *نور الثقلين*، ج٤، ص٣٨٣.

٥. م.ن.

٦. يس: ٢٦ و٢٧.

١. حبيب النجّار رجل عاديّ لم يكن له أيّ علاقة برسل أنبياء ذاك الزمان، وكان نور الإيمان يشعّ في قلبه بحيث صنع منه رجلاً صالحًا راسخًا وقدوة.
٢. وصلت دعوة الرسل إلى أقصى مناطق المدينة، فجاء هذا الرجل مصدّقًا الرسل وداعيًا الناس إلى الإيمان.
٣. بما إنّ اسمه لم يُذكر صراحة في القرآن الكريم، فهذا يدلّ على أنّ المهم في القضيّة هو هدفه؛ لذلك كان اهتمام القرآن بالهدف، حيث لا فائدة من ذكر اسمه.
٤. يبدو من كلامه أنّه كان من أصحاب المنطق والبرهان؛ لأنّه كان يواجه استدلالات الكافرين بالمنطق الصحيح.
٥. يُستنبط من سياق الآيات ونظمها ونضدها أنّ الناس قتلوه، فجاء النداء من ساحة القدس الإلهيّ: ﴿**ادْخُلِ الْجَنَّةَ**﴾، ويُفهم من هذا الكلام عدم وجود فاصل زمانيّ بين قتله في سبيل الله وبين دخوله الجنّة، وكأنّ شهادته إيذان بتلقّي الأمر بدخول الجنّة.
٦. المقصود من الجنّة في الآية الشريفة جنّة البرزخ: «القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران»[1].
٧. كانت أمنية الشهيد أن: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربيّ.
٨. من نِعَم الله الكبيرة عليه أن جعله من المكرمين[2].

الكرامة عبارة يرافقها المدح والثناء، وتعني العزّة والعظمة والحرمة والشرف والمروءة و...، حيث تستخدم هذه المصطلحات للمدح مع بعض الفوارق المفهوميّة؛ لذلك جاء في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[3]، وجاء في آية أخرى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾[4]. وقد ذُكر الإكرام الكامل الذي لا قيد ولا

---

١. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٢٧٥.
٢. *الميزان*، ج١٧، ص٧٦.
٣. الحجرات: ١٣.
٤. الفجر، ١٥.

شرط فيه في القرآن الكريم حول مجموعتين: الأولى هي الملائكة المقرّبون إلى الله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[١]؛ أي أنّهم تابعون لحكم الله في جميع الأقوال والأفعال والمجموعة الثانية، العباد الكاملون، سواء أكانوا من المخلصين الذين: يحافظون على صلاتهم، يدفعون حقوق الناس الماليّة، يؤمنون باليوم الآخر، يخافون عذاب الله، يحفظون فروجهم، يؤدّون الأمانات ويلتزمون بالعهود، ويشهدون بالحقّ، فهؤلاء الذين يجمعون هذه الصفات في جنّات مكرمون: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[٢]، وقد وصفهم الله تعالى بأنّهم من المخلَصين: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٣].

أفضليّة مداد العلماء على دماء الشهداء

إنّ التعمّق في آيات الشهادة يرشد إلى رؤية جديدة، حيث إنّ مقام الشهيد والشهادة متعالٍ وعظيم، و«الشهيد» مظهر اسم الله تعالى المبارك، وقد تكرّر ذكر هذا الاسم مرّات عدّة في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٤]، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾[٦] و... كما أنّ الآيات التي تتضمّن هذا الاسم العظيم تتضمّن مسائل ونقاطًا معرفيّة وعقائديّة عديدة. وأعلى مقام ذُكِر في الأحاديث الإسلاميّة هو للشهيد، ومن جملة الأحاديث التي ذُكرت في هذا المقام ما نُقل عن الإمام الرضا عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام وسؤاله الرسول صلى الله عليه وآله بعد عودته من غزوة «ذات السلاسل» حول أجر الشهداء. حيث يختلف هذا المقام العظيم باختلاف الأفراد وخصالهم ودرجات إخلاصهم وإيمانهم وتقواهم، وبعبارة أخرى الشهادة عبارة عن حقيقة نورانيّة ذات درجات، وقد رُوي أنّ الشهداء مع

---

١. الأنبياء: ٢٦ و٢٧.

٢. المعارج: ٣٥.

٣. الصافات: ٤٠-٤٣.

٤. الحج: ١٧.

٥. المجادلة: ٦؛ البروج: ٩.

٦. النساء: ٣٣؛ الأحزاب: ٥٥.

الإمام الحسين عليه السلام كالشهداء مع رسول الله صلى الله عليه وآله[١]. يقول الإمام الصادق عليه السلام حول عمّه زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، (شهيد الفخّ): «مضى والله عمّي شهيدًا كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم[٢]»، وذكر الإمام زين العابدين عليه السلام أنّ فضل شهداء أهل البيت عشرة أضعاف سائر الشهداء، وفضل شهداء الشيعة سبعة أضعاف غيرهم: «لشهيدنا فضل على الشهداء غيرنا بعشر درجات، ولشهيد شيعتنا على شهيد غيرنا سبع درجات»[٣]، وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّ فضل الشهداء الشيعة على غيرهم تسع درجات: «فشهداؤنا لهم فضل على الشهداء بعشر درجات، ولشهيد شيعتنا فضل على كلّ شهيد غيرنا بتسع درجات»[٤].

من جهة أخرى لا يخفى على أحد مقام العلم والتعقّل. والعلم يعني المعرفة، اليقين، التلقّي، الإدراك، الاستقامة، المعرفة الدقيقة وحضور المعلوم عند العالم، فالعلم يضيء روح الإنسان ويرتقي به من حضيض الجهل إلى أوج العظمة.

المقصود من العلم هنا كل معرفة تندرج في مسير لقاء الله وبه تختتم، والمعرفة التي تقع في طريق السعادة وإيقاظ الفطرة، فتؤخذ من مشكاة النبوّة، تضيء القلب وترشد المجتمع إلى الفضائل. العالم الذي يكتب ويدوّن طبق هذه الأهداف، تكون كتابته مرجّحة على دماء الشهداء، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناس في صعيد واحد، وُوضعت الموازين، فتُوزن دماء الشهداء، مع مداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٥].

وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا المضمون: «إذا كان يوم القيامة وُزِن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٦].

---

١. *بحار الأنوار*، ج٤٤، ص٣٠١.
٢. م.ن، ح٤٦، ص١٧٥.
٣. م.ن، ج٢٣، ص٣١٤.
٤. م.ن، ج٢٦، ص٢٤٣.
٥. *بحار الأنوار*، ج٢، ص١٤؛ ج٢٧، ص٢٢٦.
٦. م.ن، ج٢، ص١٦.

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول العلم والعلماء في كلام له يخاطب به كميل بن زياد وهو من خواص أصحابه:

«يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، إِنَّ هٰذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْل هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْمًا جَمًّا (وَأَشَارَ إِلى صَدره) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَصَبْتُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ...»[١].

إنّ ترجيح مداد علماء الله على دماء الشهداء واضح، ولعلّ من أبرز مصاديقها فتوى تحريم التنباك التي أصدرها الميرزا الشيرازي الكبير (قدس الله نفسه الزكية)، ومن مصاديقها أيضًا بيانات الإمام الخميني قدس سره، وهزيمة أميركا في إيران وانتصار الإسلام على الكفر والنفاق بشكل نهائيّ.

---

١. *نهج البلاغة*، الحكمة ١٤٧.

الفصل الثامن
علامات القيامة

أشراط الساعة

تحصل بعض الأحداث على أعتاب القيامة، وهي المعروفة بـ «أشراط الساعة»، أي علامات القيامة، وهنا نشير إلى بعضها:

١. ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[١].

يؤكّد المفسّرون في أحد أوجه تفسير الآية الشريفة أنّ المقصود من الدخان المبين هو الدخان الغليظ الذي يظهر في السماء على أعتاب القيامة.

نقل حذيفة بن اليمان عن رسول اللهﷺ أنّ ثمّة أربع علامات ليوم القيامة: «الدجّال، ونزول عيسى؈، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا، والدخان«قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟» فتلا رسول اللهﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يومًا وليلة، أمّا المؤمن، فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنه ودبره»[٢].

ووردت العديد من الأحاديث الأخرى التي ذكرت المضمون عينه. يقول أبو مالك الأشعريّ: قال رسول اللهﷺ: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثًا: الدخان يأخذ المؤمن منه كالزكمة، ويأخذ الكافر فينفخ حتّى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابّة، والثالثة الدجّال»[٣].

---

١. الدخان: ١٠.

٢. *الدر المنثور*، ج٧، ص٤٠٨.

٣. *الدر المنثور*، ج٧، ص٤٠٨.

نقل الإمام أمير المؤمنين‰ عن رسول الله‰: «عشر قبل الساعة لا بدّ منها: السفيانيّ، والدجّال، والدخان، والدابّة، وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى‰، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»[١].

٢. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[٢].

من جملة علامات القيامة وجود الرسول الأكرم‰، وقد جمع بين إصبعيه وقال: «بُعثت أنا والساعة كهاتين»[٣]. وأطلق على رسول الله‰ لقب نبيّ «آخر الزمان».

ومن علامات القيامة ضلال الناس. قال رسول الله‰: «ومن أشراط الساعة أن يدفع العلم ويظهر الجهل، ويشرب الخمر ويفشو الزنا»[٤].

ووردت بعض الروايات التي فصّلت الحديث في علامات القيامة، ومنها ما نقله ابن عباس عن رسول الله‰: قال حججنا مع رسول الله‰ حجّة الوداع، فأخذ بحلقة باب الكعبة، ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال: «ألا أخبركم بأشراط الساعة»، وكان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان‰، «فقال: بلى يا رسول الله...».

فقال: من أشراط القيامة إضاعة الصلوات واتّباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء ممّا ترى من المنكر، فلا يستطيع أن يغيّره، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، إنّ عندها يليهم أمراء جَوَرَة ووزراء فسقَة، وعرفاء ظلمة وأمناء خونة، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده، يا سلمان إنّ عندها يكون المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، ويؤتمن الخائن ويخون الأمين، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

---

١. *بحار الأنوار*، ج٥٢، ص٢٠٩.

٢. محمّد: ١٨.

٣. *الدر المنثور*، ج٧، ص٤٦٧.

٤. *نور الثقلين*، ج٥، ص٣٧.

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، فعندها تكون إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب ظرفًا، والزكاة مغرمًا، والفيء مغنمًا، ويجفوا الرجل والديه ويبرّ صديقه، ويطلع الكوكب المذنّب، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندما تشارك المرأة زوجها في التجارة، ويكون المطر قيظًا، ويغيظ الكرام غيظًا، ويُحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئًا وقال: هذا لم أربح شيئًا، فلا ترى إلاّ ذامًّا لله، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم، وإن سكتوا استباحوهم ليستأثرون بفيئهم وليطأنّ حرمتهم؛ وليسفكنّ دماءهم، ولتملأن قلوبهم غلاًّ ورعبًا، فلا تراهم إلاّ وجلين خائفين مرهوبين. قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان إنّ عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب يلون أمّتي، فالويل لضعفاء أمّتي منهم، والويل لهم من الله، لا يرحمون صغيراً ولا يوقّرون كبيراً، ولا يخافون عن مسيء، جثّتهم جثّة الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين. قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ويُغار على الغلمان كما يُغار على الجارية، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وتركبن الفروج السروج، فعليهنّ من أمّتي لعنة الله. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

فقال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، إنّ عندها تُزخرف المساجد كما تُزخرف البِيَع والكنائس، وتحلّى المصاحف وتطول المنارات وتكثر الصفوفات والقلوب متباغضة، والألسن مختلفة، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان؛ وعندها تحلّى ذكور أمّتي بالذهب، ويلبس الحرير والديباج؛ ويتّخذون جلود التمور صفاقًا. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها يظهر الزنا، ويتعاملون بالغيبة والرشى، ويوضع الدين وترفع الدنيا، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها يكثر الطلاق، فلا يقام لله حدّ، ولن يضرّوا الله شيئًا. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها تظهر القينات والمعازف، ويليهم أشرار أمّتي. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها يحجّ أغنياء أمّتي للنزهة، ويحجّ أوساطها للتجارة، ويحج فقراؤهم للرياء والسمعة، فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله ويتّخذونه مزامير، ويكون أقوام يتفقّهون لغير الله، وتكثر أولاد الزنا ويتغنّون بالقرآن ويتهافتون بالدنيا. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، ذاك إذا انتُهكت المحارم واكتُسبت المآثم وتسلّط الأشرار على الأخيار، ويفشوا الكذب وتظهر اللجاجة، وتفشو الفاقة ويتباهون في اللباس، ويمطرون في غير أوان المطر، ويستحسنون الكوبة والمعازف، وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذلّ مَن في الأمّة، ويظهر قرّاؤهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم، فأولئك يُدْعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان؛ فعندها لا يخشى الغنيّ على الفقير، حتّى أنّ السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدًا يضع في كفّه شيئًا. قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

فقال: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، فعندها يتكلم الرويبضة ؛ فقال سلمان: وما الرويبضة يا رسول الله فداك أبي وأمي؟ قالﷺ: يتكلم في أمر العامّة من لم يكن يتكلّم، فلم يلبثوا إلاّ قليلاً، حتى تخور الأرض خورة فلا يظنّ كلّ قوم إلاّ أنّها خارت في ناحيتهم، فيمكثون ما شاء الله، ثمّ ينكتون في مكثهم فتلقي لهم الأرض أفلاذ كبدها، قال ذهب

وفضة ـ ثمّ أومى بيده إلى الأساطين ـ فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضّة، فهذا معنى قوله: «فقد جاء إشراطها»[١].

٣. في يوم من الأيان تُطوى صفحة الكائنات: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[٢].

تتحوّل الكائنات على أعتاب القيامة كالآتي:

أ) تُجمع الشمس وينتهي نورها ويتضاءل حجمها وتخمد بالكامل؛ وما ثبت اليوم أنّ نور الشمس يخفت بالتدريج، ولعلّ هذا الأمر شاهد محتمل على انتهائها.

ب) يوم تفقد النجوم السماء ضياءها وبريقها وتتفرّق وتسقط وتخرج عن سيطرة النظام الحاليّ: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾[٣]، ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾[٤].

ج) يوم تتحرّك الجبال كأنّها سراب: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[٥]، وعلى أعتاب القيامة تزال الجبال وتدكّ دكًّا: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[٦] وتتحوّل إلى تلّ من الرمال المتحرّكة: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾[٧]. ثمّ تكون على صورة الصوف المنفوش: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[٨] ومن ثمّ يتحوّل إلى غبار ينتشر في السماء: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾[٩] ثمّ لا يبقى أثر لهذا الغبار، فيتحوّل إلى «سراب»، بل لا يبقى له أثر على الإطلاق، حيث تكون الأرض مسطّحة لا أثر

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٣٤ وما بعدها؛ *بحار الأنوار*، ج٦، ص٣٠٥ وما بعدها.

٢. التكوير: ١-٧.

٣. الانفطار: ٢.

٤. المرسلات: ٨.

٥. النبأ: ٢٠.

٦. سور الحاقة: ١٤.

٧. المزمل: ١٤.

٨. القارعة: ٥.

٩. الواقعة: ٥ و٦.

لشيء فيها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[١]. وهكذا يكون مصير الجبال عند القيامة، حيث ينتهي وجودها على الأرض ضمن مرحلة أو مراحل متعدّدة.

عَدّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أوصاف القيامة فقال: «وتدكّ الشّم الشوامخ والصم الرواسخ، فيصير صلدها سرابًا رقرقًا ومعهدها قاعًا سملقًا»[٢]. لعلّ السبب في تفتّت الجبال وتحوّلها إلى سراب هو الزلزال الذي يحصل على أعتاب القيامة: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾[٣].

د) في تلك الحال تُنسى أكثر الأموال قيمة وينسى الإنسان كلّ شيء لشدّة الخوف والوحشة.

هـ) على أعتاب القيامة والتحوّلات التي تحصل على الأرض تجتمع الحيوانات الوحشيّة البعيدة عن بعضها في الأحوال العاديّة، والتي قد يكون بعضها عدوًّا للآخر، وينسى كلّ شيء، وكأنّهم يحاولون التخفيف من الوحشة باجتماعهم.

و) في ذاك الوقت تثور الجبال، مع العلم أنّ سبب ثورانها غير معلوم لنا اليوم، ومهما كان السبب إلاّ أنّه سيكون شديدًا، حيث تحرق النار الماء ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[٤]، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[٥] ولا يبقى أيّ شيء من الأرض: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[٦]؛ حيث تُدكّ الأرض وتصبح مستوية.

ز) في ذاك اليوم يكون لكلّ شخص قرين.

ح) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾[٧]. على أعتاب القيامة تضطرب كرات السماء ويحكمها عدم النظم، وتصبح غبارًا يحرّكها الريح في أيّ اتّجاه، لا بل

---

١. طه: ١٠٥ و١٠٦.
٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٩٥.
٣. المزمل: ١٤.
٤. التكوير: ٦.
٥. الانفطار: ٣.
٦. الفجر: ٢١.
٧. الطور: ٩ و١٠.

تطوى السماء ببعضها: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[١]. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[٢]. في ذلك اليوم يفقد القمر نوره وينطفئ نور الشمس، عند ذلك يقول الإنسان: أين طريق المفرّ، ولكن لا سبيل لذلك: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[٣].

٤. ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[٤]. إنّ كل الآيات المتقدّمة تدل على حصول تحوّل عظيم مخيف ومزلزل يظهر في السماء والأرض.

٥. ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٥]. ذكر المفسرون أنّ نزول النبي عيسى عليه السلام هو من علامات القيامة.

يقول جابر بن عبد الله: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صلّ بنا، فيقول: لا، إنّ بعضكم على بعض أمراء تكرمة من الله لهذه الأمّة»[٦]. وجاء في حديث آخر: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم»[٧].

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[٨].

تحدّثت الآيات الشريفة عن علامتين من علامات القيامة:

الأوّل انهدام سدّ يأجوج ومأجوج وهجومهما على الناس، والثانية نفخ صور الموت.

انهدام سدّ يأجوج ومأجوج

وردت العديد من الروايات التي تحدّثت عن انهيار السدّ بأيدي يأجوج ومأجوج

١. الأنبياء: ١٠٤.
٢. إبراهيم: ٤٨.
٣. القيامة: ٨-١١.
٤. الرحمن: ٣٧.
٥. الزخرف: ٦١.
٦. *نور الثقلين*، ج٤، ص٦١١.
٧. م.ن.
٨. الكهف: ٩٨ و٩٩.

وهجومهما على الناس، جاء في رواية عن الرسول الأكرمﷺ الحديث عن خروج يأجوج ومأجوج إلى جانب علامات أخرى:

«إنّكم لا ترون الساعة حتّى تروا قبلها عشر آيات طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، ودابّة الأرض وثلاثة خسوف تكون في الأرض، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وخروج عيسى بن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، وتكون في آخر الزمان نار تخرج من اليمن من قعر الأرض لا تدع خلفها أحدًا، تسوق الناس إلى المحشر كلّما قاموا قامت لهم تسوقهم إلى المحشر»[١].

النفخ في الصور

تحدّثت العديد من الآيات والروايات التي تناولت القيامة وأشراطها حول مسألة «نفخ الصور»، فذكرت أنّ هناك نفختان: الأولى النفخ في صور الموت والذي يحصل قبل قيام العامّة، والثانية النفخ في صور الحياة على أعتاب الحياة والاستعداد للمحشر: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾[٢].

تجدر الإشارة إلى أنّ القرآن المجيد استعمل ألفاظًا أخرى بدلاً عن النفخ في الصور من أمثال: «الصيحة»، «نقر في الناقور»، «الصافة»، «القارعة» و«الزجرة».

النفخة الأولى

تحدّثت بعض الآيات الشريفة عن النفخة الأولى، فجاء فيها:

١. ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**﴾[٣].

---

١. *نور الثقلين*، ج٣، ص٣٠٩؛ *بحار الأنوار*، ج٦، ص٣٠٤.

٢. الزمر: ٦٨.

٣. الحاقة: ١٣-١٦.

٢. وعن رسول اللهﷺ أنّه قال: «إنّ الناس يُصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميت إلا نشر، ولا حَيّ إلاّ مات، إلاّ ما شاء الله، ثمّ يُصاح بهم صيحة أخرى فينشر من مات...»[١].

٣. ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[٢]. وتحدّثت بعض الروايات الشريفة حول القيامة من ناحية كونها دفعيّة وفجائيّة: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتّى تقوم الساعة والرجل أُكْلَتَه إلى فيه فما تصل إلى ما فيه حتّى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم»[٣].

٤. ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾[٤]. وجاء في حديث عن رسول اللهﷺ: «يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع، قال فيمدّها ويطوّلها»[٥].

٥. ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[٦].

يقول بعض المفسّرين إنّ «القارعة» اسم للقيامة، ويعتقد آخرون أنّها عبارة عن تفرّق الناس وتحويل الجبال إلى قطن متفرّق عند القيامة، ويمكن اعتبار القارعة صوتًا قويًّا يصدر قبل القيامة.

النفخة الثانية

تدلّ بعض الآيات الشريفة على النفخة الثانية، ومنها:

١. ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[٧].

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٠٣.

٢. يس: ٤٩.

٣. *نور الثقلين*، ج٤، ص٣٨٨.

٤. ص: ١٥.

٥. *التفسير الكبير*، ج٢٦، ص١٨٢.

٦. القارعة: ١-٥.

٧. النمل: ٨٧.

٢. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾[1].
٣. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[2].
٤. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[3].
٥. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[4].
٦. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[5].
٧. ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾[6]؛ وهذا يعني أنّ ذاك اليوم هو يوم ظهور الحقّ وتجلّي السلطة الإلهيّة الكاملة، وإلّا فكلام الله تعالى حقّ دائمًا والسلطة على نظام الوجود له باستمرار.
٨. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[7].
٩. ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[8].
١٠. ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[9].
١١. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[10]؛ وهذا يعني أنّ الصيحة حقّ؛ لأنها ليست من أحد سوى الله تعالى، وسماعها ليس من سنخ الباطل، فلا مجال يومئذٍ للباطل.
١٢. ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[11].

---

١. يس: ٥١.
٢. المؤمنون: ١٠١.
٣. الكهف: ٩٩.
٤. طه: ١٠٢.
٥. النبأ: ١٨.
٦. الأنعام: ٧٣.
٧. ق: ٢٠.
٨. يس: ٥٣.
٩. المدثر: ٨ و٩.
١٠. ق: ٤٥.
١١. عبس: ٣٣-٣٧.

١٣. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾[١].

ملاحظة: توجد العديد من الآيات والروايات في هذا الشأن، وقد أشرنا إلى بعضها، ولا وجود للتنافي والتعارض بينها؛ لأنّ مراحل قرب وبعد القيامة مختلفة، كما أنّ الأوصاف والمبدأ الفاعلي والقابل لعلائم المعاد ليست على السوية.

ما هو الصوْر؟

ذُكر في معاني الصوْر عدد من الأوجه:

١. الصوْر هو مجموعة الأشكال، المعاني والأوصاف.

٢. الصوْر استعارة للقيامة والنشور، وأغلب المفسّرين رفضوا الوجهين؛ حيث لا دليل عليهما.

٣. التفسير الأنسب الذي أيّدته الروايات هو التالي:

سئل رسول الله ﷺ عن معنى الصور فقال: «قرن من نور التقمه إسرافيل»[٢]. وجاء في حديث آخر: «أن فيه ثقبًا بعدد كلّ إنسان، ثقبه فيها روحه»[٣].

إذًا لو كان هذا الصور من جنس النور، وكانت أرواح الناس فيه، وانطلاقًا من أنّ الألفاظ يتم وضعها لمعانيها الابتدائيّة والمحسوسة، للزم أن يصدق اسم الصور عليها من باب التشبيه، ولكن وبناءً على المبنى الصحيح، حيث توضع الألفاظ لأرواح المعاني وأهدافها، وأن أيًّا من المصاديق على امتداد الأعصار والأمصار لا دخالة لها بذلك، فإن إطلاقه على وسيلة نورية هو من سنخ الحقيقة، وليس من سنخ المجاز المرسل بالتشبيه. على كلّ الأحوال يتمّ إحضار الجميع في القيامة بوسيلة كما يتمّ إحضار العسكر لأهداف متعددة في المعسكر كالاستعداد، والحركة والتفرّق؛ لذلك جاء في الحديث: إنّ صور القيامة قرن من نور لا صوت له على وجه الخصوص[٤]؛ لذلك تحدّثت الآيات الشريفة عن الصور بعناوين: «الصيحة»، «الصاخّة»، «الزجرة»، و«القارعة».

---

١. الصافات: ١٩.

٢. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٣٢١؛ *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٨٩.

٣. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٩٠.

٤. *علم اليقين*، ج٢، ص١٠٨٩.

إذًا نفخ الصورة عبارة عن دعوةٍ أو «صوتٍ خاصّ» يُطلق تارة، فتموت الخلائق، ويطلق أخرى فتحيا منه من جديد للبعث والنشور، وهذا الصوت قويّ إلى درجة بحيث يسمعه كلّ مَا في السماوات والأرض.

يقول الإمام السجّادعليه السلام:

«إنّ الله يأمر إسرافيل فيهبط إلى الدنيا ومعه صور، وللصور رأس واحد وطرفان، وبين طرف كلّ رأس منهما ما بين السماء والأرض... فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت ومن الطرف الذي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض ذو روح إلاّ صعق ومات، ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات، فلا يبقى في السماوات ذو روح إلاّ صعق ومات...»[1].

تركت هذه المسألة أثرها الكبير على الإمام السجّادعليه السلام، حتّى أنّه يبكي بشدّة: «فرأيت علي بن الحسين (صلوات الله عليهما) يبكي عند ذلك بكاءً شديدًا»[2].

إنّ بكاء الإمام السجّادعليه السلام هو درس عظيم في تهذيب النفس وبنائها واستعداد الإنسان لهذا اليوم، وهو في الحقيقة سوط على أرواح سالكي طريق الله.

تجدر الإشارة إلى أنّ مسألة نفخ الصور كثيرة التعقيد والأسرار والرموز، من هنا كتب العلاّمة المجلسيرحمه الله:

«وأمّا الصور فيجب الإيمان به على ما ورد في النصوص الصريحة، وتأويله بأنّه جمع للصورة كما مَرّ من الطبرسي[3]، وقد سبقه الشيخ المفيدرحمه الله، فهو خروج عن ظواهر الآيات بل صريحها، إذ لا يتأتّى ذلك في النفخة الأولى، ويأبى عنه أيضًا توحيد الضمير في قوله تعالى: «ونُفخ فيه أخرى» وإطراح للنصوص الصحيحة الصريحة من غير حاجة.

---

١. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٣٢٤.

٢. *بحار الأنوار*، ج٦، ص٣٢٥.

٣. صاحب التفسير.

وقد قال سيّد الساجدين (صلوات الله عليه) في الدعاء الثالث من الصحيفة الكاملة: «إسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن، وحلول الأمر فينبّه بالنفخة صدعى رهائن القبور»[١].

ولا شكّ أنّ طريق النجاة الوحيد هو الإيمان بما وصل من وحي إلهيّ في القرآن وسنّة المعصومين عليهم السلام، والبحث التفصيليّ حول العناوين المتقدّمة، مرهون بالعلم بصحّة صدور خصوصيّات النصوص المأثورة، وليس من السهل إحراز هكذا علم في المسائل الاعتقاديّة والكلاميّة، مع العلم أنّ ذلك سهل في المسائل الفرعيّة والفقهيّة.

نفخ الصور الثاني ويوم المحشر

يُحشر كلّ إنسان في القيامة على صورة أخلاقه وملكاته الباطنيّة، فإن كان الشخص من أصحاب العبادة والدقّة في أسرارها والعمل بأحكامها، حُشر يوم القيامة على أجمل صورة، وإن كان من الأشخاص العاديّين الذي يعملون بالأحكام الظاهريّة فقط، يُحشر على صورة إنسان يضيء النور أمام خطواته، وإن لم يكن الشخص من أهل عبادة الله، فيحشر على صورة ملكاته التي حَصّلها وتربّى عليها.

جاء في القرآن الكريم: ﴿**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا**﴾[٢]، وقد قال المفسّرون إنّ الأموات عند النفخ الثاني يدخلون المحشر مجموعات، على خلاف النفخ الأوّل الذي يؤدّي إلى موت الجميع.

نُقل حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في تفسير ذيل الآية الشريفة يقول:

«يحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتًا قد ميّزهم الله تعالى من المسلمين وبدّل صورهم بعضهم على صورة القردة؛ وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكّسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت، ثمّ يُسحبون عليها، وبعضهم عمى يتردّدون، وبعضهم صمّ وبكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعابًا، يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطّعة أيديهم

---

١. م.ن، ص٣٣٦.

٢. النبأ: ١٨.

وأرجلهم، وبعضهم مصلَّبون على جذوع من نار، وبعضهم من الجيف، وبعضهم يلبسون جبابًا سابغة من قطران لازقة بجلودهم، فأمّا الذين بصورة القردة فالفتات من الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير، فأهل السحت، وأمّا المنكَّسون على رؤسهم فآكلة الربا والعمى الجائرون في الحكم، والصمّ البكم المعجبون بأعمالهم، والذي يمضغون بألسنتهم العلماء، والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلّبون على جذوع من نار، فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين أشدّ نتنًا من الجيف، فالذين يتمتّعون بالشهوات واللذّات، ويمنعون حقّ الله تعالى في أموالهم، والذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء»[١].

بالإضافة إلى شهادة الجوارح، فإنّ كلّ واحدة من المجموعات المتقدّمة الذكر يشهد على نفسه: ﴿**وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾[٢]، ويعترفون بذنوبهم: ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ**﴾[٣]، وهو اعتراف وإقرار تصدّقه فطرة الإنسان ويشهد به من صميم القلب؛ مع العلم أن لا مجال في الآخرة للإيمان.

ملاحظة: إنّ شهادة جوارح الإنسان عليه تقبل التصوّر، باعتبار أنّ الشاهد غير المشهود عليه؛ فالنفس هي المجرم، وليس الأعضاء والجوارح التي إن تحدّثت ينطبق عليها عنوان الشهادة، إلّا أنّ شهادة النفس على ذاتها بحاجة إلى تأمّل. ولا شكّ أنّه إذا كانت هذه الشهادة، أي شهادة النفس على ذاتها، تعود إلى الاعتراف، وكان مضمون الآيات المتقدّمة في ما يرتبط بمفردتني (الشهادة والاعتراف) واحدًا، فإنّ ذلك جدير بالقبول.

يوم ظهور العمى والصمم والجنون

يُحْشر بعض الناس يوم القيامة عميًا وقد كانوا في الدنيا يبصرون، وقد ذكر القرآن الكريم

---

١. مجمع *البيان*، ج٩-١٠، ص٦٤٢؛ *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٩٣.

٢. الأنعام: ١٣٠.

٣. الملك: ١١.

مشتهد عن هؤلاء الأشخاص عَلّها تكون مفيدة للناس اليوم ليعود البعض عن ضلالهم: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾[١]، هذا كلام شخص عاش في الدنيا، وكان اهتمامه مصبوبًا على عالم الطبيعة، وهو غافل عن عالم الآخرة وعن الحقائق والمعارف الإلهيّة، حيث نسي آيات الله؛ والله تعالى يجيبه: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[٢]. فمن لم ير جمال الله في الدنيا، فيجب أن يشاهد في الآخرة آيات جلاله وقهره ويتلمّس السوط في روحه وبدنه، فالله تعالى: «أشدّ المعاقبين»[٣].

يقول سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام: «عميت عينٌ لا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيبًا»[٤]. الكلام هنا ليس لعنًا [عميت] بمعنى طلب العمى، بل الكلام هنا عن حقيقة، أي عن عماه. ويتّضح يوم القيامة أنّ هؤلاء الأشخاص وإن كانوا يبصرون في الدنيا، إلّا أنّهم كانوا عمي القلوب: ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٥]، حيث يصبح الباطن في القيامة ظاهرًا، ويصوّر الظاهر على شكل الباطن، وبما أنّ باطنهم أعمى، لذلك سيكون ظاهرهم أعمى في القيامة.

لقد خُدع هؤلاء بالحياة الدنيا الدنيّة، فنسوا الله والقيامة بشكل كامل؛ لذلك فإنّ من البديهيّ أن يتمّ نسيانهم، وأن يُحرموا من اللطف: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٦]. لقد خسر هؤلاء عمرهم الذي هو رأسمالهم: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[٧]. ومن ينسى رأسماله الأساس كيف له أن ينجز معاملة مربحة؟!.

وكما هو الحال في العمى، كذلك الأمر في صمّ الأذان. إنّ الذي أصغى في الدنيا للباطل ولم يستمع للحقّ كيف تكون له أذن واعية في الآخرة؟! بل يكون صممهم

---

١. طه: ١٢٥.
٢. طه: ١٢٦.
٣. *مفاتيح الجنان*، دعاء الافتتاح.
٤. م.ن، القسم النهائي من دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.
٥. الحج: ٤٦.
٦. الأعراف: ٥١.
٧. الأعراف: ٥٣.

الباطنيّ في القيامة أكثر بروزاً. يقول الرسول الأكرمﷺ: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[١]. وعلى هذا الأساس يجب توخّي الدقّة فيمن نصغي إليه.

لقد أتمّ الله الحجّة، والله لا يترك شخصًا من دون دليل ومن دون مصباح هداية، حيث يهيّئ له أسباب الرؤية من الداخل والخارج: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[٢]؛ فمن كان مبصرًا كان نفعه لنفسه، ومن كان أعمى ولم يقبل، فقد جنى على نفسه؛ حيث غفل في الدنيا عن المعارف الإلهيّة وعن رحمة الله. إذًا من ينسى ذكر الله كانت حياته ضيّقة ومظلمة، يضاف إلى ذلك أنّه يُحشر يوم القيامة أعمى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٣].

أمّا مجانين الآخرة فهم الذين لم يكونوا من أصحاب العقل العمليّ في الدنيا، مع أنّهم كانوا لا يعتبرون بين الناس من المجانين. العقل وسيلة عبادة الله وتحصيل الجنّة: «العقل... ما عبد به الرحمان واكتُسب به الجنان»[٤]، وعليه فالذي لا يتواضع أمام الله مجنون ويُحشر يوم القيامة مجنونًا.

الغريب أنّ مثل هذا الإنسان يكون في القيامة عاقلاً من ناحية العقل النظريّ، ويدرك كلّ شيء ويقول: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٥]؛ لذلك يشعر مجانين الآخرة بالخجل والفضيحة؛ لأنّهم يدركون أنّهم مجانين، على العكس من مجانين الدنيا الذين لا يدركون جنونهم. إنّ مجانين الآخرة مفتضحون ويدركون افتضاحهم، وهو عذاب يضاف إلى عذابهم البدنيّ. جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٦]، وإذا فقد الإنسان أساس التوحيد والإيمان

---

١. *بحار الأنوار*، ج٢٦، ص٢٣٩.

٢. الأنعام: ١٠٤.

٣. طه: ١٢٤.

٤. *أصول الكافي*، ج١، ص١١، *كتاب العقل والجهل*، ح٣.

٥. الملك: ١٠.

٦. البقرة: ٢٧٥.

والعمل الصالح (أي العقل الذي به تحصل هذه الأمور)، يُحشر مجنونًا؛ أمّا السرّ في تخبّط المرابين في القيامة فهو أنّ باطنهم فارغ من العقل العمليّ، وهذا الباطن هو الذي يظهر في القيامة.

الحشر مع المحبوب

جاء في القرآن الكريم أنّ اتّباع نبيّ الإسلامﷺ هو محور حبّ الله تعالى، والإنسان الذي يحبّ الله ويعشقه هو الذي يطيع الرسولﷺ في تعاليمه وأوامره: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[١].

يقول العلاّمة الطباطبائيّ قدس سره:

«فالمراد ـ والله أعلم ـ إن كنتم تريدون أن تخلصوا لله في عبوديّتكم بالبناء على الحبّ حقيقة، فاتبعوا هذه الشريعة التي هي مبنيّة على الحبّ الذي ممثّله الإخلاص والإسلام، وهو صراط الله المستقيم الذي يسلك بسالكه إليه تعالى، فإن اتبعتموني في سبيلي وشأنه هذا الشأن أحبّكم الله، وهو أعظم البشارة للمحبّ، وعند ذلك تجدون ما تريدون، وهذا هو الذي يبتغيه محبّ بحبّه هذا»[٢].

وهنا نشير إلى بعض الروايات في هذا الخصوص:

١. جاء أعرابيّ إلى النبيّﷺ فقال:

«يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال: ما أعددتَ لها؟ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة وصيام، إلاّ أنيّ أحبّ الله ورسوله، فقال له النبيﷺ: المرء مع من أحبّ». قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[٣].

٢. قال رسول اللهﷺ:

---

١. آل عمران: ٣١.

٢. *الميزان*، ج٣، ص١٨٤.

٣. *المحجة البيضاء*، ج٨، ص٦؛ *بحار الأنوار*، ج٢٧، ص٨٥.

«أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبّوني لحبّ الله عزّ وجلّ، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي»[١].

٣. عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال:

«جاء رجل من الأنصار إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال يا رسول الله، ما أستطيع فراقك، وإنيّ لأدخل منزلي فأذكرك، فأترك ضيعتي وأقبل حتى أنظر إليك حبًّا لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة فأدخلت الجنّة، فرفعت في أعلى علّيّين فكيف لي بك يا نبيّ الله، فنزل ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ * مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ * وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾»[٢].

٤. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من رزقه الله حبّ الأئمّة من أهل بيتي، فقد أصاب خير الدنيا والآخرة، فلا يشكّن أحد أنّه في الجنّة، فإنّ في حبّ أهل بيتي عشرين خصلة، عشر منها في الدنيا، وعشر في الآخرة: أمّا في الدنيا فالزهد، والحرص على العمل، والورع في الدين، والرغبة في العبادة، والتوبة قبل الموت، والنشاط في قيام الليل، واليأس ممّا في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه عزّ وجلّ، والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء؛ وأمّا في الآخرة فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان، ويعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النار، ويبيض وجهه، ويكسى من حلل الجنّة، ويشفع في مئة من أهل بيته، وينظر الله عزّ وجلّ إليه بالرحمة ويتوّج من تيجان الجنّة، والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب، فطوبى لمحبّي أهل بيتي»[٣].

---

١. *بحار الأنوار*، ج٢٧، ص٧٦، ٨٦، ١١١، ١٤٣.

٢. *الدر المنثور*، ج٢، ص٥٨٨؛ *الميزان*، ج٤، ص٤١٣.

٣. *بحار الأنوار*، ج٢٧، ص٧٨.

أمّا السرّ في تأثير هذه المحبّة، فأنّها ذات صبغة إلهيّة، وكلّ ما فيه شيء من وجه الله كان له نصيب من البقاء: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1] وكلّ محبّة ليس فيها هذه الخاصّية الإلهيّة لا تبقى.

وعلى هذا الأساس، قد يكون الأصدقاء في الدنيا أعداءً لبعضهم في الآخرة: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[2]، والقيامة هي اليوم الذي تظهر فيه الصداقة والعدواة على وضوحهما.

أقسام الناس الثلاثة في الآخرة

قَسّم القرآن الناس في العالم الآخر إلى ثلاثة أقسام على النحو الآتي:

١. رافضو المعاد الذين لا يعتقدون به، وهم الذين حضروا الآخرة من دون زاد، ومصيرهم عذاب عظيم.

٢. المعتقدون بالمعاد الذين يعملون حسب اعتقادهم، ويبذلون جهودًا على قدر استطاعتهم، وخاتمة هؤلاء المغفرة والجنّة المحسوسة.

٣. المجموعة الثالثة هم الذين أضافوا إلى اعتقادهم الصحيح والعمل الحسن، الارتقاء إلى أعلى نقاط الكمال، وهم الذين وصلوا إلى مقام الرضى والرضوان عند مليك مقتدر.

أشار القرآن الكريم إلى مصير المجموعات الثلاث في الآية الشريفة: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[3] وعلى هذا الأساس حدّد ثلاثة عناوين للناس: أصحاب الشمال، أصحاب اليمين، والمقربون؛ أصحاب الشمال يعذّبون، أصحاب اليمين في الجنّة، والمقرّبون هم الذين يصلون إلى لقاء الله فضلاً عن الجنّة المحسوسة.

---

١. النحل: ٩٦.

٢. الزخرف: ٦٧.

٣. الحديد: ٢٠.

وقد قسّم أمير المؤمنين عليه السلام في كلام نورانيّ الناس إلى ثلاثة: «الناس ثلاثة: فعالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة وهمج رعاع...»[١].

إنّ العقل الكلّيّ وأفضل خلق الله تعالى أي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وكذلك الأوصياء والأئمّة عليهم السلام من بعده في أرقى درجات الجنة؛ فقد جاء في الآية الشريفة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[٢]، والمؤمنون في المقام الثاني الأدنى من الأوّل؛ وللمؤمنين في الجنّة درجات: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٣]، ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٤]، ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٥].

في المقابل يوجد اختلاف في الدركات، فبعضهم كافر، وبعضهم أشدّ كفرًا، وثمّة منافقون وآخرون أشدّ نفاقًا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٦] يتحرّك المؤمنون في مسير صعوديّ، بينما الضالّون والمشركون في مسير نزوليّ. جاء في الآية الشريفة حول المؤمنين:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٧]، وجاء حول المشركين: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٨]. وأمّا سقوط الإنسان وصعوده، فهو متعلّق بعقيدته وعمله. الاعتقاد الصحيح أمر طيّب ويهيّئ إلى جانب العمل الصالح أسباب الصعود، والإلحاد أمر خبيث يهيّئ إلى جانب المعصية أسباب السقوط.

---

١. *نهج البلاغة*، الحكمة ١٤٧.

٢. الواقعة: ٨٨ و٨٩.

٣. المجادلة: ١١.

٤. الأنفال: ٤.

٥. الزمر: ٢٠.

٦. النساء: ١٤٥.

٧. فاطر: ١٠.

٨. الحج: ٣١.

الفصل التاسع

أسماء القيامة وأحداثها

التناسب بين الأسماء والأحداث

تحصل في القيامة أحداث عديدة، منها ما هو عذب يبعث على السرور، ومنها ما هو مرّ يقصم الظهر، من أمثال ظهور الحقّ، كشف الحجب، وضوح الوجوه المسرورة والوجوه العابسة، افتراق الناس وفرار بعضهم عن بعض، الحساب، الكتاب، السؤال، الصراخ و... ؛ لذلك أطلق القرآن الكريم على القيامة أسماء تتناسب مع تنوّع الأحداث فصوّر القيامة بأكثر من مئة اسم، يشكّل كلّ واحد منها سرًّا أو أسرارًا خفيّة.

فيما يلي سنشير إلى بعض الأسماء والأحداث التي ستقع في القيامة:

١. الواقعة

عَبرّ القرآن الكريم عن القيامة بالواقعة الكبرى، جاء في الآية الشريفة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[١]. في ذاك اليوم يتّجه بعض الناس إلى جهنّم منكسرين أذلّاء، بينما يتّجه آخرون إلى الجنّة بكلّ فخر مرفوعي الرؤوس، بعدما أخبر القرآن الكريم عن اندكاك الجبال، قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾[٢].

٢. المتحقّقة

القيامة يوم مسلّم التحقّق: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾[٣].

---

١. الواقعة: ١ و٢.

٢. الحاقة: ١٥.

٣. الحاقة: ١-٤.

القيامة هي يوم الحقّ والحقيقة، حيث تظهر فيه حقوق الخلق وحقائق الأمور. هل تعلم كم هو يوم مخيف؟ كيف يمكن فهم صعوبة ذاك اليوم وعظمته؟ لقد كذّب قوم عاد وثمود بيوم القيامة. يقول بعض المفسّرين إنّ «الحاقة» إشارة وتحذير من عذاب يحيط بالعاصين والمجرمين؛ كما أشارت الآيات المتقدّمة.

٣. لا ريب فيها

القيامة من وجهة نظر القرآن الكريم، حتميّة وقطعيّة ولا ريب فيها: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[١]، وكما أنّ القيامة آتية لا ريب فيها، فهي كأصل وجود القرآن، حيث لا شكّ في أيّ من حقائقه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٢]. أمّا دليل حتميّة القيامة، فهو الآيات الشريفة التي تشكّل الحدّ الوسط للبرهان.

ومفاد الآيات عبارة عن «العدل الإلهيّ»؛ لذلك جاء في الآيات الشريفة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٣]، والمعنى: هل يمكن أن يكون المؤمنون والمعتقدون، وكذلك المفسدون وأصحاب الفتن من دون حساب ومحاكمة عادلة بعد الموت؟! هل يمكن أن يجعل الله العادل الذي يدير العالم العاصين والصالحين على السواء؟ لو لم يكن يوجد قيامة بعد الموت، وأصبح الجميع عدمًا، عند ذلك لا فرق في آحاد العدم، فيكون الصالح والطالح على السواء بعد الموت.

هل يمكن لله الذي وضّح التقوى والفجور للإنسان: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٤] وهداه إلى العدل والظلم وألهمه الجمال والقبح، حيث يحترم بعض الناس هذا الإلهام، فيقتفي طريق الحقّ ويغفل عنه آخرون، بل يستهزؤون بالوحي والرسل: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٥]، هل يمكن أن يتعامل مع الجميع بطريقة

---

١. الحج: ٧.

٢. البقرة: ٢.

٣. ص: ٢٨.

٤. الشمس: ٨.

٥. يس: ٣٠.

واحدة، فلا ثواب للمتقين ولا جزاء للعاصين؟ عدل الله يمنع المساواة في الحكم بين الأتقياء والعصاة.

أشار الله سبحانه وتعالى في آية أخرى إلى هذا البرهان:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[١]. لا طريق للباطل إلى نظام الخلق ونظام السماوات والأرض على الإطلاق. هل من الممكن أن لا يكون ثمّة قيامة ولا عدل؟! بل عناية الله الخاصّة أحاطت بالأنبياء والأتقياء وكانت عونًا لهم؛ سواء أكان في الدنيا أم في القيامة: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٢].

٤. القرب

عبرّ القرآن الكريم عن القيامة بأنّها يوم القرب: «يوم الآزفة»، حتّى لا يدّعي شخص طول مدّة حصولها: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾[٣] يظن العاصون أنّ القيامة بعيدة، وقد أكّد القرآن الكريم على خطأ هذا التفكير، واعتبرها قريبة؛ حتّى لا يغفل البشر عنها: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[٤].

أكّد القرآن الكريم أنّ القيامة قريبة، بل هي شديدة القرب، يقول تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾[٥]، وجاء في آية أخرى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[٦]، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾. استبعد بعض الناس أصل القيامة، فكانوا يقولون: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[٧]، وعلى كل الأحوال، فإنّ الجنّة وجهنّم قريبتان أيضًا.

---

١. الجاثية: ٢١ و٢٢.
٢. غافر: ٥١.
٣. غافر: ١٨.
٤. المعارج: ٦ و٧.
٥. الأنبياء: ١.
٦. القمر: ١.
٧. ق: ٣.

جاء في الآية الشريفة حول الجنّة: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[١]، وجاء حول جهنّم: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾[٢]. إذًا أصل القيامة وما يتعلّق بها كالجنّة وجهنّم كلّ ذلك قريب، بل هو موجود الآن: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٣].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «رحم الله إمرءًا تفكّر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكان ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأنّ ما هو كائن من الآخرة عمّا قليل لم يزل، وكلّ معدود مُنقصٍ، وكلّ متوّقع آتٍ، وكلّ آتٍ قريب دانٍ»[٤].

يتحدّث غير المعتقدين بالقيامة ويقولون: من هو الذي يعيدنا للحياة بعد الموت؟!: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٥].

إنّ قرب القيامة إمّا أن يكون باعتبار حتميّة وضرورة تحققها ووقوعها؛ لأنّه بناءً على كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فكلّ آت قريب، وإمّا أن يكون نسبة إلى مجموع عمر عالم أزليّته، فحتّى لو كان ألف مرّة فهو قريب، وإمّا أن يكون باعتبار أنّ القيامة الصغرى إلى البرزخ قريبة: «من مات فقد قامت قيامته»[٦].

من جهة أخرى فإنّ تحقّق القيامة دفعيّ ويعتمد على إرادة الله فقط: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾[٧]. والشيء المتعلّق بإرادة الله فقط والذي لا يحتاج إلى استعداد في المبدأ القابل، يتحقق بمجرّد ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[٨]؛ لذلك لا يمكن الحديث عن مدّة وزمان معيّنين

---

١. ق: ٣١-٣٤.

٢. النبأ: ٤٠.

٣. العنكبوت: ٥٤.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٠٣.

٥. الإسراء: ٥١.

٦. *بحار الأنوار*، ج٥٨، ص٧؛ ج٧٠، ص٦٧.

٧. الأنبياء: ٤٠.

٨. البقرة: ١١٧.

لذلك. والذين يسألون عن تاريخ وقوع المعاد لا يدركون أنّ القيامة ليست على امتداد التاريخ، لأنّ التاريخ والزمان يصلان إلى المعاد. والقيامة لا تتحقّق في مقطع زمانيّ خاصّ ليصحّ السؤال عن زمان حصولها، بل ينتهي زمان الطبيعة ويُجمع بساط السماوات والأرض ولا يبقى أيّ وقت وزمان. يتحقق الزمان عند وجود حركة ومتحرّك، وإذا اختفت المنظومة المتحرّكة الأعم من الفلكيّة والأرضيّة ينتفي عند ذلك الزمان؛ إذًا قربها ليس بمعنى القرب التاريخيّ، ولا يمكن لشخص أن يتوقّع ظرف تحقّقها؛ لذلك جاء في الآية الشريفة: ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾[1]؛ لذلك يجب الاستعداد وباستمرار لوقوعها وتهيئة النفس، وليس بعيدًا أن يكون عدم العلم بزمان القيامة ذا تأثير كبير على مستوى تهذيب النفس وتربيتها، سواء أكان الكلام عن الفرد أم المجتمع، ولعلّ المؤمنين يعدّون لحظات حصولها، وقد يكون يكون بعض الناس خالي الوفاض عند اقترابها: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ**﴾[2].

وقد أوضح القرآن الكريم سرّ إخفاء زمان القيامة: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**﴾[3]؛ لذلك فالمسألة التربويّة هي واحدة من أسباب إخفائها. على كل حال، عندما يخرج الإنسان من عالم المادّة والزمان فقد تركهما وراءه وعبر عنهم، ومن أبرز المصاديق على ذلك نوم أصحاب الكهف الذين تكلّموا بعد ٣٠٩ سنوات: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾[4]. وسرد القرآن الكريم مصير المجرمين: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[5]، كذلك سَرَدَ القرآن الكريم قصّة موت أحد أنبياء الله تعالى الذي عاد للحياة بعد مئة عام: ﴿**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**

---

١. الأحزاب: ٦٣.

٢. الشورى: ١٧ و١٨.

٣. طه: ١٥.

٤. الكهف: ١٩.

٥. الروم: ٥٥ و٥٦.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾[١]، كما أنّه توجد نماذج أخرى قد أشرنا إلى بعضها سابقًا.

٥. الغد

الغد واحد من أسماء القيامة أيضًا: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٢].

اعتبر القرآن الكريم أنّ القيامة قريبة؛ لذلك عبرّ عنها بالغد، وقد أشارت الآية الشريفة إلى المتكبرّين، أصحاب الأهواء، الكذّابين، الضالّين، فقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[٣].

٦. القيامة

إنّ سرّ إطلاق اسم القيامة على اليوم الموعود وهو أشهر الأسماء وقد أطلق على سورة في القرآن الكريم، أنّ النّاس ستقوم دفعة واحدة في هذا اليوم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]، وسيقفون بين يدي خالق الأكوان، ويوم تقوم الساعة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾[٥]، ويوم يقوم الروح والملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾[٦]، ويوم يقوم الحساب: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٧].

عن النبيﷺ:

«تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة، فيعرق الناس؛ فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه، ومنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ فخذيه،

---

١. البقرة: ٢٥٩.

٢. الحشر: ١٨.

٣. القمر: ٢٦.

٤. المصطفين: ٦.

٥. الروم: ١٢، ١٤، ٥٥.

٦. النبأ: ٣٨.

٧. إبراهيم: ٤١.

ومنهم من يبلغ خاصرته، ومن يبلغ فاه. فأشار بيده. فألجمها فاه، ومنهم من يغطّيه عرقه، وضرب بيده على رأسه هكذا»[١].

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«وذلك يوم يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال خضوعًا، قيامًا، قد ألجمهم العرق ورجفت بهم الأرض، فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعًا ولنفسه متّسعًا»[٢].

يشار إلى أنّ عبارة «القيامة» تكرّرت سبعين مرّة في القرآن، ست وأربعون منها في الآيات المكيّة، وأربع وعشرون في الآيات المدنيّة[٣]. ولا شكّ أنّ المبدأ لكافة أشكال القيام هو ظهور الله تعالى باعتباره القائم بالقسط وقيام الحقّ في مقابل أيّ نوع من الباطل المفروض.

القضيّة المهمّة أنّ وقوع القيامة ليس قريبًا فقط، بل إنّ التأمّل في آيات القرآن الكريم يفيد أنّ القيامة قائمة الآن بأحد المعاني.

فبعض الناس الآن في الجنّة وبعضهم الآخر في جهنّم، وثمّة آخرون في الحساب والميزان. توجد العديد من الشواهد على هذا المعنى من أبرزها:

الأوّل: عبرّ القرآن الكريم عن القيامة بـ «الغفلة» في إشارته إلى عدم التفات الضالّين إلى القيامة وعدم اهتمامهم بالآخرة: **﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾**[٤]؛ يرِد كلّ إنسان المحشر ومعه سائق وشهيد، ثمّ يخاطبه بأنّه كان غافلاً عن هذا المشهد، وقد رفع الله عنه الحجب فأصبح يرى بدقّة.

يقول علماء المصطلحات إنّ «الغفلة» حالة تعرض الإنسان فتجعله ينسى الشيء الموجود والذي يُذَكّر به ولا يتمكّن من حفظه، مع العلم أنّه موجود في حافظته ويقظ اتّجاهه: «الغفلة

---

١. *علم اليقين*، ج٢، ص١١١١.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٠٢.

٣. *معجم القرآن الكريم الإحصائي*، ج٣، ص١١٨٨.

٤. ق: ٢٢.

سهو يعتري الإنسان من قلّة التحفّظ والتيقّظ»[١]؛ مثال ذلك: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾[٢]؛ لذلك ليس من الصحيح استخدام عبارة الغفلة للتعبير عن الشيء المعدوم.

الثاني: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٣].

الثالث: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[٤]. تشير الآيات الشريفة إلى إمكان رؤية نار جهنّم في الدنيا، وإلاّ فالجميع يشاهدها في الآخرة، أعمّ من أصحاب اليقين وغيرهم؛ وهذا يعني أنّ المعصية وترك ما أمر الله سبب للحجاب وعدم رؤية القيامة والجنّة والنار.

الرابع: حديث معراج النبيّ الأكرمﷺ: إنّ مشاهدة الجنّة وأهلها، والنار وأهلها، المأكل والمشرب الآخرويّين، ومقام الأتقياء والضالّين في المعراج... كلّ ذلك يوضح حقيقة أنّها موجودة كلّها في الدنيا.

الخامس: قصّة الحارثة بن مالك وإخباره عن الجنّة والنار وأهل النار، وتصديق الرسول الأكرمﷺ.

السادس: الآيات القرآنيّة التي توضح حقيقة «البرزخ» والعالم المتوسط بين الدنيا والآخرة، إذًا البرزخ واقع بين عالمين، وإذا كان عالم القيامة معدومًا حالاً، فلا يمكن تقديم صورة صحيحة عن «البرزخ».

ويقول الراغب: «البرزخ، الحاجز والحدّ بين الشيئين»[٥]، والبرزخ جسر يربط بين الدنيا والقيامة الكبرى، ووجوده بالفعل دلالة على وجود القيامة بالفعل، من هذا المنطلق تحدّثت الآية الشريفة حول آكلي مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

---

١. *مفردات الراغب*، «غ ف ل».

٢. ق: ٢٢.

٣. الروم: ٧.

٤. التكاثر: ٥-٧.

٥. *مفردات الراغب*، «ب ر ز».

نَارًا﴾[١]، وجاء أيضًا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٣]، وبما أنّ كلمة «أعدّت» جاءت بصيغة الماضي، فهذا يدلّ على أنّ للجنّة والنار وجودًا خارجيًّا الآن. إذا لم يكن للشيء وجود خارجيّ بالفعل بل يكون موجودًا في المستقبل، فلا يمكن التعبير عن هكذا مستقبل محقّق الوقوع بصيغة الماضي، مع أنّ هذا المطلب قد يتحقّق إذا أحرز عدم تحقّق الشيء في الحال، مع العلم أنّ العديد من الشواهد تشير إلى تحقّق القيامة في الحال.

السابع: جاء في الروايات أنّه حصل حريق في بيت أحد أئمّة أهل البيت، وكان منشغلاً بالصلاة، فاندفع الجميع بكلّ طاقاتهم لإطفاء الحريق والإمام المعصومعليه السلام غير ملتفت للحريق من الأساس. وقد تساءل بعض الناس عن سرّ عدم اهتمام الإمام بالحريق، وكان الجواب أنّه مشغول بإخماد نار جهنّم[٤]. أو عندما كان المعصوم يصل في الصلاة إلى قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ كان يكرّرها حتّى يكاد يموت[٥]، وما ذلك إلّا لأنّهم شاهدوا ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[٦] بالعيان، وإلّا فإنّ مجرّد تصوّر مفهوم اللفظ لا يجعل من الشخص مغشيًّا عليه.

إنّ أهميّة أصحاب المعرفة أن يشاهدوا نار جهنّم في الحال، وليس أن يستدلّوا عليها استدلال الحكماء والمتكلّمين.

٧. الآخِر

يطلق على العالم الآخر، الآخرة و «اليوم الآخر»؛ لأنّه يقابل الدنيا والأوّل ويظهر من خلال التأمّل أنّ الآخرة إتمام لهذه الدنيا؛ لذلك يطلق عليها «عقبى الدار»، مثال ذلك

---

١. النساء: ١٠.

٢. آل عمران: ١٣٣.

٣. البقرة: ٢٤.

٤. *بحار الأنوار*، ج٤٦، ص٧٨.

٥. *نور الثقلين*، ج١، ص١٩.

٦. الهمزة: ٦ و٧.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١]؛ وهذا يعني أنّ عباد الله سيصلون إلى نهاية هذه الدنيا وهي الآخرة؛ لذلك كان القرآن الكريم يذكرها في الكثير من الموارد إلى جانب الدنيا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٢]. وكان القرآن الكريم يلفت انتباه العموم إلى الآخرة، من خلال الترغيب تارة، ومن خلال التهديد تارة أخرى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[٣]، ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾[٤]، ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٥]، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٦].

الخلاصة: إنّ عالم الآخرة هو للذين لا يفسدون في الأرض ولا تأسرهم المناصب، بل هو للذين لا يفكّرون بالمعصية والفساد والضلال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[٧]، وعلى هذا الأساس فالخير، والحسن، والبركة والبقاء كلّ ذلك يحصل في الآخرة على صورته الكاملة: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٨].

تجدر الإشارة إلى أنّ كلمة الآخرة ذُكرت ١٢٨ مرّة في القرآن الكريم حول عدد من الموضوعات العقائديّة والمعرفيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة حيث يستفاد منها نقاط مهمّة ومحوريّة.

٨. الحقّ

إنّ «يوم الحقّ» هو اليوم الذي يظهر فيه الحقّ المطلق، ولا مجال فيه للباطل، وفيه ينتهي

---

١. الرعد: ٤٢.

٢. آل عمران: ٥٦.

٣. الأنفال: ٧.

٤. التوبة: ٣٨.

٥. م.ن.

٦. يوسف: ١٠٩.

٧. القصص: ٨٣

٨. الأعلى: ١٧.

كل اختلاف: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾[1]، في ذاك اليوم يزول الرياء والخداع، والظلم والانحراف ويصل كلّ إنسان إلى حقّه.

ذُكرت هذه الكلمة ٢٢٧ مرّة في القرآن الكريم، ومن أبرز مفاهيمها، ذاك المعنى الذي يستخدم في مقابل الباطل، وحيث إنّ الله تعالى حقّ، والله تعالى هو الذي استعمل هذا اللفظ، فهذا يعني أنّ هذا الاسم يتجلّى ظهوره في القيامة.

قدّم القرآن الكريم تمثيلاً جميلاً للحق والباطل بهدف تعريف المجتمع البشري بمعناهما الدقيق، حيث يقول تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾[2]. يشار إلى أنّ الآية الشريفة تتضمّن جملة من النقاط المهمّة ذُكر بعضها في تفسير الميزان[3].

يشير برهان التوحيد إلى: عدم وجود نموذجين من الحقّ المطلق في عالم الوجود. الحقّ بالذات والمحض واحد ليس أكثر، والمعاد ليس شيئًا غير المبدأ. ورجوع الإنسان وغير الإنسان لا يكون إلى أيّ شيء سوى الله، والقيامة ليست سوى ظهور الله التامّ، ففي ذاك اليوم يكون لله تعالى ظهور خاصّ. وعندما يظهر الحقّ المطلق يفتضح كلّ باطل وينتهي كلّ اختلاف؛ كما أنّ كلّ النظام الكونيّ وجد على أساس الحقّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4]، ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[5]، أمّا هذا الخلق الذي يدور حول محوريّة الحقّ فهو لأسباب، من جملتها: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[6]، كما أنّ مسألة هداية العباد وإنذارهم وتبشيرهم وهدايتهم تقوم على أساس الحقّ والحقيقة: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا

---

١. النبأ: ٣.

٢. الرعد: ١٧.

٣. *الميزان*، ج١١، ص٣٣٤-٣٣٨.

٤. آل عمران: ١٩١.

٥. الجاثية: ٢٢.

٦. الجاثية: ٢٢.

﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[١]؛ والرسولﷺ مظهر الحقّ ومبلّغ الحقّ، وأمّا الذين يدعون غير الله، فمثلهم كالظمآن الذي يبسط كفّيه ليتلقّى الماء إلّا أنّ الماء لا يصل إلى فمه، فهو بعيد عن الماء ويفتقد الوسيلة للوصول إليه.

أشار الله تعالى في آية أخرى إلى أنّ كلّ عالم قد خُلق على أساس الحقّ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[٢].

وتوضيح ذلك أنّه لا مجال لأيّ شكل من أشكال الباطل عند ظهور الحقّ؛ فلا مجال للاعتقاد الباطل، ولا للتخيّلات والأوهام الباطلة، ولا العمل الباطل؛ فالباطل لا أساس له، وكلّ ما لا أساس له متزلزل زائل.

للباطل طريق إلى الدنيا؛ لأنّ الدنيا ساحة الحركة والتصادم والتزاحم، فالإنسان الذي يتحرّك في الدنيا قد تكون حركته في الطريق الصحيح، وقد يضلّ الطريق؛ لذلك كان الامتحان ليصل من خلاله إلى الكمال ويظهر ما استقرّ في داخله، وليعرف مقدار الباطل الذي يرافق الحقّ، وليدرك كم من الاعتقادات والقيم تنسجم مع الحقّ، وكم منها ينسجم مع الباطل. وفي كل توهّم وتخيّل حقّ يمكن تصوّر توهّم وتخيّل باطل أيضًا، وكلّ مكان يتمكّن فيه المتحرّك من الوصول إلى الهدف والنجاح فيه، هناك أيضًا الفشل؛ على الرغم من أنّ الفشل أقلّ من النجاح والفساد والشرّ أقلّ من الصحّة والخير بشكل عامّ؛ وإذا أريد للحركات أن تصل إلى النهايات والمتحرّكات إلى أهدافها، فلا بدّ من عالم آخر تصل فيه قوافل الحركات والمتحرّكات إلى النهاية؛ أي أن تستقرّ سفينة الطبيعة: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[٣]، وتتضح الأخطاء، وتنتهي التقصيرات، ويتّضح الحقّ، وتُعلم أيّ العقائد حقّ وأيّ توهّم وتخيّل صحيح وأيّ حركة وسلوك صحيحان.

لذلك جاء في الآية الشريفة: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[٤]. وترفع الحجب عن

---

١. الرعد: ١٤.

٢. الروم: ٨.

٣. الأعراف: ١٨٧.

٤. الحج: ٧.

الوجوه والأعمال، وتنتهي الشكوك ويزول الباطل والسراب؛ لأن الباطل لا يمكنه الاختلاف مع الحقّ ذاك اليوم ولا يتمكّن الشكّ من مقابلة اليقين؛ لأنّ «الحقّ المطلق» ظهر في ذاك اليوم.

أمّا في الدنيا فالأمور على خلاف ذلك، فلا يظهر الحقّ بأكمله، وبعض الأسماء التي تقتضي الستر والاحتجاب وأمثالهما تؤدّي إلى عدم ظهور الحقّ المطلق، ليتحقّق الامتحان الإلهيّ. والباطل لا يكون أبديًّا. وإذا كانت الآراء بعضها حقّ وبعضها باطل، ففي ذاك اليوم يزهق الباطل ويزول وتنتهي الأساطير. في ذاك اليوم يظهر باطن المرائين، ومدعي الزهد والشهرة والسمعة، والمتملّقين، والمنافقين ومتعدّدي الوجوه والضالّين. وفي ذاك اليوم تختفي ثنائيّة الألوان، في ذاك اليوم يظهر الحقّ المطلق، أمّا في الدنيا فلا مجال لهذا الشأن، فهي لا تسمح بظهور الحقّ المطلق بكامل أسمائه الحسنى.

بذل أنبياء الله والكتب السماويّة والأوصياء المكرمون كلّ جهودهم لإنهاء الثنائيّات، وتعدّد الأوجه، والضلال والاختلاف، وعملوا أيضًا على إصلاح المجتمع، إلّا أنّهم لم يصلوا إلى المقصود النهائيّ والكامل؛ وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[1]، ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[2] ابتلي الكثيرون بالأهواء البعيدة، وهو سبب الكثير من المشكلات. أمّا الأنبياء وجهودهم فكانت في حدود اختيار الثواب والقيم، وهذا أمر لا يتجاوز اختيار الإنسان؛ لذلك كان هذا الأمر إلى جانب طبيعة الإنسان باستمرار؛ إلا أنّه يمكن اختيار الأفضل من خلال الكسب والعمل.

إذًا عندما يتبدّل النظام الدنيويّ الموجود إلى النظام الآخرويّ الأفضل، يتحوّل كلّ شيء وتنتهي الاختلافات وتستبدل بوضوح الحقائق ويظهر الباطل والمبطلون: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ**

---

١. يوسف: ١٠٣.

٢. الأنعام: ١١٦.

لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾[١]. في ذاك اليوم تظهر ظنون الضالّين الكاذبة وأعمالهم القبيحة بشكل كامل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢]، وفي ذاك اليوم ينتهي الباطل بأكمله مع ظهور الحقيقة القاهرة وحاكميّة الحقّ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٣]. إذًا، يُقْمع الباطل ويغيب سراب وجهه إلى الأبد، فالحقّ قد ملأ الأرجاء وعمّ أرجاء القيامة.

ميزان الحقّ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[٤]؛ أي أنّ الوزن الذي يوضع في إحدى كفّتي الميزان هو «الحقّ» وفي الكفّة الأخرى تكون العقائد والأفكار والسلوكات، فإذا رجحت كفّة العقائد والأخلاق والأوصاف وكذلك أعمال الأعضاء والجوارح، كان صاحبها سعيدًا، وإلّا فلا شيء بل باطل.

الضالّ الذي أضاع روحه وعمله لا وزن له يوم القيامة: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[٥]، ولا ينصب له ميزان من الأساس. وهل للإنسان الفارغ من الفكر والعمل والسلوك وزن يقابل الحقّ؟! الذين لا يمتلكون عملاً حسنًا وفكرًا عاقلاً وعقيدة وإيمانًا صحيحين تكون قلوبهم فارغة وعقولهم خفيفة: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[٦] وأعمالهم سراب، يقول تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[٧]، ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[٨].

---

١. النحل: ٣٨ و٣٩.

٢. النور: ٢٤.

٣. الأنبياء: ١٨.

٤. الأعراف: ٨.

٥. الكهف: ١٠٥.

٦. إبراهيم: ٤٣.

٧. إبراهيم: ١٨.

٨. النور: ٣٩.

إذًا عند وزن وقياس السراب هناك حاجة لميزان من ظنّ وباطل، وليس لميزان من حقّ، ولا يمكن وزن الماء بميزان السراب؛ كما لا يمكن قياس السراب بميزان الهواء؛ لذلك السراب لا ميزان له على الإطلاق.

ويشكّل صراط الحق أحد أركان القيامة الأخرى: «وأنّ الصراط حقّ»، والآخر هو الجنّة والنار: «والجنّة والنار حقّ»، وكافّة الأركان الأخرى على الحقّ أيضًا، حيث نقرأ في زيارة صاحب الأمر عليه السلام: «وأشهد أنّ النشر حقّ، والبعث حقّ، وأنّ الصراط حقّ، والمرصاد حقّ، والميزان حقّ، والحشر حقّ، والحساب حقّ، والنار حقّ، والوعد والوعيد بهما حقّ»[١]. ومن خلال هذا البيان تتضح صورة «ذلك اليوم الحق»؛ لأنّ الكثير من مصاديق الحقّ البارزة تعرض فيه وتتحدّد كيفيّة ظهور الحقّ المطلق في كسوة أسماء الله الحسنى.

٩. المشهود

جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾[٢]. عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة، أما تقرأ القرآن قال الله عزّ وجل: ﴿**ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**﴾[٣] وقال أيضًا: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة»[٤].

---

١. *مفاتيح الجنان*، زيارة صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، زيارة آل ياسين.

٢. البروج: ٣.

٣. هود: ١٠٣.

٤. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٤٢، ح١٢ و ١٣.

١٠. الميقات

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[١]؛ ممّا لا شكّ فيه أنّه يوم الفصل بين الخصومات وجمع الجميع في مكان واحد ومحاسبتهم في وقت واحد: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[٢]، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣].

ملاحظات:

أ) المعاد هو يوم وصل كلّ عمل بعامله الأساس وكلّ فرع بجذوره الأصليّة.

ب) المعاد يوم يفصل فيه الشخص عن الآخر والغريب عن الغريب؛ لأنّ نظام المعاد الوجوديّ يقوم على أساس النشأة الفرديّة، وليس الجمعيّة، وهو يوم التفريق بين الكثير من الأمور.

١١. الساعة

«الساعة» من أسماء القيامة الأخرى، وقد تكرّر ذكر هذه الكلمة ٤٨ مرّة في القرآن الكريم، وأغلبها يدور حول القيامة، وتذكر بعض الأوقات إلى جانب كلمة «يوم»؛ مثال ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٤]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[٥] و﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[٦].

يقول الراغب إنّ الساعة جزء من الزمان ويعبّر عن القيامة بالساعة مثال ذلك: ﴿اقْتَرَبَتِ

---

١. النبأ: ١٧.

٢. الواقعة: ٤٩ و٥٠.

٣. الدخان: ٤٠.

٤. الروم: ١٢.

٥. الروم: ١٤

٦. الروم: ٥٥.

السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[١]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾[٢]، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[٣]؛ ولأنّ الحساب واقع في القيامة، فهو كالساعة في الدنيا لسرعة انقضائه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[٤]، أو لأنّهم يشاهدون القيامة فيقولون لم نلبث إلّا بعض الوقت.

قيل: الساعات ثلاثة أنواع

أ) الساعة الكبرى وهي قيام الناس للحساب.

ب) الساعة الوسطى وهي موت أهل قرن.

ج) الساعة الصغرى وهي موت كلّ إنسان[٥].

أمّا كلمة ساعة في الرواية: «تفكّر ساعة خير من عبادة ستين سنة»[٦]، فالمقصود منها جزء الوقت؛ أي تفكّر لحظة.

١٢. الميعاد

كان منكرو المعاد يسألون رسول اللهﷺ: إذا كنت صادقًا أنّ هناك قيامة، فمتى سيتحقّق هذا الوعد؟! وقد خاطب الله تعالى رسوله الكريم؛ يتحقّق هذا الوعد في يوم من الأيّام، حيث تعجزون فيه عن تأخيره أو تعجيله لحظة واحدة؛ فهو معيّن في حدٍّ خاصّ من الوجود: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[٧]، بينما كان المعتقدون بالمعاد يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٨].

---

١. القمر: ١.

٢. الأعراف: ١٨٧.

٣. الزخرف: ٨٥.

٤. الأنعام: ٦٢.

٥. *مفردات الراغب*، «س و ع».

٦. *بحار الأنوار*، ج٦٦، ص٢٩٣.

٧. سبأ: ٢٩ و٣٠.

٨. آل عمران: ٩.

١٣. الوعيد

من جملة أسماء القيامة «يوم الوعيد». جاء في القرآن الكريم: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[١]، وهو يوم سيتحقّق فيه الوعيد بالعذاب العمليّ.

١٤. الوقت المعلوم

إنّ اليوم المحدّد والمعلوم: ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٢] هو يوم القيامة من وجهة نظر بعض المفسّرين، واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[٣]. وعلى هذا، ارتضى الله جلّ وعلا الاستمهال الذي أراده إبليس من جعل «يوم البعث» نهاية المهلة؛ لأنّ ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٤] بناءً على هذا التفسير هو يوم القيامة، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار رأي بعض المفسّرين الآخرين وقرينة التقابل بين «يوم البعث» و«يوم الوقت المعلوم»، فيحتمل أنّ ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ غير القيامة مع أنّه واقع على أعتابه.

١٥. النبأ العظيم

تحدّث القرآن الكريم عن القيامة تحت عنوان الخبر العظيم «النبأ العظيم» فجاء في الآية الشريفة: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[٥]؛ يا أيّها الرسول قل: ذاك الخبر المهم هو خبر القيامة، النار والجنة، وهي نبأ العالم العظيم الذي تُعْرِضون عن سماعه، وجاء في آية أخرى أيضًا: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[٦]. بما أنّ رسول الله ﷺ كان يتحدّث كما تحكي آيات القرآن الكريم عن الله

---

١. ق: ٢٠.

٢. الحجر: ٣٨.

٣. الواقعة: ٥٠.

٤. الحجر: ٣٨.

٥. ص: ٦٧ و٦٨.

٦. النبأ: ١-٥.

والقيامة، كان المؤمنون والكافرون يتجادلون؛ لذلك نزلت الآيات الشريفة لتحدّثهم عن الخبر والسؤال الذي يتجادلون فيه.

تخبرهم عن نبأ القيامة العظيم الذي اختلفوا فيه، فالأمور ليست كما يظنّ المنكرون، فسيدركون بسرعة عندما يطّلعون على ما أرادوا.

وعلى هذا الأساس فالمخبِر هنا هو رسول اللهﷺ، ولعلّه هو «النبأ العظيم» وأبناؤه المعصومون من بعده؛ وقد جاء في دعاء الندبة الخطاب لإمام الزمانعجّل الله تعالى فرجه الشريف: «يا ابن النبأ العظيم».

تجدر الإشارة، أنّ الخبر العظيم (النبأ العظيم) ملكة في روح الرسول وأوصيائه، فإنّ كلّ واحد من تلك الذوات النوريّة نبأ عظيم بحدّ ذاته، وأمير المؤمنينعليه السلام هو نبأ هذا النظام العظيم؛ لذلك كانعليه السلام يقول: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينًا، وهذا ليس سدى؛ لأنّ هذه الذوات المقدسة تمتلك مقام الولاية؛ أي أنّ الشخص الذي يصل إلى مقام الولاية المتعال، هو النبأ العظيم بذاته. وعلى هذا الأساس، فالأئمة المعصومونعليهم السلام أبناء الولاية؛ ففي صدر الإسلام كان مجاهدو الإسلام الشجعان يعتبرون أنفسهم أبناء الإسلام والقرآن؛ كان سلمان (رضوان الله عليه) يقول: «أنا سلمان ابن الإسلام»[1].

١٦. العظيم

تحدّث القرآن الكريم في العديد من الآيات الشريفة عن القيامة تحت عنوان ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]. وعظمة هذا اليوم هو باعتبار الأحداث العظيمة التي حصلت فيه.

١٧. الكبير

جاء ذكر اليوم الكبير «يوم كبير» في القرآن الكريم مرّة واحدة؛ مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[3].

---

١. *بحار الأنوار*، ج٢، ص٣٩٠.

٢. يونس: ١٥؛ الشعراء: ١٣٥، ١٥٦ و١٨٩.

٣. هود: ٣.

ملاحظة: هناك فرق بين العظيم والكبير، فالشيء الذي بمثابة العَظْم هو محكم أوّلاً، وهو عنصر محوريّ لشيء آخر ثانيًا، فيشيرون إليه بعبارة «العظيم». صحيح أنّ عنوان الكبير يمتلك خصائصه الخاصّة به، إلاّ أنّ الخصوصيّات المتقدّمة غير مأخوذة في مفهومه.

١٨. المنتهى

القيامة هي يوم انتهاء الأعمال والجهود حيث يجب أن ينتقل الإنسان للقاء الله تعالى؛ سواء وصل أبيض الوجه أو أسود الوجه: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[١]، ﴿**إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**﴾[٢].

ملاحظات:

أ) إنّ نهاية سير السالكين هو لقاء الجلال أو الجمال الإلهيّ.

ب) إنّ نهاية كلّ عزم وتصميم بإرادته.

ج) وهو نهاية كلّ تشخيص علميّ وعلم شهوديّ ومطلق، وأخيراً نهاية كلّ شيء محدود، والله هو الهويّة اللامتناهية واللامحدودة.

١٩. اليقين

حَدّد الله تعالى في سورة الواقعة المقربين وموقعهم وكذلك الكاذبين والضالين وموقعهم، فقال: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾[٣]. وعلى هذا الأساس، تظهر هذه الحقيقة على وجه اليقين يوم القيامة.

ملاحظة: صحيح أنّ القليل من الناس يظهر له المستقبل بشكل شفّاف قبل الموت، إلاّ أنّ حقيقة المعاد معلومة عند أغلب الناس الذين هم أهل الشكّ والوهم والخيال والظنّ أو العلم الحصوليّ، بل يمكن القول إنّ هذه الحقيقة مشهودة لهم وحاضرة.

---

١. النجم: ٤٢.

٢. النازعات: ٤٤.

٣. الواقعة: ٩٥.

٢٠. ظهور الدين

إنّ كلّ ما نتحدّث عنه تحت عنوان الدين هو مجموعة ما قدّمه الوحي حول العقائد والأخلاق والسلوكات، وله [الدين] ظاهر وباطن؛ مثال ذلك: التوحيد، النبوّة، الولاية، المعاد، وسائر العبادات التي تمتلك ظاهرًا وحقيقة باطنيّة مخفيّة؛ وكما أنّ الغيبة حرام في ظاهر الشريعة، فهي في باطنها أكل لحم إنسان ميت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1] ويقول الإمام علي بن الحسين‌عليه‌السلام: «إيّاكم والغيبة فإنّها إدام كلاب النار»[2]. إنّ باطن الغيبة عبارة عن أكل لحم المؤمن الميت وهي إدام لكلاب النار؛ لذلك جاء في القرآن الكريم أنّ حقيقة الدين تتجلّى وتتّضح يوم القيامة: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[3]. صحيح أنّ الدين في هذه الآية بمعنى الثواب، ولكن هذا المعنى، أي جزاء الأعمال هو جزء من حقيقة الدين: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[4] في ذلك اليوم تكون مالكيّة كافّة الأمور لله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[5]؛ لا يمكن لأيّ مالك سوى الله تعالى أن يظهر وجوده؛ لأنّ كافّة أمور الإنسان في دار الدنيا إمّا أنّها على أساس الضوابط، أو على أساس الروابط، ولكن في القيامة لا يبقى أيّ فعل للروابط ولا للضوابط، فتتوقّف كافّة الأسباب: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[6].

في الدنيا يشبع الجائع بوجود الطعام، ويُروى العطشان بوجود الماء استنادًا إلى النظام العلّيّ والمعلوليّ، إلاّ أنّ هذه الأسباب تقطع في القيامة، ولا يبقى أيّ مجال لرفع العطش والجوع بواسطة الأسباب الظاهريّة. وتنحلّ الأنساب، لا بل تقطع: ﴿فَلَا أَنْسَابَ

١. الحجرات: ١٢.
٢. *بحار الأنوار*، ج٧٢، ص٢٤٦.
٣. الذاريات: ٦.
٤. الانفطار: ١٤-١٩.
٥. غافر: ١٦.
٦. البقرة: ١٦٦.

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[١]؛ يخرج الجميع من تحت التراب على شكل واحد وينسى الشخص نسبته مع الآخر، ليحدّثه عن مشكلاته وليعمد إلى حلّها. يومئذٍ لا وجود لنظام العائلة ليحاول الشخص إخبار الآخر والبحث عن حلول لمعضلته، كما لا وجود في ذاك اليوم للصداقة ليفكّر الشخص بصديقه: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾[٢]. وفي ذاك اليوم تتفكّك كافّة العلاقات السببيّة والنسبيّة والوضعيّة ولا مجال للجدل والردّ والبدل. يومئذٍ لا يملك أيّ شخص شيئًا والأمر كلّه لله تعالى. والشفاعة ثابتة وحقّ، إلّا أنّه يجب إعداد أسبابها في الدنيا طبعًا، فإذا لم يكن في الدنيا ارتباط بالشفعاء يوم القيامة، فلا يمكن الاستعانة بهم في الآخرة.

ملاحظات:

١. صحيح أنّ النظام العليّ والمعلوليّ لم يكن ترفيقًا بل كان صادرًا ومصدرًا بشكل ظاهر، وجاء على شكل مظهر، وأن أصل العلّيّة يعود إلى التشأّن، إلا أنّه لن يكون منقطعًا، سواء في الدنيا أو في القبر أو في القيامة.

٢. العلّة والمعلول من المراحل الوجوديّة، ولمراتب الوجود في كلّ نشأة حكم خاصّ في النشأة عينها؛ لذلك قد يكون تأثير موجود معيّن في شيء مرهونًا بنحو خاصّ من أنحاء الوجود؛ لذلك فإنّ أسباب الدنيا قد تكون بلا أثر في القيامة، إذا لم ينقطع أصل السببيّة.

تظهر حقائق القرآن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[٣]، وتأويل القرآن هو الحقيقة العينيّة والخارجيّة. تظهر جميع الحقائق في القيامة ولا يبقى أيّ مجال للاختلاف في أيّ شأن. من مجموع الفتاوى المتنوّعة تتّضح الفتوى الحقّ ومن بين المذاهب المتعدّدة يتّضح المذهب الحقّ، ففي ذاك اليوم تتّضح جميع أبعاد الدين؛ لذلك تحدّث القرآن

---

١. المؤمنون: ١٠١.

٢. البقرة: ٢٥٤.

٣. الأعراف: ٥٣.

الكريم عن الآثار العديدة لذاك اليوم، ومن جملتها توفية الدين، فجاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[١].

يقول العلاّمة الطباطبائيّ:

«هذا بالنظر إلى اتّصال الآية بما قبلها ووقوعها في سياق ما تقدّمها، وأمّا بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن أن يراد بالدين ما يرادف الملّة، وهو سنّة الحياة، وهو معنًى عالٍ يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للإنسان، ويكون أكثر مناسبة لقوله: ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين»[٢].

الآية الشريفة المتقدّمة هي من أوضح الآيات في تفسير معرفة الله، حيث تخبر بعدم وجود أيّ حجاب على وجود الحقّ تعالى، فهو «الحقّ المبين»؛ لأنّ الله تعالى هو نور السماوات والأرض وبواسطته يتّضح كلّ مفروض، فلا يمكن فرض أيّ حجاب لهذا النور.

إنّ «يوم الدين» هو اليوم الذي يُعْطى فيه الجزاء والثواب، والله تعالى مالك ذاك اليوم: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٣]. الدين هو الجزاء المطلق ويشمل جزاء الدنيا والآخرة. جاء عن الإمام الصادقعليه السلام في تفسير ذلك: «مالك يوم الدين... يوم الحساب»[٤]، وعن الإمام الرضاعليه السلام: «مالك يوم الدين إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة»[٥]، وقد أشار الإمام الرضاعليه السلام إلى معنى أوسع من ذلك فقال: «...مالك يوم الدين... وإيجاب ملك الآخرة له كإيجاب ملك الدنيا»[٦]. ومن هنا، فالملك والملكوت، والدنيا والآخرة له، هو المدبّر المطلق، والربّ بلا منازع والمالك بلا مشارك سواء في الدنيا أو الآخرة، وهي

---

١. النور: ٢٥.
٢. *الميزان*، ج١٥، ص٩٥.
٣. الحمد: ٤.
٤. *نور الثقلين*، ج١، ص١٩، ح٧٥.
٥. م.ن، ح٨١.
٦. م.ن، ح٨١.

حقيقة ثابتة في الحال، إلا أنّها تتّضح في الآخرة: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[١]؛ في ذاك اليوم تظهر مالكيّته المطلقة، وهي مالكيّة من نوع المالكيّة الحقيقيّة، وليس من الدنيويّة الاعتباريّة الشائعة بين الأفراد والمقيّدة أحيانًا بالزمان والمكان، فيقال: ملك هذا الزمان وملك ذاك الزمان، وهي ليست من نوع المالكيّة الحقيقيّة المحدودة كمالكيّة الإنسان لأعضائه وجوارحه التي يتصرّف بها بإرادته: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾[٢]؛ الله هو المالك الحقيقيّ لجميع الأشياء وكافّة العوالم وهو المالك المطلق لجميع النفوس.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّا لا نملك مع الله شيئًا، ولا نملك إلّا ما ملّكنا، فمن ملّكنا ما هو أملك به منّا كلفنا، ومتى أخذه منّا وضع تكليفه عنّا»[٣].

من البديهيّ أنّ الله سبحانه وتعالى هو مبدأ ومنشأ وجود جميع الأشياء والملك والملكوت، جميعها معلول ومخلوق له، والجميع واقع تحت أمره، وهو يملك إدارتها: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾[٤]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾[٥]. إنّ باطن وملكوت الأشياء منه وبيده: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٦]. ألا يعلم الإنسان حقيقة أنّ السماوات والأرض، ومالكيّتها وتدبيرها ليست بيد أحد سوى الله تعالى؟ ألا يعلم الإنسان أنّ لا معين ولا مدبّر إلّا الله؟: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٧]. إذا كنّا لا نعلم بيد مَنْ العمل اليوم، أو نعلم ولكن نتجاهل ونخدع أنفسنا، فإنّ هذه الحقيقة ستتّضح وتظهر في القيامة: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾[٨].

إنّ الدقّة في القرآن الكريم بحر الحكمة المتلاطم يعلمنا أنّ البشر لا تمتلك شيئًا

---

١. غافر: ١٦.

٢. آل عمران: ٢٦.

٣. *نهج البلاغة*، الحكمة ٤٠٤.

٤. المائدة: ١٢٠.

٥. آل عمران: ٢٦.

٦. يس: ٨٣.

٧. البقرة: ١٠٧.

٨. النبأ: ٣٩.

حتّى أنّ أعضاء بدن الإنسان ليست ملكًا له: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾[١]. إنّ من أبسط الأعمال التي يقوم بها الإنسان في الظاهر فتح العين وإغلاقها والسمع أو عدمه؛ ومع ذلك فإنّ هذا العمل بيد الله تعالى، فهو مالك هذه الأعضاء؛ لذلك نرى أنّ بعض الناس يعجزون أثناء الاحتضار حتّى عن إغلاق أعينهم؛ لذلك أشارت الآية الشريفة المتقدّمة إلى أنّ الله تعالى هو المالك الحقيقيّ للعين والأذن، وقد ذكر هذا العنوان للتمثيل وليس للتعيين.

رفض الله تعالى في القرآن الكريم كلّ فكر استقلاليّ بالمطلق، وكل فكر مشرك، وبيّن أنّ المالكيّة المطلقة له، يقول تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[٢].

نستفيد من الآية الشريفة مجموعة من النقاط المهمّة:

١. ليس لأحد سوى الله تعالى ملك ذرّة من السماوات والأرض وعالم الوجود.

٢. لا شريك لله تعالى في ذرّة من الذرّات المذكورة.

٣. ليس لشخص سوى الله دور في تدبيرها وليس أحد غيره معين.

٤. ليس لأحد سوى الله حقّ الشفاعة.

عندما كان أئمّة الدّين يذكرون عمق مالكيّة الله تعالى للدنيا والآخرة وتدبيره المطلق، كانوا يصلون إلى حدود الموت؛ فقد نقل الزهريّ: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا قرأ مالك يوم الدين يكرّرها حتّى يكاد أن يموت»[٣].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ استخدام عبارة «كان» مع الفعل الماضي يفيد الاستمرار، سندرك أنّ هذه الحالة كانت تحصل للإمام عليه السلام باستمرار.

---

١. يونس: ٣١.

٢. سبأ: ٢٢ و٢٣.

٣. *بحار الأنوار*، ج٨٢، ص٢٣، ح١٢.

وينقل داوود بن الفرقد أنّ الإمام الصادقعليه السلام كان يكرّر قول الله تعالى: مالك يوم الدين: «سمعت أبا عبد اللهعليه السلام يقرأ ما لا أُحصي: ملك يوم الدين»[١].

يقول الإمام زين العابدين وسيّد الساجدينعليه السلام:

«لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشتُ، لو كان القرآن معي، وكان إذا قرأ القرآن «مالك يوم الدين»، كرّرها وكاد أن يموت ممّا دخل عليه من الخوف»[٢].

٢١. الذي لا عودة فيه

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾[٣].

٢٢. الصاعقة

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[٤].

ملاحظة: إنّ حادثة المعاد العظيمة تجعل بعض الناس يفقدون الوعي، وبعض الناس يعيش الدهشة، يقول تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٥] فقد ذكر أنّه أريد بها إغماء البعض. طبعًا بعض الخواص من الناس ممّن يعيش حالة الوله للقائه، يندهش مع شهود بعض تجلّياته الخاصّة.

٢٣. الزلزلة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[٦].

---

١. م.ن، ص٢٢، ح١١.
٢. م.ن، ص٦٦، ح٥٧.
٣. الشورى: ٤٧.
٤. الزمر: ٦٨.
٥. الحج: ٢.
٦. الحج: ١.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «عباد الله، احذروا يومًا تفحص فيه الأعمال، ويكثر فيه الزلزال، وتشيب فيه الأطفال»[١].

ملاحظة: إنّ تسمية القيامة قد تكون تارة بلحاظ الطليعة وعلامة ظهوره، وتارة أخرى بلحاظ الأحداث التي تقع في بدايتها، وتارة ثالثة بلحاظ مواقفه المتعدّدة، وتارة رابعة بلحاظ الأحداث المهولة والمهيبة في نهايته و...

٢٤. الرجفة

﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ**﴾[٢].

٢٥. الرجّة

الرجّة هي التحريك بقوّة، جاء في القرآن الكريم حول القيامة: ﴿**إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا**﴾[٣].

ملاحظة: قد تنطبق بعض العناوين على بعضها بعضًا من أمثال الزلزلة، الرجّة، الخافضة، الرافعة وأمثالها، بحيث لا يكون هناك اختلاف عميق بينها، وإذا كان هناك اختلاف، فذلك يعود إلى شؤون الحدث الخارجي المتنوّع.

٢٦. الرادفة

﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**﴾[٤].

جاء في تفسير علي بن إبراهيم القمّي: «تنشق الأرض بأهلها، والرادفة الصيحة»[٥].

ملاحظة: لا يقصد من الرادفة خصوص الرديف الثاني، بل كل هزّة تأتي بعد الهزّة الأولى سواء أكانت بمستواها أم أدنى منها.

---

١. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٥٧، المقطع ١٠.

٢. النازعات: ٦-٨.

٣. الواقعة: ٤.

٤. النازعات: ٦ و٧.

٥. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٩٩.

٢٧. الانشقاق

القيامة هي اليوم الذي تنشق فيه السماوات: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[١]، ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[٢]، بل الأرض تتشقق أيضًا: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[٣]. يقول الإمام الصادقعليه السلام: إذا كان يوم القيامة دُعي برسول اللهصلى الله عليه وآله، فيكسى حلّة ورديّة. فقلت جعلت فداك، ورديّة؟ قال: نعم، أما سمعت قول الله عزّ وجل: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[٤].

٢٨. الانكدار

القيامة هي يوم التكدر، حيث تتكدر نجوم السماء: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾[٥].

ملاحظة: إنّ عمليّة انكدار النجوم وانكشاف الشمس والقمر وتكوّرهما وكل ما يتعلّق بهذا القسم يعتبر من أشراط الساعة؛ لذلك يعدّونها من جملة الأمور المتعلّقة بالمعاد.

٢٩. القارعة

مع وصول هذا اليوم (يوم القارعة) يُضْرب عالم الطبيعة ببعضه، وتتلاشى الجبال وينتشر الناس في كل الأرجاء كالجراد. أمّا الشخص الذي ثقلت موازينه على أثر الحقّ، فهو يتنعّم في الجنّة ويعيش حياة هانئة، وأمّا الشخص الذي خفّت موازينه وفقد عمله الحقّ، فمكانه في جهنّم: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٦].

سأل شخص الإمام الصادقعليه السلام:

---

١. الرحمن: ٣٧.

٢. الحاقة: ١٦.

٣. ق: ٤٤.

٤. *نور الثقلين*، ج٥، ص١٩٥، ح٤٠.

٥. التكوير: ٢.

٦. التكاثر: ٣ و٨.

«أوليس توزن الأعمال؟ فقال: لا، لأنّ الأعمال ليست أجسامًا، وإنّما هي صفة ما عملوا، وإنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها وخفّتها، وإنّ الله لا يخفى عليه شيء، قال: فما معنى الميزان؟ قال: العدل قال: فما معنا في كتابه «فمن ثقلت موازينه» قال: فمن رجح عمله»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «...الحسنات ثقل الميزان والسيّئات خفّة الميزان»[٢].

٣٠. نفخ الصور

جاء في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٣] وقد تقدّم شرح جزء من هذا العنوان وسيأتي جزء آخر لاحقًا.

٣١. الصاخّة

يشير القرآن الكريم إلى مسألة حصول صوت كبير مهيب مزلزل ويخرق الأذان، ففي ذاك الحين يستيقظ الجميع ويجتمعون في ساحة القيامة. ويكون مقدار الرعب والوحشة كبيراً في هذا الصوت، حتّى أنّ الأخ يفرّ من أخيه وكذلك من أمّه وأبيه وامرأته وبنيه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾[٤].

٣٢. الخروج

هو اليوم الذي يخرج الأموات فيه من قبورهم: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[٥]، وقد أشار القرآن الكريم إلى مسألة الخروج من القبور، مشبّهًا إيّاها بإحياء الأرض الميتة بواسطة المطر: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٦]، وقد عرض بحثًا مختصرًا حول هذا

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٦٥٨، ح٥.

٢. *نور الثقلين*، ج٥، ص٦٥٩، ح١١.

٣. النبأ، ١٨.

٤. عبس: ٣٣-٣٦.

٥. ق: ٤٢.

٦. ق: ١١.

الأمر في ذيل الآية الشريفة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[١]، حيث يعتبر النبيّ عيسى بن مريمعليه السلام مظهر هذا الاسم الشريف: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[٢].

٣٣. البعث

عبرّ القرآن الكريم عن القيامة بأنّها يوم البعث، وجاء في القرآن الكريم حكاية عن حوار وجدل وسؤال وجواب بين المجرمين والصالحين يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

وجاء في آية شريفة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾[٤]، وقد يخاطبهم تارة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[٥].

٣٤. الدعوة مع الإمام

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٦].

> عن أبي جعفرعليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال المسلمون: يا رسول الله، ألست إمام الناس كلّهم أجمعين؟ قال: فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون من بعدي أئمّة على الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس فيكذّبون وتظلمهم أئمّة الكفر والضلال وأشياعهم، فمن والاهم واتّبعهم وصدقهم، فهو مني ومعي وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم وكذّبهم فليس منّي ولا معي وأنا منه بريء»[٧].

١. طه: ٥٥.
٢. المائدة: ١١٠.
٣. الروم: ٥٥ و٥٦.
٤. المجادلة: ٦ و ١٨.
٥. المؤمنون: ١٦.
٦. الإسراء: ٧١.
٧. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٩١، ح٣٢٩.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير ذيل الآية الشريفة المتقدّمة: «يجيء رسول الله في قومه وعليّ في قومه والحسن في قومه والحسين في قومه، وكل من مات بين ظهرانيّ قوم جاؤوا معه»[١].

إذن يرد الإنسان المحشر مع كلّ شخص لبّى نداءه وأجاب دعوته واتّبعه.

طبعًا أشار رسول الله صلى الله عليه وآله في ذيل الآية الشريفة المتقدّمة إلى القادة الذين ينبغي اتّباعهم، وهم أهل بيته، كما بيّن خطر الطواغيت في الجبهة المقابلة الذين يُضلّون المجتمع، ومن اللائق والمناسب أن نكون من أتباع الصالحين وفي صفّهم، وأن نكون بعيدين عن الضالّين والمنحرفين، حتّى لا نكون في القيامة في عدادهم ومن تابعيهم ومرافقيهم.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام:

«اللّهم إنّك أيّدت دينك في كلّ أوان بإمام أقمته علمًا لعبادك ومنارًا في بلادك، بعد أن وصلت حبله بحبلك وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته وحذرت معصيته وأمرت بامتثال أمره والانتهاء عند نهيه ولا يتقدّمه متقدّم ولا يتأخّر عنه متأخّر»[٢].

٣٥. الساهرة

يطلق على يوم القيامة يوم «الساهرة»؛ وذلك لأنّ الشخص لا يأتيه النوم حينها على الإطلاق، وقد يكون عدم النوم إمّا على أثر شدّة الخوف من الوحوش الكاسرة والحشرات المؤذية، وإمّا على أثر الحرارة و...، وتكون الأرض في ذاك اليوم كالحديد المنصهر. في هكذا أجواء يفقد الشخص الراحة، ويبقى يقظًا متنبّهًا، وهكذا يكون الناس ساهرين متيقّظين يوم القيامة.

جاء في القرآن الكريم حول هذا اليوم: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾[٣]. عندما تطلق الصيحة ينهض الجميع فجأة ويقفون يقظين في ساحة المحشر.

---

١. م.ن، ص١٩٢، ح٣٣٢.

٢. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٩٣، ح٣٣٦.

٣. النازعات: ١٣ و١٤.

الخلاصة أنّ الأرض التي يحكمها السهر واليقظة والتي لا طريق للنوم إليها هي «الساهرة»، ففي القيامة ولأسباب وعوامل عديدة لا يبقى مجال للنوم.

٣٦. المساق

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[١]. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٢]، «سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها»[٣].

ملاحظة: السَوْقُ قسمان: الأوّل تكريميّ والآخر تحقيريّ؛ التكريميّ هو التوديع والحفاظ على الحرمة، والتحقيريّ هو الطرد والإبعاد، هناك آيتان في القرآن الكريم تشيران إلى أهل الجنّة وأهل النار وسوقهما: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[٤]؛ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[٥].

٣٧. التعرّق

القيامة هي اليوم التي يستولي فيه العرق على وجود الإنسان، كما عبرّ الإمام الصادق عليه السلام. في ذاك اليوم ينادي الناس: يا ربّ حاسبنا ولو إلى النار، ثمّ يتقدّمون نحو آدم عليه السلام طلبًا للشفاعة إلّا أنّه لا يجيبهم...[٦]

ملاحظة: أشرنا سابقًا أنّ سانحة المعاد العظيمة تحمل معها الكثير من الشدائد، حيث يكون بعضها روحيًّا، والبعض الآخر بدنيّ؛ فهناك ازدحام في الجمع وضيق المكان مع سعة المكان، وحرارة ذاك المكان تؤدّي إلى تعرّق الناس لشدّة الانفعال والخجل الذي يترافق مع والاضطراب والخوف الباطني، كلّ ذلك يؤدّي إلى أن يستولي العرق على الضالّين مع العلم أنّ بعض الناس أمثال المقرّبين يعيشون بسلام وهناء كاملَين.

---

١. القيامة: ٣٠.

٢. ق: ٢١.

٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ٨٥، القسم ٥.

٤. الزمر: ٧١.

٥. الزمر: ٧٣.

٦. *بحار الأنوار*، ج٧، ص١٠٣ و ٢٩٥؛ ج٨، ص٣٥-٤٥.

٣٨. الاضطراب

عن صفوان الحجّال قال: وقع بين أبي عبد الله‰ وبين عبد الله بن الحسن كلام، حتّى وقعت الضوضاء بينهم، واجتمع الناس فافترقا عشيّتهما بذلك وغدوت في حاجة، فإذا أنا بأبي عبد الله‰ على باب عبد الله بن الحسن وهو يقول: يا جارية قولي لأبي محمّد [يخرج] قال: فخرج فقال: يا أبا عبد الله ما بكَّر بِك؟ قال: إني تلوت آية في كتاب الله (عز وجل) البارحة فأقلقتني. فقال: وما هي؟ قال: قول الله (عز وجل ذِكرُه): «﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[1]. فقال: صدقت، لكأنّي لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله قط، فاعتنقا وبكيا»[2].

ملاحظات:

أ) بغضّ النظر عن أصل القصّة وكيفيّة صدور الشجار عن الإمام المعصوم‰ ولزوم قبوله من قبل عبد الله بن الحسن يحتمل أن يكون أصل الحريّة في تبيين المسائل العلميّة من الحقوق المسلّمة لكلّ فرد. وقد تكون المسألة التي جرى الحوار فيها ليست من الفروع التعبّديّة.

ب) إنّ البحث الحرّ في الأمور العلميّة أو الحقوقيّة لا ينبغي أن يمنع الحفاظ على الرحميّة والصداقة.

ج) إنّ المؤمنين الصالحين وللحؤول دون اضطراب القيامة هم في الدنيا من أهل الصفح والعفو.

٣٩. الفاقرة

يطلق على يوم القيامة يوم الفاقرة؛ لأنّ الأحداث التي تحصل في هذا اليوم تقصم الظهر. هي أداة تكسر العمود الفقريّ للإنسان وتجعله عاجزاً عن القيام. جاء في القرآن الكريم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[3]. من هنا

---

١. الرعد: ٢١.

٢. *أصول الكافي*، ج٢، ص١٥٥، ح٢٣.

٣. القيامة: ٢٢-٢٥.

تقول العرب للشخص الفقير مكسور العمود الفقريّ، ويطلقون على الشخص الذي لا يمتلك المال «الفاقد»، وبما أنّ الإنسان فاقد للمال وخالٍ منه يعجز عن القيام عند الأحداث الأليمة، فيقال له الفقير.

إذًا الفقير هو العاجز عن القيام والوقوف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾[١]. أيّها الناس أنتم فقراء وعاجزون حتّى أنّكم تعجزون عن القيام، من هنا كان الشيطان يعد الإنسان بآخر مراحل الفقر: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾[٢].

٤٠. التناد

يطلق على ساحة المحشر يوم التناد. والسبب في التسمية نداء أهل جهنّم لأجل الجنّة ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣]. طبعًا المقصود من الحرمة هنا المنع التكوينيّ وليس التكليفيّ، حيث لا مكان في جهنّم للتكليف. وقيل في سبب التسمية إنّ النّاس ينادي بعضهم بعضًا طلبًا للعون، أو لأنّهم ينادون الملائكة طلبًا للمساعدة، أو لأنّ الأصوات ترتفع بالنداء في المحشر: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٤]، أو لأنّ المؤمنين ينادون عند استلام صحائف أعمالهم: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[٥].

٤١. الغاشية

من جملة أسماء القيامة «الغاشية»، جاء في القرآن الكريم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾[٦].

---

١. فاطر: ١٥.

٢. البقرة: ٢٦٨.

٣. الأعراف: ٥٠.

٤. هود: ١٨.

٥. الحاقة: ١٩.

٦. الغاشية: ١-٥.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في سبب تسمية القيامة بالغاشية قال: «...غشاه الله برحمته في الدنيا والآخرة، وآتاه الأمن يوم القيامة من عذاب النّار»[١].

وجاء في أدعية شهر رمضان المبارك: «اللَّهم غشّني برحمتك»[٢].

وفي مقابل المجموعة الأولى، مجموعة تعيش تحت نِعم الله الخالدة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[٣]. وجاء في آية أخرى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٤].

٤٢. المفر

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٥].

تحدّثت الآيات الشريفة المتقدّمة عن أنّ يوم القيامة هو يوم الفرار من الأقارب؛ والإنسان في الأساس كما يشير القرآن الكريم يبحث عن المفرّ في ذاك اليوم، يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[٦].

٤٣. شخوص الأبصار

القيامة هي اليوم الذي تشخص فيه الأبصار: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[٧]، وجاء في آية أخرى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٦٢.

٢. *مفاتيح الجنان*، دعاء اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان.

٣. الغاشية: ٨-١٦.

٤. يوسف: ١٠٧.

٥. عبس: ٣٤-٣٧.

٦. القيامة: ٦-١٣.

٧. إبراهيم: ٤٢.

﴿...أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١]؛ عندما يقترب الثواب والعقاب تشخص أبصار الكافرين وينادون: الويل لنا، إنّا كنّا عن هذا اليوم غافلين، وكنّا نسارع في الظلم.

٤٤. تقلّب القلوب والأبصار

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٢].

عدّد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام صفات هؤلاء الرجال الطاهرين من جملتها:

١. يمضون أيّام حياتهم بذكر الله.
٢. لا يهتمّون بالكلام الذي يدعو لعدم الاكتراث بما حرّم الله فلا يصغون إليه.
٣. يأمرون بالعدل والمحبّة ويأتون بهما.
٤. ينهون عن القول والعمل القبيحين ويلتزمون بذلك.
٥. يؤمنون ويوقنون بالآخرة، وكأنّ دنياهم قد انتهت وقد دخلوا الآخرة وهم فيها.
٦. كأنّهم يشاهدون ما وراء عالم الدنيا واطلعوا على أخبار أهل البرزخ وأثبتت القيامة وعودها لهم.

«وإنّ للذكر أهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيّام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط، ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة، وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنّما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه وحقّقت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون...»[٣].

---

١. الأنبياء: ٩٧.
٢. النور: ٣٧.
٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٢٢، الأجزاء ٦-١٠.

٤٥. الأليم

جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[١].

ملاحظة: اللذة الكاذبة تتضمّن في داخلها ألماً صادقًا، وحيث إنّ القيامة هي ظرف ظهور الباطن يظهر الألم الصادق من داخل اللذّة الكاذبة للضالّين.

٤٦. العصيب والعسير

اليوم العصيب والعسير هو اليوم الصعب للعاصين: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[٢]، وهو يوم صعب على الكافرين: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[٣].

٤٧. الطامة الكبرى والصعبة

تحدّث القرآن الكريم عن يوم القيامة بأنّه يوم تحصل فيه حادثة عظيمة وكبيرة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾[٤].

٤٨. الذي يُشَيّب

القيامة هي اليوم الذي يشيب فيه الأطفال والشباب: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[٥]؛ والسرّ في ذلك طول موقف القيامة أو صعوبة الأحداث التي تحصل فيه، كما نشاهد في الدنيا أنّ بعض مشكلاتها تتعب الأرواح، فيشيب الطفل والشاب فيها.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «عباد الله، احذروا يومًا تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال وتشيب فيه الأطفال»[٦].

---

١. هود: ٢٦.

٢. المدثر: ٨ و٩.

٣. الفرقان: ٢٦.

٤. النازعات: ٣٤-٣٦.

٥. المزمل: ١٧.

٦. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٥٧، القسم ١٠.

٤٩. التعيس

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[١].

٥٠. الثقيل

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[٢]. ينسى الضالّون القيامة بشكل كامل لشدّة عدم التفاتهم إليها، لا بل يتركونها وراء ظهورهم، ولا يفكّرون بأحداثها المؤلمة الصعبة.

٥١. الداهية

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[٣].

ملاحظة: أشرنا في مطاوي بحث المعاد، إلى أنّ ثقل أحداثه تصل إلى مستوى يعجز النظام الكونيّ عن تحمّله وإلّا لما تلاشى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٤]؛ ويعتبر هكذا حدث أصعب وأمرّ حادثة.

٥٢. العبوس

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[٥].

٥٣. الجزع

يسيطر الضجر على الجميع يوم القيامة، ويكون الضالّون أكثر ضجرًا؛ يعيشون الخوف من مستقبلهم المشؤوم: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[٦].

---

١. الحج: ٥٥.
٢. الإنسان: ٢٧.
٣. القمر: ٤٦.
٤. الأعراف: ١٨٧.
٥. الإنسان: ١٠.
٦. إبراهيم: ٢١.

ملاحظة: أنّ المشهود في أغلب الآيات حول ما يرعب في القيامة مختصّ بأكثر الناس، وإلاّ فالقليل النادر منهم مصان من ذلك كما سيأتي فيما يتعلّق بالفزع.

٥٤. السكر

يخرج الناس عن أحوالهم العادية يوم القيامة لشدّة الأهوال والعذاب، فيكونون كالسكارى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[١].

جاء في تفسير علي بن إبراهيم: «يعني ذاهلة عقولهم من الحزن والفزع متحيّرين»[٢].

ملاحظات:

أ) عندما يُلقى الخمار على العقل يعجز الإنسان العاقل عن التمييز بين البئر والمنصب وبين الطريق المستقيم والمنحرف.

ب) قد تتشكّل خيوط هذا الخمار من شربة خمر، وتارة أخرى من خلال حادث مرير مخرب كالحريق، الغرق، الزلزلة، السيل، البركان وأمثالها.

ج) إنّ الذي يظهر في طليعة المعاد يحمل معه الكثير من هذه السوانح المرعبة.

د) إنّ السكر الذي يسيطر على أغلب الناس في المعاد هو الذي وضّحته الرواية، وليس احتساء الشراب الذي يقدّم نشاطًا يزول بسرعة على الرغم من أنّه كاذب.

٥٥. البكاء

﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٣].

ملاحظة: كما أنّ المعاد هو يوم بكاء الضالّين وحزنهم، كذلك هو يوم نشاط وفرح الأتقياء المؤمنين: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**﴾[٤].

---

١. الحج: ٢.

٢. *تفسير القمي*، ج٢، ص٧٨.

٣. التوبة: ٨٢.

٤. المطففين: ٣٤.

٥٦. الفزع

هو اليوم الذي يفزع فيه كلّ من في السماء والأرض: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[١].

أمّا الأشخاص الكاملون، فلا طريق للفزع والخوف إليهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[٢]. يقول الرسول الأكرمﷺ: «إنّ عليًّا وشيعته يوم القيامة على كثبان المسك الأوفر، يفزع الناس ولا يفزعون، ويحزن الناس ولا يحزنون، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[٣].

ملاحظات:

أ) إنّ الذي يبعث على الفزع في القيامة هو المعاصي الاعتقاديّة والأخلاقيّة والسلوكيّة.

ب) الأتقياء مصانون في الدنيا من تلك السيّئات.

ج) الأتقياء الذين يبتعدون عن المعاصي في الدنيا، لا يشاهدون في الآخرة المناظر المهولة من الأساس ولا يسمعون الأصوات المرعبة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[٤].

د) بما أنّ عناصر المعاد المحوريّة تمتلك الحياة الآخرويّة، فالجميع عالمون ومطّلعون ويعرفون الأتقياء ولا تظهر لهم بوجوه العذاب.

٥٧. يوم الخمسين ألف سنة

تحدّثت الآيات الشريفة عن يوم مقداره ألف سنة أو خمسين ألف سنة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[٥].

وأشارت آية أخرى إلى أنّ مقداره خمسين ألف سنة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٦].

---

١. النمل: ٨٧.

٢. الأنبياء: ٣.

٣. *تفسير البرهان*، ج٣، ص٧٤.

٤. الأنبياء: ١٠٢.

٥. السجدة: ٥.

٦. المعارج: ٤.

يقول الإمام الصادقعليه السلام: «إنّ في القيامة خمسين موقفًا كلّ موقف مثل ألف سنة ممّا تعدّون ثمّ تلا هذه الآية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1].

ملاحظات:

أ) إذا كان الاختلاف بين ألف سنة والخمسين ألف سنة بلحاظ سرعة وبطء محاسبة مختلف الأفراد، فهذا يدل على احتمال الأقلّ من هذا أيضًا، وعدم امتناع الأكثر منه كما يؤيّد ذلك الحديث الآتي.

ب) قد يُسأل إذا كانت ساحة المحشر ويوم القيامة تطول لخمسين ألف سنة من سنوات الدنيا، فهذا يعني أنّ المؤمنين سيفقدون طاقتهم وتحمّلهم بشكل كامل، وعندما تحدّث رسول اللهصلى الله عليه وآله عن طول هذا اليوم؟! فقال: والذي نفس محمّدصلى الله عليه وآله بيده، إنّه ليخفّ على المؤمن حتّى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»[2].

من جهة أخرى إذا اعتبرنا أنّ «أسرع الحاسبين» هو الاسم الذي يتجلّى ذاك اليوم، فإنّ من أبرز تجليّاته هو إعطاء المؤمن ما يستحقّ من الثواب. يضاف إلى ذلك أنّ للصلاة أسرارًا، ومن جملتها تخطّي خمسين ألف سنة في فريضة صلاة واجبة واحدة، وما على الإنسان إلّا أن يختبر نفسه وهل أنّ صلاته تحمل في طيّاتها الخمسين ألف سنة؟ هنا يصل الإنسان إلى باطن الصلاة ويقطع محطّات القيامة بشكل سريع وإلّا لتوقّف في كلّ موقف ألف سنة.

٥٨. الوقوف

هو اليوم الذي يستوقف الإنسان في كلّ نقطة من نقاطه، ويُسأل فيه عن كلّ شيء وكلّ مكان: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[3]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾[4].

---

١. *نور الثقلين*، ج٤، ص٢٢٢، ح٧.
٢. *علم اليقين*، ج٢، ص١١١٣.
٣. الصافات: ٢٤.
٤. الأنعام: ٣٠.

ويستوقف الإنسان بالقرب من النار: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

يقول الرسول الأكرمﷺ: «وعزّة ربي إنّ جميع أمّتي لموقوفون يوم القيامة ومسؤولون عن ولايته، وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾»[٢].

ملاحظة: إنّ الشخص الذي لا يشاهد آثار الله الواسعة في نفسه وخارجها على أثر العمى، والذي لم ينطق بكلمة «يا الله» طوال حياته، عندما يقترب من نار جهنّم يستغيث ويقول: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾[٣].

٥٩. الجمع

إنّ يوم الجمع هو اليوم الذي يلتقي فيه الأوّلون والآخرون: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[٤]، فيحضر الجميع عند الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[٦]؛ عندما يجمع الله تعالى الجميع في ساحة القيامة، فإنّ ذاك اليوم هو يوم الغبن وظهور الغرامة والخسران والندامة على العاصين. وكلّ من آمن بالله وعمل الصالحات غفر الله ذنوبه وأدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار.

---

١. الأنعام: ٢٧.
٢. *نور الثقلين*، ج٤، ص٤٠١.
٣. السجدة: ١٢.
٤. الواقعة: ٤٩ و٥٠.
٥. آل عمران: ٢٥.
٦. التغابن: ٩.

٦٠. العرض

هو اليوم الذي يُعْرض فيه الناس صفًّا واحدًا: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾[١]، ويومئذٍ يتّضح كلّ شيء: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[٢]. وبعد ذلك تُعرض جهنّم على أصحاب النار ليشاهدوها: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[٣].

عن الرسول الأكرمﷺ أنّه قال: «تحشرون حفاة عراة غرلاً، والغرل هم القلف»[٤]. ثمّ يُعْرض الكافرون على النار: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾[٥].

ملاحظات:

أ) كلّ ما له علاقة بالسمع والبصر مما يحمل الرعب بعيد عن المتّقين، كما كلّ ما يحمل معه النشاط والسرور مخصوص بهم، على عكس ما يطرح للكافرين.

ب) قانون القيامة ليس كقانون الدنيا التي يعرض فيها الأبدان والأجرام والأحجام الطبيعيّة فقط، بل تعرض فيها الأسرار والسرائر أيضًا، فلا يبقى أيّ شيء مستورًا ومخفيًّا: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[٦].

٦١. البلاء

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[٧]؛ حيث تفشى فيه الأسرار؛ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾[٨]. سأل معاذ بن جبل رسول اللهﷺ قال: «ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة، وكلّ

---

١. الكهف: ٤٨.

٢. الحاقة: ١٨.

٣. الكهف: ١٠٠.

٤. *نور الثقلين*، ج١، ص٧٤٧.

٥. الأحقاف: ٢٠.

٦. الحاقة: ١٨.

٧. الطارق: ٩.

٨. يونس: ٣٠.

مفروض؛ لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفيّة، فإن شاء الرجل قال: صلّيت ولم يُصلّ، وإن شاء قال: توضأت ولم يتوضأ فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[١].

تحدّث أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه عن يوم الغدير، فاعتبره يوم الله الأكبر ويوم كمال الدين... «إنّ هذا يوم عظيم الشأن... ويوم كمال الدين، هذا يوم إبلاء السرائر»[٢].

إشارة: يتّضح معنى الآية الشريفة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ من خلال آية أخرى جاء فيها ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾.

ملاحظات:

أ) الامتحان هو لتحديد المطيع من العاصي في الدنيا.

ب) يجد الإنسان ثمرة العقيدة والخلق والعمل، وهي باطن هذه الأمور في القيامة.

ج) يختبر الإنسان في القيامة نتيجة أعماله الروحيّة والبدنيّة، فتكون كالثوب الذي يرتديه الإنسان والذي يصيبه البلى؛ أي أنّ ما يجرّبه الإنسان في المعاد هو ثمرة أعماله الدنيويّة فقط.

٦٢. زوال الحجب

يقال إنّ أعضاء الإنسان وجوارحه تقع في القيامة تحت اختيار ملكاته وأعماله؛ لذلك كانت الشهادة على عاتقها، ولا يبقى أيّ مجال لإخفاء أيّ شيء. تلك الساحة، هي ساحة الحضور والعلن، ولا يبقى فيها مجال للغياب والكتمان والاختفاء: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[٣]؛ تنزع الحجب وتظهر خفيّات القلوب؛ كما يخرج ما في بطن الأرض إلى سطحها: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[٤]، وتتجلّى الخفيّات وتبدو الأسرار؛ ويظهر الإيمان والكفر، والنفاق، والرياء، والإخلاص، والنيّة الخالصة، والضلال و...

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٥٢، ح١٥.

٢. *م.ن*، ح١٦.

٣. الطارق: ٩.

٤. الزلزلة: ٢.

بالإضافة إلى شهادة الأعضاء والجوارح تحكي علائم البدن أعمال الإنسان الضال: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[١].

نعم عندها تُرفع الحجب وتظهر السرائر كما يشير القرآن الكريم:

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٢].

٦٣. ظهور العمى والصمم

يحشر الضالون في القيامة عميًا، وقد كانوا في الدنيا مبصرين، ثمّ يعترضون قائلين: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾[٣].

٦٤. نشر الصحائف

يطلق على القيامة يوم «النشر»؛ لأنّ صحائف أعمال الإنسان تفتح ذاك اليوم: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[٤] تكون أعمال الإنسان في الدنيا مغلقة ومغطاة، إلا أنّها منشورة في المعاد. في الدنيا لا يعرف الإنسان شيئًا عن صحائفه، حتّى أنّ أعماله الماضية تخفى عنه، أمّا في القيامة ومع مشاهدة الإنسان لها، يأخذه التعجّب: ما هذه الصحيفة؟! فقد ذُكر فيها كلّ صغير وكبير، حتّى دوّن فيها الجدّ والهزل والمعصية الكبيرة والصغيرة. ثمّ يصله الأمر بقراءة صحيفة أعماله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٥].

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾[٦]،

---

١. الرحمن: ٤١.

٢. الرحمن: ٤١-٤٣.

٣. طه: ١٢٥.

٤. التكوير: ١٠.

٥. الإسراء: ١٣ و١٤.

٦. الإسراء: ٧١.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[١]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[٢].

٦٥. حضور الأعمال

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٣].

ملاحظة: إنّ التحذير من قهر الله هو لأوساط الناس والتحذير من شهود الذات والوصول إلى الهويّة المطلقة والحرم الآمن وقمّة هرم الوجود الذي هو حمى الله هو للأوحديّ من السالكين؛ لأنّ عنقاء المغرب هذه لن تقع في شباك شهود العارف، فكيف بِشِراك ضعاف براهين الحكيم والمتكلّم.

٦٦. السؤال

القيامة هي اليوم الذي تُسأل فيه الخلائق: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٤]. وسنوضح هذا المطلب في الأبحاث الآتية.

٦٧. أداء الشهادة

القيامة هي اليوم الذي يؤدّي فيه الأنبياء، الأئمّة، الأعضاء والجوارح كالعين والأذن، والجلد و... الشهادة، فيفضحون الإنسان على مسمع أهل الكون، وسنتحدّث لاحقًا حول هذا العنوان بالتفصيل.

٦٨. الحساب

يطلق على القيامة «يوم الحساب»، ومع أنّ الله تعالى هو المحاسب على الدوام و«الحسيب» من أسمائه المقدّسة، ففي يوم القيامة الذي هو يوم الحساب يظهر هذا

---

١. الحاقة: ١٩.
٢. الحاقة: ٢٥.
٣. آل عمران: ٣٠.
٤. الأعراف: ٦.

الاسم المقدّس بشكل كامل. تحدّث الله تعالى في القرآن المجيد عن نفسه ثمان مرّات وأنّه «سريع الحساب»؛ من قبيل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١]؛ وقد يشير تارة فيقول ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[٢].

وتحدّثت بعض الآيات عن القيامة وأنّها يوم الحساب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٣]، ويقول أيضًا: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[٤]؛ أمّا ما يوعدون يوم الحساب، فهو نعم الجنّة كالحدائق وثمارها، والفرش المرصّعة والحواري الحسان العفيفات.

٦٩. الوزن

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[٥]، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٦]، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[٧].

يقول الرسول الأكرمﷺ: «إنّه ليأتي الرجل السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة»[٨].

ملاحظات:

أ) إنّ أصل الوزن ونصب الميزان حقّ.

ب) الوزن هو أداة قياس العقيدة والخلق والعمل، وهو حقيقة وليس شيئًا آخر.

ج) لا يقام للكافر ميزان، حيث لا حقيقة له في السرّ والعلن.

د) ثمّة حلّ آخر لقياس دركات الكافرين والمنافقين.

هـ) ما عرضه القرآن الكريم حول وزن مثقال الذرّة هو لأعمال المؤمن وليس لسواه.

---

١. إبراهيم: ٥١.
٢. الأنعام: ٦٢.
٣. ص: ٢٦.
٤. ص: ٥٣.
٥. الأعراف: ٨.
٦. الأنبياء: ٤٧.
٧. الكهف: ١٠٥.
٨. *نور الثقلين*، ج٣، ص٣١٢.

٧٠. الحكم

الله تعالى الذي وصف بـ«أحكم الحاكمين»: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[١] يحكم يوم القيامة بالحقّ والقسط والعدل: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢]. يقول الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ...﴾ في الدنيا ضلالتهم وفسقهم ويجاري كلّ واحد منهم بقدر استحقاقه[٣].

ملاحظات:

أ) إنّ حكم الله تعالى في القيامة ليس مجرّد حكم قضائيّ حول مسائل حقوقيّة وجزائيّة، بل يشتمل كافّة الأحكام المذهبيّة والعلميّة والأخلاقيّة و...

ب) إنّ حكم الله ذاك اليوم، وبالإضافة إلى مقام الحكم الحقوقيّ والجزائيّ، هو حكم حكومتيّ، فالله تعالى هو الحاكم أي القاضي، وهو الحاكم أي الوالي.

ج) إنّ أفضليّة وعظمة الله إنّما هي باعتبار الحقّ والصدق فيه ولترافقه مع شهادة كافّة مساحات ارتكاب التمرّد والعصيان وأدواتها.

٧١. قطع الأنساب

إنّ يوم القيامة هو يوم قطع الروابط والعلاقات. هو يوم لا يقدّم فيه الشخص أيّ مساعدة مهما كانت صغيرة للآخر ولا يبادر إلى حمايته والدفاع عنه: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[٤]؛ وفي هذا اليوم تقطع كافّة الأسباب والوسائل: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[٥]؛ وفيه تفتضح الحيل والمكائد: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[٦]؛ وتزول

---

١. التين: ٨.

٢. البقرة: ١١٣.

٣. *تفسير البرهان*، ج١، ص١٤٣.

٤. الدخان: ٤١.

٥. سصورة البقرة: ١٦٦.

٦. الطور: ٤٦.

العلاقات النسَبيّة بين الأفراد: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[١]، حتّى أنّ الأخ يفّر من أخيه، والصديق لا يسأل عن صديقه الحميم: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[٢].

إذًا، عمل الإنسان فقط هو الشيء الذي يرافقه وينجّيه وينفعه؛ وإذا كانت أعمال الإنسان، الأعم من العقائد والأخلاق والسلوكات، خالصة سالمة حفظته من أهوال القيامة وإلّا فلا، العمل غير السالم ينفعه، بل الإنسان مرهون لعمله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]. وليس الإنسان حرًّا، إلّا أصحاب الأعمال الميمونة والأخلاق الحميدة الذين هم من «أصحاب اليمين»، فهمّ الأحرار فقط.

٧٢. الفصل

القيامة هي يوم الفصل، وفي هذا اليوم ينفصل المؤمنون عن المجرمين ويتمايزون عنهم. يعيش البشر في الدنيا إلى جانب بعضهم، ويتّخذون في الظاهر شكلاً واحدًا، وأمّا في القيامة حيث يُجمَع الجميع في مكان واحد وينفصل المحسنون عن المسيئين: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤]، أو هو اليوم الذي يُفصل فيه في المخاصمات ويُفصل فيه المذنبون: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٥] ويتوجّه الخطاب لهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[٦]. يخاطب الله تعالى رسوله الكريمﷺ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾[٧]، ثمّ يعدّد صفات هذا اليوم: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ

---

١. المؤمنون: ١٠١.
٢. المعارج: ١٠.
٣. المدثر: ٣٨.
٤. الدخان: ٤٠.
٥. يس: ٥٩.
٦. الصافات: ٢١.
٧. المرسلات: ١٤.

لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾[١] ثمّ تضيف الآيات الشريفة: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾[٢].

٧٣. الفتح

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[٣].

٧٤. يوم لا ينفع مال ولا بنون

يعمل الإنسان في الدنيا على حَلّ الأعمال المهمّة والمشكلات الأساسيّة المعقّدة من خلال المال والقوى البشريّة كالولد والصديق والأهل و... إلاّ أنّ كلّ هؤلاء غير مفيدين في الآخرة ولا يحلّون عقدة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤]. يقول الإمام الصادقعليه السلام حول علامات القلب السليم: «هو القلب الذي سَلِمَ من حبّ الدنيا»[٥]، وعن الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله أنّه قال: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[٦]، وعن الإمام الصادقعليه السلام في حديث آخر: «صاحب النيّة الصادقة صاحب القلب السليم» ثمّ تلا الآية المتقدّمة[٧].

٧٥. يوم لا تنفع المعذرة

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٩].

---

١. المرسلات: ٢٩-٣٨.

٢. المرسلات: ٣٩.

٣. السجدة: ٢٩.

٤. الشعراء: ٨٨ و٨٩.

٥. *نور الثقلين*، ج٤، ص٥٨، ح٥٠.

٦. م.ن.

٧. م.ن، ح٥١.

٨. غافر: ٥٢.

٩. التحريم: ٧.

٧٦. رفض العذر

القيامة هي اليوم الذي لا تنفع فيه الصداقة، ولا توصيات الصديق، ولا العذر ولا الاعتذار، ولا البيع ولا الشراء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1].

ملاحظات:

أ) الاعتذار غير التوبة؛ ففي الاعتذار يؤتى بالعذر لترك الوظيفة وفي التوبة لا وجود للأعذار على الإطلاق. من هنا يُعْترف فيها بالمعصية ويكون العفو هو المطلوب.

ب) الاعتذار ليس مفيدًا، إلاّ أنّه يترك بعض الأثر على المستوى الروحيّ وفي القيامة، فلا يُعْطى الضالّون أيّ مجال للاعتذار.

٧٧. يوم منع الكلام

﴿**هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾[2].

قد يبدو تارة أنّ الله تعالى أعدل من أن لا يسمح لمن يملك العذر بالاعتذار، وقد يبدو تارة أخرى أنّ لا مجال للعذر على الإطلاق. يقول حمّاد بن عثمان: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قوله عزّ وجل: ﴿**وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾، فقال: الله أجلّ وأعدل وأعظم من أن يكون لعبده عذر ولا يدعه يعتذر به، ولكنّه فلج فلم يكن له عذر»[3]. وهذا يعني أنّه لم يبقِ له مجال للعذر (سالبة بانتفاء الموضوع). فهو من ناحية الدليل والبرهان كمن أصابه الفلج فأصبح عاجزًا، فلا عذر له ليحدّث به.

٧٨. الغبن

يُطلق على القيامة «يوم التغابن»؛ لأنّه سيتّضح في ذاك اليوم من هو المغبون في تجارته،

---

١. البقرة: ٢٥٤.

٢. المرسلات: ٣٥ و٣٦.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٩٠.

ومن هو الخاسر؛ يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[١]. تشير الآية الشريفة إلى أنّكم إذا اعتبرتم الدنيا مكانًا للتجارة، فما عليكم إلّا الالتفات والاهتمام إلى التعامل فيها، فلا تكونوا من الخاسرين، بل عليكم الحرص على الربح: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٢]، إذًا يجب أن يسعى الإنسان ليبذل وجوده وأملاكه في سبيل الله، وأن يوكلها إليه، وفي ذلك منفعة كبيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

يتحدّث القرآن الكريم عن أصحاب التجارة الرابحة: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾[٤] على عكس المجموعة الأخرى التي يقول عنها: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[٥].

٧٩. الحسرة

يوم الحسرة هو اليوم الذي يتأسّف فيه الإنسان على ماضيه ويندم على عمله الذي أتى به. جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٦]. يقول الراغب حول الحسرة: «الحسرة الغمّ على ما فاته والندم عليه، كأنّه انحسر (انكشف) عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه»[٧].

يقول الإنسان يوم القيامة: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[٨]. وقد ذُكر هذا المضمون في العديد من الآيات. من جملتها: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا

١. التغابن: ٩.
٢. التوبة: ١١١.
٣. الصف: ١٠ و١١.
٤. فاطر: ٢٩.
٥. البقرة: ١٦.
٦. الحاقة: ٥٠.
٧. *مفردات الراغب*، «ح س ر».
٨. الزمر: ٥٦.

جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1]، وسيُظهر الله لهم يوم القيامة أنّ أعمالهم كانت حسرة عليهم وسيخلدون في النار: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[2].

من هنا يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾[3]، يوم يتحسّر الجميع، المسيؤون يتحسّرون على عملهم السيّء، وأصحاب العمل الصالح يتحسّرون عن أعمالهم، ولماذا لم يأتوا بها بأحسن ممّا عملوا، فبإمكانهم الاستفادة من الإمكانيّات الدنيويّة لما فيه نفع أكبر في الآخرة، ولكنّهم لم يفعلوا.

٨٠. يوم عضّ الأيدي

أخبر القرآن الكريم عن يوم يعضّ فيه الظالمون على أيديهم، حسرةً على ما ضيّعوا من أعمارهم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾[4].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة:

«فيّ مناقب لو ذكرتها لعظم بها الارتفاع، فطال لها الاستماع، ولئن تقمّصها دوني الأشقياء، ونازعاني فيها ليس لهما بحقّ، وركباها ضلالة، واعتقداها جهالة، ما عليه وردا، ولبئس ما لأنفسهما مهدا، يتلاعنان في دورهما ويتبرّأ كلّ واحد منهما من صاحبه. يقول لقرينه إذا التقيا: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[5]، فيجيبه الأشقى على رثوثة «يا ليتني لم أتّخذك خليلاً لقد أضللتني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً»[6] فأنا الذكر الذي عنه ضلّ

---

١. الأنعام: ٣١.

٢. البقرة: ١٦٧.

٣. مريم: ٣٩.

٤. الفرقان: ٢٧ و٢٩.

٥. الزخرف: ٣٨.

٦. اقتباس من الفرقان، ٢٨ و٢٩.

والسبيل الذي عنه مال، والإيمان الذي به كفر، والقرآن الذي إيّاه هجر، والدين الذي به كذب، والصراط الذي عنه نكب...»[١].

٨١. تبيَضّ وجوه وتسوَدّ وجوه

سيكون هناك يوم [القيامة] تبيضّ فيه وجوه بعض الناس وتسودّ فيه وجوه آخرين: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

يشار إلى أن عمل الإنسان في الدنيا هو الذي يوجب بياض الوجه أو سواده في الآخرة؛ والأمر متداول في الحوارات العرفيّة، فيقال لمن عمل عملاً لائقًا حسنًا: يوجب بياض وجهه ولمن عمل عملاً قبيحًا سيّئًا: عمله يوجب سواد وجهه وذلّته: ذمّ الله تعالى في القرآن الكريم مرتكبي المعصية: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾[٣]، ويقول حول الذين يكذّبون بآيات الله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[٤].

بياض الوجه وسواده قسمان: القسم الأوّل طبيعيّ، وهو نتيجة الخصوصيّات الإقليميّة، ولا يترك أيّ تأثير على فضائل الإنسان ورذائله؛ لذلك كان بلال الحبشيّ من مفاخر الإسلام؛ والقسم الثاني كسبيّ واختياريّ، وهو نتيجة الحسنات والسيّئات في العقائد والأخلاق والأعمال، وهو الذي يظهر يوم القيامة وعلى أساسه يصنّف البشر إلى أصناف باعتبار لون الوجه والبدن، ولون الوجه هذا هو ما يدلّ على الفضيلة والرذيلة.

«لمّا نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال رسول الله ﷺ يرد على أمّتي القيامة على خمس رايات: فراية مع عجل هذه الأمّة، فأسألهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون أمّا الأكبر فحرّقناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأمّا الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه، فأقول: ردوا النّار ظماء مظمئين مسوةّ وجوهكم، ثمّ يرد عليّ

---

١. *روضة الكافي*، ص٢٧-٢٨، ح٤.
٢. آل عمران: ١٠٦ و١٠٧.
٣. يونس: ٢٧.
٤. يونس: ٦٠.

راية مع فرعون هذه الأمّة، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرّقناه ومزّقناه وخالفناه، وأمّا الأصغر فعاديناه وقاتلناه، فأقول ردوا النار ظمّاء مظمئين مسودّة وجوهكم، ثمّ يرد عليّ راية مع سامريّ هذه الأمّة، فأقول لهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون أمّا الأكبر فعصيناه وتركناه، وأمّا الأصغر فخذلناه وضيّعناه، فأقول ردوا النار ظماء مظمئين مسودّة وجوهكم، ثمّ يرد عليّ راية ذي الثدية مع أوّل الخوارج وآخرهم، فأسألهم ما فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا الأكبر فمزّقنا وبرينا منه، وأمّا الأصغر فقاتلناه وقتلناه، فأقول ردوا النار ظماء مظمئين مسودّة وجوهكم. ثمّ ترد علّ راية مع إمام المتّقين وسيّد الوصيّين وقائد المحجلين ووصي رسول ربّ العالمين فأقول لهم: ماذا فعلتم بالثقلين من بعدي؟ فيقولون: أمّا ألأكبر فاتّبعناه وأطعناه، وأمّا الأصغر فأحييناه وواليناه ووازرناه ونصرناه حتّى أُهرقت فيهم دماؤنا، فأقول ردوا إلى الجنّة رواء مرويّين مبيضّة وجوهكم، ثمّ تلا رسول اللهﷺ: يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه، فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون»[1].

خلاصة الرواية المتقدّمة وكافة الروايات التي تحدّثت عن الموضوع أنّ العمل بالثقلين، أيّ القرآن وولاية عليّ بن أبي طالب وأهل بيته المعصومين سبب بياض الوجه والنورانيّة، ومخالفة الثقلين سبب اسوداد الوجه والقلب.

٨٢. الخلود

يوم الخلود هو اليوم الذي يبشّر الله تعالى فيه الأتقياء بجنّة الخلد؛ لذلك تنادي الملائكة: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[2]، ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٣٨١.
٢. ق: ٣٤.

خَالِدِينَ فِيهَا﴾[١]، وفي المقابل تنادي الملائكة أهل جهنّم متوعّدة بالعذاب، ويقول: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢].

استخدم هذ المصطلح وما يتفرّع عنه في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرّة، وذلك حول نِعَمِ الجنّة وعذاب جهنّم، وترافق بعض الأحيان مع عبارة «أبدًا»، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٣] طبعًا الخلود الذي يعني أبديّة الوجود في الجنّة، فلا بحث ولا جدال فيه، إلّا أن البعض يتأمّل حول أبديّة عذاب أهل النار، حيث يجب دراسة هذا الرأي ونقده بشكل مستقلّ.

ملاحظات:

أ) عند ظهور الآخرة تجمع الدنيا وما فيها: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[٤]، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[٥] وهذا يعني عدم وجود أيّ دنيا بعد ذلك لتتبدّل الآخرة بعد ذلك إلى دنيا.

ب) ليس من الممكن زوال الآخرة ولا الجنّة ولا أهلها.

ج) إنّ التحوّل في دار القرار ليس فرضًا صحيحًا؛ لذلك فإنّ محدوديّة الآخرة وانقراضها لن يكون فرضًا صحيحًا أيضًا.

٨٣. البقاء

إنّ الدنيا وما فيها زائل، والآخرة دائمة باقية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٦]. يقول الإمام عليّ عليه السلام: «قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية»[٧].

---

١. الحديد: ١٢.

٢. النحل: ٢٩.

٣. التغابن: ٩.

٤. الزمر: ٦٧.

٥. إبراهيم: ٤٨.

٦. الرحمن: ٢٦ و٢٧.

٧. *نهج البلاغة*، الخطبة ١١١، القسم ٢٣.

ملاحظة: أكّد القرآن الكريم أنّ كل شيء فانٍ ولم تتحدّث أيّ آية قرآنيّة عن استثناء الهويّة المطلقة وذات الله المقدّسة، وما تمّ استثناؤه هو وجه الله تعالى الذي هو ظهور الفيض و...

٨٤. المأوى

هو اليوم الذي يحدّد مكان الإنسان ومسكنه ومصيره؛ فالإنسان الصالح في جنّة المأوى: ﴿**فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[١]، ﴿**فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[٢]؛ إذًا مأواه الجنّة والضالّون مأواهم النار: ﴿**فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[٣].

ملاحظات:

أ) إنّ ساحة الساهرة والمجال المفتوح للمعاد هو لحضور الجميع الدفعيّ.

ب) بعد دراسة وتتبّع واتّضاح عقيدة وخُلق وعمل كلّ شخص، ينتقل إلى المكان المناسب لما أتى به سواء أكان على المستوى الروحيّ أم البدنيّ.

ج) إنّ كون القيامة مأوىً هو بلحاظ كون مواقف المعاد الوجوديّة ومسير الحياة بعد الموت هي المأوى.

٨٥. المآب

﴿**ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا**﴾، ﴿**وَإِلَيْهِ مَآبِ**﴾[٤].

المآب هو الرجوع، عودة المسافر إلى المبدأ الأصليّ، وبما أنّ الإنسان من الله، فإليه يعود، وإذا حصل أثناء السلوك على معرفة يصبح مصانًا من كلّ أذى، لا بل يحصل له نصيب من النعم.

---

١. السجدة: ١٩.

٢. النازعات: ٤١.

٣. النازعات: ٣٩.

٤. الرعد: ٣٦.

٨٦. المصير

﴿**وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[١]، ﴿**أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[٢].

ملاحظات:

أ) الإنسان، سالك إلى الله تعالى. وليس الإنسان صاحب سير فقط، بل صاحب صيرورة أيضًا، حيث تترك هذه الصيرورة أثرها المهمّ على مصيره.

ب) إذا كان الإنسان تقيًّا كانت صيرورته إلى الجنّة، وإذا كان ضالاًّ كان مصيره إلى جهنّم.

٨٧. المسابقة

﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[٣] ويقول الإمام أمير المؤمنين(ع): «ألا وإنّ اليوم المضمار، وغدًا السباق، والسبقة الجنّة والغاية النّار»[٤].

ملاحظة: أصل المسابقة والتسابق يكون في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ**﴾[٥]، ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[٦] وأمثال ذلك الذي يكون في الدنيا، إلا أنّ مسابقة القيامة هي يوم حصول الفائزين على الجوائز.

٨٨. المنافسة

﴿**خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[٧]، وكما قيل حول المسابقة، فالمنافسة أيّ التقدّم عن الآخرين للحصول على شيء نفيس أو التقدّم في الرتبة، فإنّ ذلك يحصل في الدنيا والمنافسة في القيامة هي اليوم الذي يحصل فيه الفائزون على الجوائز.

---

١. البقرة: ٢٨٥.

٢. آل عمران: ١٦٢.

٣. الواقعة: ١٠ و١١.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٨.

٥. الحديد: ٢١.

٦. البقرة: ١٤٨.

٧. المطففين: ٢٦.

٨٩. يوم منفعة الصادقين

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

أشارت الروايات الواردة في ذيل الآية الشريفة إلى أنّ الرسل والأئمّة الطاهرين هم المصداق الأتمّ لـ «الصادقين» الذين يعلنون أمام الله تعالى يوم القيامة عن تأدية رسالاتهم وإمامتهم، وفي المقابل فإنّ الله راضٍ عنهم في تأدية وظيفتهم ومؤيّد لصدقهم[٢].

٩٠. تجسّم نور الإيمان

أشار القرآن الكريم وفي قالب حواريّ إلى فلسفة نورانيّة المؤمن في القيامة وظلام الضالّين فقدّم نقاطًا مهمّة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٣].

لذلك فإنّ أسباب اسوداد وجوههم أمور:

١. بينما كانوا يسيرون على الضلال، كانوا يخدعون أنفسهم ويظنون أنّهم على حقّ.
٢. كانوا في كلّ يوم ينتظرون هزيمة الإسلام وزوال أعلامه، حتّى لا يستقرّ نظمه للحياة ولا يبقى له أيّ مجال للاستمرار.
٣. كانوا دائمي الترديد والشكّ في حقّانيّة المعاد واليوم الآخر.
٤. كانوا غارقين في آمالهم البعيدة والطويلة والخارجة عن المنطق والعقل.

---

١. المائدة: ١١٩.

٢. *نور الثقلين*، ج١، ص٦٩٣، ح٤٤٦.

٣. الحديد: ١٢-١٥.

٩١. الموعود

إنّ يوم القيامة هو اليوم الموعود للمؤمنين، وهو يوم الفرح: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾[١]؛ وقد اتّفق المفسّرون على أنّ اليوم الموعود هو يوم القيامة، وهذا ما تدلّ عليه الأحاديث الواردة.

٩٢. المحيط

ليس عذاب الآخرة على على حدّ واحد ومن جانب واحد، بل هو من كلّ جانب ومحيط؛ لذلك تحدّث القرآن الكريم عن هذا اليوم الذي يعمّ فيه العذاب من كلّ جهة بعنوان «المحيط» يقول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾[٢]. طبعًا إحاطة العذاب بسبب إحاطة المعاصي: ﴿أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾[٣].

٩٣. المرصاد

القيامة هي اليوم الذي يكون الله تعالى فيه بالمرصاد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٤]؛ ففي البداية يكون الله تعالى بالمرصاد، وبعد ذلك تكون جهنّم بالمرصاد للضالين: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾[٥]. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «المرصاد قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة عبد»[٦].

ملاحظة: صحيح أنّ تحمّل الأخطار شاقّ وصعب، ولكن عندما تقع حادثة مؤلمة مريرة يكون الإنسان غير مستعدّ للدفاع والعلاج والثبات، ويكون قبولها عسيراً للغاية.

٩٤. القصاص

تحدّث القرآن الكريم في آيات عديدة عن القصاص في الدنيا، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ

---

١. البروج: ٢.
٢. هود: ٨٤.
٣. البقرة: ٨١.
٤. الفجر: ١٤.
٥. النبأ، ٢١ و٢٢.
٦. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٧٣، ح١٣.

﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]؛ مع العلم أنّ القصاص قد لا يطبق في الدنيا، إلا أنّ القيامة هي ظرف تطبيقه بشكل كامل؛ كما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «القصاص هناك شديد، ليس هو جَرْحًا بالمديّ ولا ضربًا بالسياط، ولكنّه ما يُسْتصغر ذلك معه»[٢]. وعنوان القصاص شبيه بعنوان العقاب، وهو شيء يأتي على إثر العمل ويتبعه.

٩٥. الاختبار بالنار

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٣].

هم الذين كانوا يستهزؤون بالمعاد انطلاقًا من ظنّهم وكذبهم وعدم لياقتهم، والذين نسوا هذا اليوم القريب، والذين كانوا من المفتونين بجهنّم. هؤلاء يخاطبهم الله تعالى بأن يذوقوا نتيجة أعمالهم ومنطقهم الكاذب.

٩٦. يوم يدعون إلى النار

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

٩٧. يوم الصهر

تحدّث القرآن الكريم حول الذين يجمعون الذهب الغافلين عن الله تعالى الذين يعبدون المال والمغرورون فأشار إلى أنّ القيامة هي يوم «الصهر»، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٥].

أمّا ما هو المعيار الذي على أساسه يصبح الذهب والفّضة من المكنوز والمجموع، ففي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير ذيل الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي

---

١. البقرة: ١٧٩، ١٧٨ و ١٩٤؛ والمائدة: ٤٥.

٢. *نهج البلاغة*، الخطبة ١٧٦، القسم ٣٣.

٣. الذاريات: ١٢-١٤.

٤. الطور: ١٣-١٥.

٥. التوبة: ٣٤ و٣٥.

سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال: «كل مالٍ يؤدّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مالٍ لا يؤدّى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض»[١]. وعلى هذا الأساس فإذا دُفعت حقوق الثروة ليصل الفقراء إلى حقوقهم المشروعة، فإنّ الباقي حلال وذو بركة، وبهذه الطريقة تزول الطبيعة وتقترب من بعضها. وأمّا إذا لم تدفع الحقوق زاد الأغنياء إلى رأسمالهم وأصبحوا قادة المجتمع والنتيجة هي ما صرّحت به الآيات الشريفة.

ملاحظة: قد لا تكفي تأدية الحقوق الشرعيّة في سدّ حاجات المجتمع، وخاصّة في ظلّ الضغوطات الاقتصاديّة والمجاعة والحروب وما تحمل من غلاء؛ لأنّه ومع وجود خطر الفقر، فإنّ مساعدة الفقراء تصبح إمّا واجبًا عينيًّا أو كفائيًّا.

٩٨. يوم سحب الوجوه على النار

من جملة الأحداث التي تقع في القيامة سحب الضالّين في النّار على وجوههم: **﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾**[٢]؛ فالمجرمون والضالّون في النار.

٩٩. القرار

﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[٣]، وفي الحقيقة فإنّ الآخرة هي دار الأبديّة، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول القيامة وأنّها «دار القرار»: «أيّها النّاس إنّما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم»[٤].

ملاحظة: إنّ منطقة الطبيعة ليست منطقة الثبات، وليست هدفًا للمتحرّكين وغير القارّين، أمّا دار القرار والتي هي الطمأنينة، فهي ما وراء الطبيعة حتمًا؛ لأنّ نشأة الحركة ليست محلّ القرار على الإطلاق.

---

١. *بحار الأنوار*، ج٧٠، ص١٣٩، ح٨.

٢. القمر: ٤٩.

٣. غافر: ٣٩.

٤. *نهج البلاغة*، الخطبة ٢٠٣.

١٠٠. التلاق

القيامة هي يوم تلاقي الجميع أو اليوم الذي تلتقي به السماء بالأرض: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[١]، وهو اليوم الذي يجمع فيه الشمس والقمر: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٢].

يعتقد العلاّمة الطباطبائيّ‌ؒ أن ألطف المعاني من بين تلك التي ذكرت هو أن نقول إنّ الخالق والمخلوق يتلاقيان في القيامة، فيصل الجميع للقاء الله؛ باعتبار أنّ بعض الآيات الشريفة تشير إلى لقاء الإنسان بالله تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٤].

إشارات

١. بما أنّ المعاد هو العود إلى المبدأ والله تعالى هو مبدأ عالم الإمكان، فله أسماء حسنى متعدّدة، ولكلّ اسم ظهوره الخاصّ؛ لذلك كان للمعاد أسماء متعدّدة، ومرجعها ظهور أسماء الله الحسنى المختلف والمتعدّد عند رجوع الخلق إلى الخالق.

٢. إنّ المعاد الذي هو قوس صعود الخلق إلى الخالق امتزج مع خصوصيّات اعتقاديّة وأخلاقيّة وسلوكيّة متنوّعة عند الخلق؛ لذلك كان سبب ظهور أسماء مناسبة لهذه الأمور.

٣. مع أنّ الوحي الإلهيّ قد ترافق مع التبشير والإنذار، الوعد والوعيد، والجنّة والنار، إلا أنّ أكثر الناس يبتعدون عن جهنّم عن طريق الإنذار والوعيد والخوف ويصلون إلى الجمال، ومن هنا يمكن القول إنّ أسماء المعاد تميل في الغالب نحو الإنذار والإرعاب والتخويف والتهويل مع أنّها تدلّ على البشارة.

---

١. الحاقة: ١٤.

٢. القيامة: ٩.

٣. الكهف: ١١٠.

٤. الانشقاق: ٦.

٤. بما أنّ رحمة الله سابقة على غضبه، فهذا يعني أنّ الغضب الإلهيّ يقوم على أساس إمامة الرحمة وزعامة المحبّة، لذلك يمكن القول إنّ أساس قوس الصعود كما قوس النزول يعتمد على أساس الرحمة والرأفة؛ كما أنّ نهاية عذاب أهل جهنّم طويل المدّة، وهذا يعتمد على التخلّص من آلام النقمة والوصول إلى جوهر النعمة.

ولا شكّ أنّ تحمّل هذا العذاب المهلك والعظيم صعب للغاية، بل هو مستصعب، والمعذّبون للأبد أقلّ بكثير من المعذبين لوقت محدود.

٥. إنّ الأسماء التي ذُكرت للمعاد والتي ستُذكر، يتّخذ بعضها صيغة الوصف وبعضها الآخر صيغة العلامة والتسمية. ولعلّ جميع ما تقدّم ليست أسامٍ رسميّة للقيامة. من هنا وكما يمكن ذكر ألفُ اسم لله تعالى والتي هي ظهوراته المتعدّدة في الدنيا، يمكن تصوير هكذا أسماء في الآخرة وليس المقصود من أسامي القيامة خصوص تسمية المصطلح.

الفصل العاشر

السؤال في القيامة

يوم عموم السؤال

إنّ السؤال يوم القيامة هو قانون عامّ يشمل الأنبياء وعموم الناس، يقول تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[1].

وعلى هذا الأساس فإنّ جميع الأنبياء، الأئمّة، الأتقياء والناس مسؤولون. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فيقام الرسل فيُسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى الأمم. فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم وتسأل الأمم فيجحدون»[2].

أشار القرآن الكريم في الآية الثانية إلى سؤال مطروح، وهو هل من الممكن أن يكون الله تعالى غير مطلع على أعمال الإنسان ويرغب الاطّلاع من خلال سؤال الناس أنفسهم؟ والجواب: فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين.

إذًا، السؤال هو لأجل أن يلتفت الإنسان إلى عمله وإلى ما يستحقّ من أجر عليه؛ مثال ذلك الامتحان الذي يخضع له التلميذ ليتمكّن من أن يحكم على نفسه وما يستحقّ في شهادة علاماته.

وتظهر آثار الجرم على وجوه بعض الناس ولا يعيشون على شكل إنسان، بل يُحشرون على صورة وحوش سواء أكانت من الجنّ أو الإنس، ولا يسألون: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[3]. يضاف إلى ذلك شهادة الأعضاء والجوارح.

---

١. الأعراف: ٦ و٧.
٢. *نور الثقلين*، ج٢، ص٤.
٣. الرحمن: ٣٩ و٤١.

ملاحظة: السرّ في عدم سؤال بعض العاصين في الموقف أنّهم معروفون بجرمهم بالوسم والعلامة؛ لذلك لا حاجة لسؤالهم.

وينتفي استثناء هذه المجموعة وهو كالاستثناء الذي يجريه الحقّ تعالى بحقّ المخلصين، حيث يُحضَر الجميع يوم القيامة إلّا المخلصين: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[١]، ويتمّ إيقاف الجميع ذاك اليوم ليقدّموا الجواب: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾[٢].

محور السؤال

١. عن الرسول الأكرمﷺ: «إذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنّم لم يجز عليه إلّا من معه جواز فيه ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٣].

٢. ذكّر الإمام الرضا عليه السلام باسم الإمام عليّ عليه السلام ونقل عن رسول اللهﷺ: «وعزّة ربيّ أنّ جميع أمّتي لموقوفون يوم القيامة ومسؤولون عن ولايته، وذلك قول الله عزّ وجل ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾»[٤].

٣. عن عليّ عليه السلام قال: «قال النبيّﷺ: أوّل ما يسأل الله عنه العبد عن حبّنا أهل البيت»[٥].

٤. قال رسول اللهﷺ: «لا تزلّ قدمُ عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه وعن حبّنا أهل البيت»[٦].

٥. وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أنّه قال: «اتّقوا الله في عباده وبلاده، فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم»[٧].

---

١. الصافات: ١٢٧ و١٢٨.

٢. الصافات: ٢٤.

٣. *نور الثقلين*، ج٤، ص٤٠١.

٤. م.ن.

٥. م، ن، ص٤٠٢.

٦. م.ن.

٧. م.ن.

٦. في ذاك اليوم تسألون عن نِعم الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[١] وهل تمّ استخدامها في سبيل الحقّ أم في سبيل الباطل؟ وهل حصلتم عليه عن طريق الحقّ أم الغصب؟ وتسألون عن الطعام والماء الزلال وعن مختلف الأطعمة، والأهم من ذلك عن التوحيد، والنبوّة، والولاية وحبّ أهل البيت. وفي هذا السياق جاءت العديد من الروايات وخاصّة عن الإمام الرضاعليه السلام في تفسير النعيم، أنّ النعيم هو حبّنا أهل البيت. والله سيسألكم عن محبّتنا أهل البيت بعد السؤال عن التوحيد والنبوّة، ثمّ أضاف الإمامعليه السلام: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: أوّل ما يسأل عنه العبد بعد موته شهادة أنّ لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله وأنّك وليّ المؤمنين بما جعله الله وجعلته لك. فمن أقرّ بذلك وكان معتقده صار إلى النعيم الذي لا زوال له»[٢].

سأل أبو حنيفة أبا عبد اللهعليه السلام عن هذه الآية فقال له:

«ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتّى يسألك عن كلّ أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولنّ وقوفك بين يديه، قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبيّ وعترته»[٣].

وعلى هذا الأساس فالنعم المادّية والطبيعيّة تكون على إثر النعم المعنويّة من أمثال النبوّة، التوحيد، الولاية، الإمامة وحبّ أهل البيتعليهم السلام. ويعتبر الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومونعليهم السلام وسائط فيض النعم، وهذا ما يستفاد من زيارة «الجامعة الكبيرة».

٧. ومن موارد السؤال دعوة الأنبياءعليهم السلام أيضًا. ويوم القيامة ينادي الله الناس كيف

---

١. التكاثر: ٨.

٢. *نور الثقلين*، ج٥، ص٦٦٤.

٣. م.ن، ص٦٦٥.

أجبتم رسل الحقّ؟ هل قبلتم دعوتهم وأطعتموهم أم خالفتموهم وعصيتموهم؟ وفي ذاك اليوم يغلق طريق الاعتذار والكلام عن الضالّين، فلا يبقى لديهم أيّ سؤال وأيّ جواب من هول العذاب: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[١].

٨. ويسأل الناس يوم القيامة عن الفتيات اللواتي دفنّ أحياءً وعن الجرم الذي ارتكبنه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[٢]. كانت عادة بعض قبائل العرب أن تسودّ وجوههم إذا وُلدت لهم مولودة أنثى ثمّ يتوارى عن قومه، ثمّ يسأل نفسه هل يحتفظ بها ذليلاً مهانًا أم يدفنها في التراب: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[٣].

حارب الإسلام هذه الثقافة الخاطئة بشدّة، وقد لعب رسول الإسلامﷺ دورًا محوريًّا في محاربتها؛ فكان يظهر الكثير من الاحترام للسيّدة الزهراء عليها السلام، ويقبّل يدها ويزورها كلّما غادر في سفر أو رجع منه. يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«البنات حسنات والبنون نعمة والحسنات يثاب عليها والنعمة يُسأل عنها، وقال: إنّه بشّر النبيّﷺ بفاطمة عليها السلام، فنظر في وجوه أصحابه فرأى الكراهية فيهم. فقال ما لكم؟ ريحانة أشمّها ورزقها على الله»[٤].

وقدم الرسول والأئمّة الأطهار عليهم السلام تأويلات أخرى حول قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾.

ففي البعض منها أنّ كلّ مقتول ظلمًا يأتي يوم القيامة ليأخذ برقبة قاتله. وينادي الله ليسأل القاتل عن سبب فعلته كما يسأل أقارب رسول اللهﷺ عن قتلهم المؤمنين وذوي القربى، ويسأل عن الظلم الذي لحق عباد الله. ويقول الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية

١. القصص: ٦٥ و٦٦.

٢. التكوير: ٨ و٩.

٣. النحل: ٥٨ و٥٩.

٤. *نور الثقلين*، ج٣، ص٦١.

المتقدّمة: «مَنْ قتل في مودّتنا»[١] حيث يُسأل يوم القيامة عن الذين قتلوا في سبيل محبّة أهل البيت عليهم السلام.

يشار إلى أنّ الفيض الكاشاني دوّن الأسئلة والإجابات الآخرويّة تحت عنوان «المسألة والشهداء» وعرض أحاديث عديدة حول السؤال عن القلم، اللوح، إسرافيل، جبرائيل، محمّد صلى الله عليه وآله، علي عليه السلام، أئمّة الدين عليهم السلام، المؤمن، الكفّار، الأغنياء، الفقير، المؤمن، الكافر القوي، الكافر العاجز وقدم الإجابات على الأسئلة[٢].

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥١٤.
٢. *علم اليقين*، ج٢، ص١١٢٨.

الفصل الحادي عشر

شهداء القيامة

شهادة رسول الإسلامﷺ

الله تعالى عالم بكلّ ما يفكّر به البشر، وهو يعلمه سواء أكان علنيًّا أم خفيًّا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[1]. وعلى هذا الأساس، فالله سيكشف في يوم من الأيّام هذا السرّ الخفي. قد يكون إظهار السرّ في الدنيا من خلال الامتحان؛ مثال ذلك ما جاء في قصّة بني إسرائيل وكتمان قتلهم إنسانًا، حيث أخضعهم الله لامتحان فظهر السرّ في ذلك: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2]. ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ❁ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[3].

وقد تظهر الأسرار المكتومة في اليوم الآخر؛ في ذاك اليوم الذي ترفع فيه كافّة الحجب، ذاك اليوم تتّضح جميع أعمال الإنسان وتشهد جميع أعضائه وجوارحه، وتشهد الرسلعليهم السلام كما يشهد رسول الإسلامﷺ. جاء في القرآن الكريم حول هذا الأمر: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ❁ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[4].

وعلى هذا الأساس، فإنّ لكلّ أمّة شهيدًا، ورسول الإسلامﷺ شاهد على أمّته وعلى

---

١. المائدة: ٩٩؛ النور: ٢٩.

٢. البقرة: ٧٢.

٣. محمّد: ٢٩ و٣٠.

٤. النساء: ٤١ و٤٢.

الأمم السابقة، بل يمكن القول إنّ الرسولﷺ هو شهيد الشهداء والمشهود العليم؛ لأنّ كافّة شؤون أفراد البشر مشهودة له، وأعمالهم حاضرة لديه، وهو ذو إحاطة علميّة بكافّة المخلوقات بلطف وعناية من الله تعالى.

يعتقد بعض المفسّرين في معنى الآية الشريفة أنّ الله تعالى يجمع الناس في القيامة ثمّ يؤتى بالشهداء عليهم وهم أنبياؤهم، ثمّ تُقاس عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم إلى عقائد الأنبياء وأخلاقهم وأعمالهم، ثمّ تعرض أعمال كلّ أمّة على نبيّها[١].

وعلى هذا الأساس، ليس المقصود من الشهادة أنّ النبيّﷺ يصدق بعض الناس ويكذّب آخرين، بل المقصود أن تُقاس عقائد كل أمّة وأعمالها وأخلاقها إلى أعمال نبيّ تلك الأمّة.

في الجواب يجب القول: إنّه لا شكّ أن كون عقائد الرسل وأئمّة الدين عليهم السلام وأخلاقهم وأعمالهم ميزان عقائد الأمّة وأخلاقها وأعمالها، فهذا حقّ، إلاّ أنّه لا دليل على أنّ الآية المتقدّمة ذكرت الشهادة بمعنى ميزان العقائد والأخلاق والأعمال. الحقّ هو ميزان الأعمال، وإلى ذلك أشارت آيات القرآن الكريم: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾[٢]. الخلاصة، أنّ الشهادة في الآية محلّ البحث لا تعني وزن الأعمال والأخلاق والعقائد.

يضاف إلى ذلك أنّ كلّ نبيّ شاهد على أمّته، ورسول الإسلامﷺ شاهد على كلّ الأمم.

يتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام حول الرسولﷺ الشهيد ويقول: «فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك بالحق، ورسولك إلى الخلق»[٣]. ويقول في موضع آخر: «فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحقّ رحمة»[٤].

يقول الإمام الصادق عليه السلام ذيل الآية الشريفة

---

١. *تفسير المنار*، ج٥، ص١٠٩.

٢. الأعراف: ٨.

٣. *نهج البلاغة*، الخطبة ٧٢.

٤. م.ن، الخطبة ١٠٦.

«فكيف إذا... نزلت في أمّة محمّدﷺ خاصّة، في كلّ قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم ومحمّد شاهد علينا»[١]

وعليه فالآية لا يراد بها الأمم السابقة مع أنّها لا تنفي ولا تلغي شهادة الأنبياء السابقين. على كلّ حال، لا منافاة في أن يكون كلّ نبيّ شاهدًا في زمان حياته على أعمال أمّته؛ فالسيّد المسيح يقول في جواب الحقّ تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

أماني العاصين يوم القيامة

١. يتمنّى الكافرون والعصاة يوم القيامة لو تسوّى بهم الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ...﴾[٣].

٢. يتمنّى الكافرون لو كان لهم بمقدار الأرض أو أضعافها من الذهب ليفتدوا به وينجوا من العذاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤].

٣. يتمنّون لو كانوا ترابًا: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[٥].

٤. يتمنّون لو أنّ شخصًا يمدّهم من نوره، فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[٦] وعندما يقطع رجاؤهم من كلّ شيء، يظهرون كلّ خفيّ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[٧]، ففي البداية يحضرون المبرّرات، وبعد ذلك يتوسّلون الأماني، طبعًا كلّ هذه الأمور هي ظهور ملكاتهم الدنيويّة. لقد تآلفوا في الدنيا مع الكذب وأمضوا العمر بالغفلة.

---

١. *نور الثقلين*، ج١، ص٤٨٢.

٢. المائدة: ١١٧.

٣. النساء: ٤٢.

٤. المائدة: ٣٦.

٥. النبأ: ٤٠.

٦. الحديد: ١٣.

٧. النساء: ٤٢.

وفي القيامة يظنّون بداية أنّ النظام الحاكم فيها كنظام الدنيا؛ لذلك يلجؤون إلى الكذب والتمنّي، ثمّ تحلّ عليهم اليقظة؛ يقولون بداية: «ما كنّا نعمل من سوء»، فتجيب الملائكة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. وقد يلجؤون إلى القسم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾[3].

شهادة أهل البيت عليهم السلام

١. ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[4].

ذُكرت العديد من الروايات في ذيل الآية الشريفة حول شهادة الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام؛ من جملتها:

أ) عن الإمام الباقر عليه السلام: «فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلغنا عن الله تبارك وتعالى، ونحن الشهداء على الناس يوم القيامة، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه ومن كذّب كذّبناه»[5].

ب) عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال في جمع من المهاجرين والأنصار بالمسجد أيّام خلافة عثمان: «أنشدكم الله أتعلمون أنّ الله عزّ وجل أنزل في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ إلى آخر السورة. فقال سليمان فقال: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد وهم شهداء على الناس الذين اجتباهم الله ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم؟

---

١. النحل: ٢٨.

٢. الأنعام: ٢٣.

٣. المجادلة: ١٨.

٤. الحج: ٧٨.

٥. *نور الثقلين*، ج٣، ص٥٢١.

فقال‌عليه‌السلام: عنى بذلك ثلاثة عشر رجلاً خاصّته دون هذه الأمّة، قال سليمان: بيّنهم لنا يا رسول الله؟ قال: أنا وأخي وأحد عشر من ولدي»[١].

وهذا يعني أنّ الأمّة الإسلاميّة لا تكون شهيدة على أعمال بعضها، بل المراد إمّا خصوص الرسول والأئمّة‌عليهم‌السلام، أو الكُمّل من الأمّة؛ لأنّ بإمكانهم الشهادة يوم القيامة على الأعمال، وبهذا المعنى جاءت الآية الشريفة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢]. مع العلم أنّ هناك معنى آخر لشهادتهم‌عليهم‌السلام؛ كما أنّ الأمّة الإسلاميّة تمتلك حقّ الشهادة على الأمم الأخرى.

شهادة الإمام‌عليه‌السلام

٢. ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٣] عن الإمام الباقر‌عليه‌السلام أنّه يُختار إمام هذه الأمّة ليشهد على الأمّة الإسلاميّة[٤].

الشهادة التكوينيّة

٣. تشهد العلائم والآثار التكوينيّة يوم القيامة على عمل الإنسان: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[٥]؛ وعندما يظهر وجه الإنسان ويبدو عليه آثار الجرم، عند ذلك لا حاجة للشهادة، فعند ذلك يؤخذ بالنواصي والأقدام.

شهادة المرافق

٤. جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٦]. يقول بعض المفسّرين، عند المحشر يأخذ ملك كلّ شخص للمحشر ويشهد ملك على حسناته وسيّئاته؛ وهذا ما يُستفاد من بعض الروايات.

---

١. م.ن، ص٥٢٦.
٢. البقرة: ١٤٣.
٣. القصص: ٧٥.
٤. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٣٨.
٥. الرحمن: ٤١.
٦. ق: ٢١.

يقول الإمام أمير المؤمنينعليه السلام: «سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها»[1]. ويقول أيضًا: «ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلاّ قال له ذلك اليوم: أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فافعل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً، أشهد لك به يوم القيامة، فإنّك لن تراني بعد هذا أبدًا»[2]. ويقول الإمام الصادقعليه السلام: «فإنّه لا بدّ يوم القيامة من أن يأتي كلّ إنسان بسائق يشهد له على دينه»[3].

الشاهد على عمل الإنسان يجب أن يكون شخصًا قد شاهد عمله ويعرف شخصه؛ لأنّ أداء الشهادة مسبوق بتحمّلها ويكون أداء الشهادة مقبولاً إذا كانت مسبوقة بحملها العاقل والعادل.

وعلى هذا الأساس، فالشهداء يوم القيامة يعرفون أشخاص البشر وأعمالهم بشكل كامل، وفي هذه الحال لا يمكن لأيّ شخص الاعتراض على الله تعالى: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[4] ولا يمكنهم القول إنّك لم تبعث لنا رسلاً لنتبع آياتك: ﴿**لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى**﴾[5]. وعليه، فالشهداء يوم المحشر مجموعة يحملون من كلّ جهة لياقة الشهادة وأدائها.

يقول الإمام أمير المؤمنينعليه السلام: «فاتّعظوا عباد الله بالعبر النوافع... فـ«وكلّ نفس معها سائق وشهيد» سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها»[6].

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص١١١.

٢. م.ن، ص١١٢.

٣. م.ن.

٤. النساء: ١٦٥.

٥. طه: ١٣٤.

٦. *نهج البلاغة*، الخطبة ٨٥.

شهادة الأعضاء

٥. تعتبر أعضاء الإنسان وجوارحه شهداء مباشرين عليه، فيؤدّون شهادتهم يوم المحشر: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١]. وجاء في آية أخرى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «وليست تشهد الجوارح على مؤمنٍ، إنّما تشهد على مَن حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه. قال الله عزّ وجل: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾»[٣].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ختم الله على الأفواه، فلا تكلّم، وتكلّمت الأيدي، وشهدت الأرجل، ونطقت الجلود بما عملوا، فلا يكتمون الله حديثًا»[٤]. ويقول عليه السلام في حديث آخر: «فيختم الله على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود، فتشهد بكلّ معصية كانت منه، ثمّ يرفع عن ألسنتهم الختم، فيقولون لجلودهم: لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء»[٥]. ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: «إعلموا عباد الله أنّ عليكم رصدًا من أنفسكم، وعيونًا من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم. لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يسكنكم منهم باب ذو رتاج. وإنّ غدًا من اليوم قريب»[٦].

الشهادة على الكاذبين

٦. ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا

---

١. النور: ٢٤.

٢. يس: ٦٥.

٣. الإسراء: ٧١؛ *نور الثقلين*، ج٣، ص١٩٥.

٤. *نور الثقلين*، ج٤، ص٣٩١.

٥. *نور الثقلين*، ج٤، ص٣٩٢.

٦. *نهج البلاغة* الخطبة ١٥٧.

يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١] .

نزلت الآية في قوم تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون: ما عملنا شيئًا منها، فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم، قال الصادقعليه السلام: فيقولون لله، يا ربّ هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ثمّ يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئًا منها، وهو قول الله (عزّ وجلّ): **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾**، وهم الذين غصبوا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فعند ذلك يختم الله عزّ وجلّ على ألسنتهم وينطق جوارحهم، فيشهد السمع بما سمع ممّا حرّم الله عزّ وجلّ، ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرّم الله عزّ وجل، وتشهد اليدان بما أخذتا وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله عزّ وجل، ويشهد الفرج بما ارتكب ممّا حرّم الله عزّ وجل ثمّ أنطق الله عزّ وجل ألسنتهم، فيقولون هم لجلودهم: لم شهدتم قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء وهو خلقكم أوّل مرّة وإليه ترجعون، وما كنتم تسترون، أيّ من الله، أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم والجلود والفروج، ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً ممّا تعلمون[٢].

---

١. فصلت: ٢٠-٢٢.

٢. *نور الثقلين*، ج٤، ص٥٤٣.

الفصل الثاني عشر

كتاب الأعمال

كيفيّة كتاب الأعمال

إنّ كتاب الأعمال ليس الدفتر والكتاب الدنيويّ الذي يدوّن فيه أعمال الإنسان. وقد أشارت آيات القيامة إلى كتابة الأعمال، والكتابة بمعنى التسجيل، فالكتابة واحدة من مصاديق التسجيل، ومن هنا فهي تشمل خواطر وأفكار الإنسان أيضًا، حتّى أنّ درجات إخلاص الإنسان تُسجّل، وهذا ما يستفاد من بعض الآيات القرآنيّة؛ فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[1]؛ وهذا يعني أنّ الله تعالى سَجّل وكتب على نفسه الرحمة كأصل مسلّم. وعليه، فكتابة الأعمال تعني تسجيل عين العمل ويشاهد الإنسان في الآخرة عين عمله في سجلّ أعماله. أشارت الآيات الشريفة وفي موارد عديدة إلى هذه الحقيقة، منها:

١. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]. ويسجّل عمل كلّ إنسان باسمه فقط.

يعتقد العلاّمة الطباطبائيّ قدس سره أنّ هناك ثلاثة كتب في القيامة، كما يستفاد من ظاهر آيات القرآن الكريم.

أ) الكتاب المتعلّق بجميع البشر؛ كما تدلّ عليه آية ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾.

ب) الثاني هو الكتاب الذي يسجّل فيه عمل كلّ أمّة: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[3].

---

١. الأنعام: ٥٤.

٢. الكهف: ٤٩.

٣. الجاثية: ٢٨.

ج) الثالث هو الكتاب الخاصّ بكلّ إنسان: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾[١].

ملاحظة: هذا المعنى صحيح إذا لم يكن المراد به التحليل ووضع الجميع في مقابل الجميع؛ أي جميع الكتب لجميع الآحاد أو جميع كتب الأمم لجميع الأمّة؛ لأنّه وبناءً على الاحتمال الأوّل، فسيكون هذا الكتاب هو الثالث، وبناءً على الاحتمال الثاني فسيكون هو الثاني، وعلى كل تقدير، لن يكون كتابًا مستقلاً. طبعًا هذا الكتاب ممكن ثبوتًا، أمّا سر تصحيح الكتاب فهو أنّ لأعمال الإنسان جهات متعدّدة؛ كما أنّ أعماله ليست على سنخ واحد. فما له علاقة بأحواله الشخصيّة يدوّن في الكتاب الفرديّ، وما له علاقة بالمسائل الاجتماعيّة والسياسيّة و... فيُدوّن في الكتاب الاجتماعيّ والوطنيّ، وما له علاقة بالمسائل الدوليّة والعالميّة يدوّن في الكتاب العالميّ.

وعلى هذا الأساس، فمن الممكن أن تدوّن أعمال الإنسان في ثلاث نسخ: الكتاب الشخصيّ، الكتاب الجمعيّ، وكتاب الكلّ.

وعليه، لا مجال لأيّ اشتباه أو إنكار؛ حيث يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة دُفع للإنسان كتابه ثمّ قيل له اقرأه، قلت ما فيه؟ فقال: إنّه يذكره فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله إلا ذكره. كأنّه فعله تلك الساعة؛ ولذلك قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[٢].

٢. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

يقول العلاّمة الطباطبائيّ في تفسير ذيل الآية الشريفة: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ولازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كتابًا وأصلاً، وإن شئت فقل: في أصل وكتاب يستنسخ وينقل منه ولو أريد به ضبط الأعمال

---

١. الإسراء: ١٣؛ *الميزان*، ج١٣، ص٥٥.

٢. الكهف: ٤٩؛ *نور الثقلين*، ج٣، ص١٤٤.

٣. الجاثية: ٢٨ و٢٩.

الخارجيّة القائمة بالإنسان بالكتابة لقيل: إنّا كنّا نكتب ما كنتم تعملون؛ إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتابًا وأصلاً يستنسخ، ولا دليل على كون (يستنسخ) بمعنى يُستكتب كما ذكره بعضهم. ولازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجيّة بما أنّها في اللوح المحفوظ، فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ، وتكون صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال وجزءًا من اللوح المحفوظ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال.

وهذا هو المعنى الذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق عليه السلام ومن طرق أهل السنّة عن ابن عباس.

عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

> سألته عن ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ قال: إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال لها الخلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة: كن مدادًا فجمد النهر، وكان أشدّ بياضًا من الثلج وأحلى من الشهد. ثمّ قال للقلم: أكتب. قال: يا ربّ ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضًا وأصفى من الياقوت، ثمّ طواه فجعله في ركن العرش ثمّ ختم على فم القلم، فلن ينطق أبدًا. فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلّها أو لستم عربًا؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟ وأحدكم يقول لصحابه: انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنّما ينسخ من كتاب آخر من الأصل؟ وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.
>
> قال ابن عباس ألستم قومًا عربًا؟ تسمعون الحفظة يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهل يكون الاستنساخ إلاّ من أصل[1].

وعلى هذا الأساس، فالحقّ تعالى عالم بعمل الإنسان قبل أن يظهر في عالم التكوين، وهو مدوّن لديه. يقول الحسين بن بشار: قلت لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «أيعلم الله الشيء

---

١. *الميزان*، ج١٨، ص١٨١ و ١٨٦.

الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون؟ فقال: إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء. قال عزّ وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

ملاحظات:

أ) الإنسان مختار ومفكّر في جميع الأعمال القلبيّة والقالبيّة، والجبر محال في جميع المراحل، والجبر العليّ والمعلوليّ يختلف عن الجبر المقابل للتفويض، وكلاهما باطلان، والأمر بين الأمرين الذي هو عبارة عن الحرّيّة والاختيار الحقّ.

ب) إنّ ما يؤدّيه الإنسان من عمل سواء بلحاظ الجزم العلميّ مع الحفاظ على المباني التصوّريّة والتصديقيّة أو بلحاظ العزم العمليّ مع الحفاظ على الإرادة والاختيار، كلّ ذلك مسجّل في اللوح المحفوظ أو في كتب الله العلميّة الأخرى، وأساس التسجيل يعود إلى مسألة تابعيّة العلم للمعلوم، على العكس ما يطرح في بحث آخر حيث اختلاف المحوريّة فيكون المعلوم تابعًا للعلم؛ لأنّه وفيما يتعلّق بتابعيّة العلم للمعلوم.

ج) إنّ ما يؤدّيه الإنسان في الوجود العينيّ هو أمر استنساخيّ عن الوجود الأصليّ لله تعالى، حيث النسخة الأساس والملائكة عند تسجيل الأعمال تأخذ بعين الاعتبار النسخة الأساس؛ لذلك كلّ ما كتبوا فهو حقّ، والشاهد على ذلك علم الحقّ تعالى.

٣. ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٢].

إذا كانت نتيجة أعمال الإنسان كالطوق الذي يلتفّ حول رقبته، ففي ذلك دلالة على أنّ عمل الإنسان معه وبرفقته دائمًا ولا ينفصل عنه على الإطلاق؛ باعتبار أنّ رقبة الإنسان الحيّ لا تنفصل عنه على الإطلاق، على عكس الأعضاء كالأيدي والأرجل. يوم القيامة تظهر كافّة الأعمال بشكل شفّاف ومن دون حجاب، مع العلم أنّها خفيّة على إدراك

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٦.

٢. الإسراء: ١٣ و١٤.

الإنسان فهو غافل عنها؛ لذلك يُقال له اقرأ كتابك واحكم بنفسك. من البديهي أنّ الإنسان عندما يشاهد كتابه بعقله وشعوره وهما حيّان، ولا يجد ما يؤدّي إلى الإبهام والإنكار، فإنّه يرضخ لأعماله ويحكم على نفسه. يضاف إلى ذلك شهادة جوارح الإنسان، فساحة القيامة هي ساحة إقامة الحقّ والعدل.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «خيره وشرّه معه حيث كان لا يستطيع فراقه، حتّى يعطى كتابه يوم القيامة بما عمل»[١] وجاء في حديث آخر: «يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه حتّى كأنّه فعله تلك الساعة»[٢].

٤. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٣].

تجدر الإشارة إلى أنّ المقصود من كتابة الملائكة الأعمال وتسجيلها مختلف عن كتابتها وتدوينها وتعدادها في الكتاب المبين (اللوح المحفوظ). وقد أشرنا سابقًا إلى أنّ أعمال الإنسان تسجّل في ثلاثة أماكن، وقد تحدّث الله تعالى عنها تحت عناوين متعدّدة من أمثال: «اللوح المحفوظ»، «أمّ الكتاب»، و«الكتاب المبين» وكان لها أسماء متعدّدة وعناية خاصّة. ولعلّ تسميتها بـ «الإمام المبين» هو من باب اشتمالها على القضاء الحتميّ المتبوع للخلق وعنها يُستنسخ كتاب الأعمال.

الأحاديث الواردة حول الموضوع عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام تفتح آفاقًا جديدة على المعارف الإلهيّة.

قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه، فجاؤوا به حتّى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هكذا تُجمع الذنوب، ثمّ قال: إيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شيء طالبًا، ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين.

---

١. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٤٤.

٢. م.ن.

٣. يس: ١٢.

وفي حديث آخر عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله (وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين) قام أبو بكر وعمر من مجلسهما وقالا: يا رسول الله هو التوراة؟ قال: لا، قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا، قالا: فهو القرآن؟ قال: لا، قال فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله، هو هذا، إنّه الإمام الذي أحصى الله فيه تبارك وتعالى علم كلّ شيء.

وذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال: أنا والله الإمام المبين أبيّن الحقّ من الباطل ورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله.

عن النبي صلى الله عليه وآله حديث طويل يقول فيه: معاشر الناس ما من علم إلّا علّمنيه ربيّ وأنا علّمته عليًّا، وقد أحصاه الله فيّ، وكلّ علم علمته فقد أحصيته في إمام المتقين، وما من علم إلّا علّمته عليًّا[1].

وعلى هذا الأساس، فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام الذين يحملون عنوان الإنسان الكامل هم مرآة علم الله تعالى، حيث تقابل أعمال الإنسان المكتوبة مع النسخة الأساس التي هي قلب الإمام والرسول. وبما أنّ الإنسان الكامل معصوم فهو «عيبة» علم الله التي لا عيب فيها. إنّ كلّ ما يعمله الإنسان أو يرتكبه يضبط في ذاك الإمام المبين مع الحفاظ على المبادئ العلميّة والعمليّة وحفظ الإرادة والاختيار.

٥. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[2].

يقول الإمام الصادق عليه السلام في ذيل الآية الشريفة: «نزلت هذه الآية في فلان وفلان وفلان وأبي عبيدة الجرّاح وعبد الرحمان بن عوف وسالم مولى أبي حذيفة والمغيرة بن شعبة، حيث كتبوا الكتاب بينهم وتعاهدوا وتواثقوا لئن مضى محمّد لا يكون الخلافة في بني

---

١. *نور الثقلين*، ج٤، ص٣٧٩.

٢. الزخرف: ٨٠.

هاشم ولا النبوّة أبدًا...»[١]، وقد غفلوا عن أنّ الله تعالى سجّل ما عملوا وسيعرض عملهم على مرأى العالمين في يوم من الأيّام.

٦. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾[٢].

ملاحظة: إنّ هذه الآيات التي تتحدّث حول أصل تسجيل وتدوين الأعمال لا تتنافى مع تعدّد الكتب مقابل تعدّد أصناف الأعمال.

٧. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾[٣] وتندرج هذه الآية الشريفة مع قوله تعالى: «وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين» ضمن سياق واحد؛ لأنّ التعداد والإحصاء يشتركان في المعنى مع التدوين والتسجيل؛ لذلك فهي تشتمل على عمليّة تسجيل الأعمال مع أنّها لا تختصّ بذلك.

٨. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٤]. فالحفظة مأمورون بمراقبة أحوالكم وأعمالكم. وهم من يكتب أعمالكم وهي ملائكة الله المقربين. وكلّ ما تفعلونه فهم يعلمونه. والملائكة لا يعتريها القصور في الامتثال لأمر الله تعالى، بل هم وبحسب الخلقة محترمون ومعصومون ويعملون طبق الإرادة الإلهيّة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٥].

وفي رواية عن «الحافظين»«أنّهما ملكان يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر، فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل، فإذا غربت الشمس نزل إليه الموكلان بكتابة الليل، ويصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عزّ وجل، فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله، فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عنّا خيراً، فكم من عمل صالح أريتناه، وكم من قول حسن أسمعتناه، وكم من مجلس خير أحضرتناه، فنحن اليوم على ما تحبّه وشفعاء إلى ربّك، وإن كان عاصيًا قالا له: جزاك الله من صاحب عنّا شرًّا

---

١. *نور الثقلين*، ج٤، ص٦١٥.

٢. القمر: ٥٢ و٥٣.

٣. النبأ: ٢٩.

٤. الانفطار: ١٠-١٢.

٥. الأنبياء: ٢٦ و٢٧.

فلقد كنت تؤذينا، فكم من عمل سيّئ أريتناه! وكم من قول سيّئ أسمعتناه، ومن مجلس سوء أحضرتناه! ونحن اليوم لك على ما تكره وشهيدان عند ربّك»[١].

٩. ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٢].

وقد جاءت العديد من الروايات حول هذا الموضوع، فعن أبي حمزة الثمالي قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ الله خلقنا من أعلى علّيّين وخلق قلوب شيعتنا ممّا خلقنا، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إلينا؛ لأنّها خلقت ممّا خلقنا، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وخلق عدوّنا من سجين، وخلق قلوب شيعتهم ممّا خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك، قلوبهم تهوى إليهم لأنّها خلقت ممّا خلقوا منه، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[٣].

يشار إلى أنّه توجد العديد من التفسيرات التي قُدّمت للسجّين والعليّين؛ فقد جاء في بعضها أنّ سجّين بئر في جهنّم، أو أنّها أسفل سبع أرضين، أو صحراء يابسة مقفرة وجهنميّة، وأمّا عليّون فهي السماء السابعة. وعدّدت الروايات أسماء فلان وفلان من مصاديق سجّين، وقيل إنّ سجين جبل من ألسنة اللهب مشتعلة حتّى يوم القيامة[٤].

ملاحظة: إنّ ما نُقل حول أساس خلقة المسيئين والمحسنين لا يشكّل أيّ منها سندًا للعلّة التامّة التي لا تقبل التخلّف ليلزم من ذلك الجبر، بل تتضمّن وقبل الاقتضاء الاستعداد والأرضيّة المناسبة وأمثال ذلك.

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٢٣.

٢. المطففين: ٧-٢١.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٢٩.

٤. م.ن.

١٠. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]؛ الملكان المكلّفان تسجيل أعمال الخير والشرّ، كلّ واحد منهما رقيب عتيد، أي أنّ كلّ واحد منهما مراقب مستعدّ ليعمل بوظيفته ويكون أحدهما إلى الجانب الأيمن والآخر إلى الجانب الأيسر.

ملاحظات:

أ) أحد الملكين الرقيب العتيد موظّف تدوين الميمنة والآخر مكلّف تدوين المشأمة.

ب) المقصود من القول في هذه الآية مطلق العمل القلبيّ أو البدنيّ؛ كما أنّ المقصود من الأكل في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[٢] مطلق التصرّف، وليس خصوص الأكل، وعلى هذا الأساس، فكلّ فعل مشؤوم أو ميمون يدوّنه الرقيب العتيد.

ج) إنّ ما نقل حول الملائكة المكلّفين تسجيل الخير والشرّ يناسب أسبقيّة الرحمة للغضب؛ لأنّ ملائكة الغضب تأتمر بقيادة وإمامة ملائكة الرحمة.

د) يتّضح ارتباط الآية المتقدّمة بديوان الأعمال ومشاهدة كتاب الأعمال بعد الأخذ بعين الاعتبار بعض المبادئ المطويّة.

عن الرسول الأكرمﷺ أنّه قال: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيّئات على شماله، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال؛ فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات، لعلّه يسبّح أو يستغفر»[٣].

١١. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾[٤].

---

١. ق: ١٧و١٨.

٢. النساء: ٢٩.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص١١١.

٤. الحاقة: ٩-٢٦.

عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة يدعى كلٌّ بإمامه الذي مات في عصره، فإن انتبه أعطى بيمينه لقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، فإن أوتي كتابه بيمينه «فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه إنّي ظننت أنيّ ملاق حسابيه. والكتاب الإمام، فمن نبذه وراء ظهره كان كما قال نبذوه وراء ظهورهم، ومن أنكره كان من أصحاب الشمال، قال الله: ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾»[١].

وقد جرى تطبيق العديد من الروايات وآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ على عليّعليه السلام وشيعته[٢] وكذلك آية ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ على أعداء عليّعليه السلام كمعاوية مثلاً[٣]. والأحاديث المذكورة هي من سنخ الجري والتطبيق المصداقيّ، وليست من قبيل التفسير المفهوميّ؛ لذلك فهي تصدق على مصاديق أخرى.

١٢. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾[٤].

ويُعطى بعض الأشخاص كتبهم يوم القيامة من وراء ظهورهم، باعتبار أنّ وجوههم قد أُرجعت يوم القيامة إلى الوراء: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾[٥].

تحدّثت بعض الروايات عن أسماء بعض من يُعْطى أعماله بيمينه وبعض من يعطى من وراء ظهره وذلك من باب التطبيق المصداقيّ؛ كما جاء في الرواية عن الإمام الباقرعليه السلام أنّه قال:

> «وأمّا من أوتى كتابه بيمينه فهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسود بن هلال المخزوميّ، وهو من بني مخزوم، وأمّا من أوتى كتابه وراء ظهره، فهو أخوه الأسود بن عبد الأسود بن هلال المخزوميّ فقتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر»[٦].

---

١. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٩٣.

٢. *نور الثقلين*، ج٣، ص١٩٣.

٣. م.ن، ج٥، ص٢١٢ و ٢٢١.

٤. الانشقاق: ٧-١٢.

٥. النساء: ٤٧.

٦. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥٣٨.

١٣. يجري التصنيف يوم القيامة على أساس كتب الأعمال؛ فالذين يُعْطون كتبهم بيمينهم يطلق عليهم «أصحاب اليمين» ويثابون على ذلك، والذين يُعْطون كتبهم بشمالهم يطلق عليهم «أصحاب الشمال» ويجازون على ذلك: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾[١]، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ... وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾[٢].

تحدّثت بعض الروايات عن أنّ أصحاب اليمين هم شيعة عليّ بن أبي طالبعليه السلام وأصحاب الشمال هم المشركون وأعداء آل محمّدصلى الله عليه وآله[٣].

ملاحظة: أشرنا فيما تقدّم إلى أنّ المقصود من اليمين هو الميمنة والبركة، والمقصود من الشمال هو المشأمة والنجاسة، والمؤمن كلتا يديه يمين، والكافر كالمنافق كلتا يديه شمال؛ لأنّ المؤمن مظهر الله، وكلتا يديه يمين كما نقل عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «كلتا يديه يمين»[٤].

١٤. ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[٥].

قال عليّعليه السلام:

> «ويلك يا بن الخطّاب لو تدري ممّا خرجت وفيما دخلت وماذا جنيت على نفسك وعلى صاحبك؟ فقال أبو بكر: يا عمر أمّا إذا بايع وأمنّا شرّه وفتكه وغائلته فدعه يقول ما يشاء، فقال عليّعليه السلام لست بقائل غير شيء واحد. أذكركم بالله أيّها الأربعة يعنيني والزبير وأبا ذر والمقداد: أسمعتم رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: إنّ تابوتًا من نار فيه اثنا عشر رجلاً، ستّة من الأوّلين وستّة من الآخرين، في جبّ في قعر جهنّم في تابوت مقفل، على ذلك الجبّ صخرة إذا أراد الله أن يسعر جهنّم

---

١. الواقعة: ٨ و٩.

٢. الواقعة: ٢٧، ٢٨، ٤١ و٤٢.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٢١٢ و ٢٢١.

٤. *بحار الأنوار*، ج٥، ص١٥٩ و ٢٣٨؛ وسائل الشيعة، ج١١، ص٤٣٢.

٥. التكوير: ١٠-١٤.

كشف تلك الصخرة عن ذلك الجبّ فاستعاذت جهنّم من وهج ذلك الجبّ، فسألناه عنهم وأنتم شهود، فقال‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: أمّا الأوّلين فابن آدم الذي قتل أخاه، وفرعون الفراعنة، والذي حاج إبراهيم في ربّه، ورجلان من بني إسرائيل بدّلا كتابهم وغيّرا سنّتهم، أمّا أحدهما فهود اليهود، والآخر نصر النصارى، وإبليس سادسهم، والدجّال في الآخرين وهؤلاء الخمسة أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا وتعاقدوا على عداوتك يا أخي وتظاهروا عليك بعدي، هذا وهذا وهذا حتّى عدّهم وسمّاهم؟ فقال سلمان: فقلنا صدقت نشهد أنّا سمعنا ذلك من رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله»[1].

وعلى هذا الأساس عندما تطوى السماوات والأرض، تفتح صحيفة أعمال الإنسان، فينظر إليها ليجد كلّ ما عمل حاضرًا أمامه والملائكة لم تقصّر في تنظيمها وترتيبها وضبطها، فقد جمعوا كلّ شيء: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**﴾[2].

---

١. *نور الثقلين*، ج٥، ص٥١٦.

٢. الأنبياء: ٩٤.

الفصل الثالث عشر

حبط العمل[1]

الحبط والإحباط

حبط في اللغة يعني فَسد، بَطَل وذهب سدى. والحبط في مصطلح المفسّرين غير الحبط في مصطلح أهل الكلام، وسوف نبحث هنا في المصطلحين.

لا بدّ أوّلًا من التفكيك بين الحَبط والإحباط، وبحث كلٍّ منهما على حدة. ويتعلّق الحبط بصحّة العمل نفسه أو بطلانه، كأن يكون عملٌ خاصٌ مثل عبادة الأوثان سليمًا أم حابطًا؛ يعني هل عمل عبادة الأوثان في نفسه صحيحٌ أم عبثيّ. أمّا الإحباط فيدور حول إبطال عملٍ لعملٍ آخر، كأن يكون عملٌ خاصٌ هو السبب في حبط الأعمال السابقة، إذن الحبط غير الإحباط، وسيكون محور الكلام الحاليّ منقسمًا إلى قسمين؛ قسم بلحاظ الحبط، والآخر بلحاظ الإحباط. ثانيًا: بناءً على ذلك فإنّ الآيات المستَند إليها لا تختصّ بأحد هذين القسمين، وإن كان تفكيك البحث يمكنه إيصال المطلوب بشكلٍ أفضل.

ومن وجهة نظر المفسرين، الحبط والإحباط يعني أنّه إذا كفر امرؤٌ، فلن يستفيد من أعماله الصالحة السابقة، وسيوجب كفره حرمانه من عمله الحَسن السابق. فعابد الأوثان، لن يرى أيّ أثرٍ من عبادته للوثن، فعبادته بلا أثرٍ وطائل؛ أي أنّه أصلًا لن يتحقّق عمله الصالح كي يوجب شيءٌ حبطَه. وينطلق منطقُ الوثنيّين من أنّ الأوثان مقرّبةٌ عند الله وهي تقرّبنا من الله، أو كانوا يقولون: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»[2]. ويقول القرآن إنّ عمل عابد الأوثان هذا بلا طائل؛ لأنّ أصل الوثن موجودٌ باطلٌ وعبثيّ وسيكون وهم تقريبه أو

---

١. ترجمة: الدكتور محمّد ترمس.

٢. يونس: ١٨.

تخيّل شفاعته عبثيًّا أيضًا. وفيما يلي الآيات المتعلّقة بالحبط:

﴿...وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١]

وفي ذيل الآية المذكورة يبحث العلاّمة الطباطبائيّ رحمه الله آياتَ الحبط من منظور القرآن، سنشير فيما يلي إلى زبدة البحث:

إنّ الحبط الذي يعني البطلان، لم يُنسب في القرآن إلاّ إلى العمل، من هنا يقول الله سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢]، ويقول أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٣]. فهذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ الحبط يعني بطلان العمل؛ وهذا ما يُستفاد من الآية التالية أيضًا:

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤]

وقريبًا من ذلك، الآية التالية:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[٥]

على هذا الأساس، إنّ ما ذكره الله سبحانه حول الحبط هو أنّ أعمال الإنسان تبطل في الدنيا وكذلك في الآخرة. إذن لا يختصّ الحبط بالعمل الأخروي؛ فكما أنّ الإيمان بالله يطهّر الحياة الدنيا فإنّه يطهّر الحياة الآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦].

---

١. البقرة: ٢١٧.

٢. الزمر: ٦٥.

٣. محمد صلى الله عليه وآله: ٣٢ و٣٣.

٤. هود: ٢٣.

٥. فرقان: ٢٣.

٦. النحل: ٩٧.

كيفية حبط الأعمال

تشير الآيات الآنفة الذكر إلى أنّ أعمال المفسدين، وخاصّةً الكافرين والمرتدّين سوف تفسد وتذهب هباءً في الدنيا والآخرة، وسوف يُحسَبون من الخاسرين، وخسرانهم واضحٌ في الدنيا؛ لأنّ أعمالهم غير متطابقة مع نظام الوجود وغير منسجمة مع الأهداف الصحيحة لسائر الموجودات؛ ولذلك فهم لا يصِلُون إلى المقصد، فضلاً عن أنّ قلبهم غير متّصلٍ بأيّ أمرٍ ثابتٍ، والذي هو الله سبحانه وتعالى، حتى إذا ما حصلوا نتيجةً لذلك على نعمةٍ، فيرونها منه (عزّ وجلّ)، ويرضون وإن ابتُلوا بمصيبةٍ رأوها من أنفسهم ويعزّون أنفسهم من خلال اعتقادهم بأنّ هذه الحادثة المرّة امتحانٌ، فليجؤون إلى الله في رفعها، وكذلك يرفعون عند الحاجة أيديهم إلى ساحته المقدسة، وهذا بخلاف المؤمن الذي يعلّق قلبه في جميع هذه المراحل بالله تعالى.

ويقول الله في هذه المقارنة: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[1]، وفي آية أخرى يعرض هذا القياس المذكور: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[2]؛ فحياة الكافر ضيّقة في الدنيا وشاقّة، وبقرينة المقابلة تكون حياة المؤمن ومعيشته واسعة وترافقها السعادة، ويبيّن القرآن الكريم كلّ ذلك، فضلاً عن السعادة والشقاء في جملةٍ واحدة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾[3].

إذن علمنا أنّ المراد من العمل هو مطلق الأعمال التي يقوم بها الكافر (المرتّد) في حال الإيمان من أجل ضمان السعادة في حياته؛ سواء أكانت عباديّة (العمل الذي يحتاج إلى نيّة القربة) أم غير عباديّة.

فضلاً عن ذلك، يوجد دليلٌ آخر يكشف عن المراد من العمل، مطلق العمل وليس العمل العباديّ فقط، وهذا الدليل هو أنّ الله قد نسب الحبط إلى الكفّار والمنافقين

---

١. الأنعام: ١٢٢.

٢. طه: ١٢٣ و١٢٤.

٣. محمدﷺ: ١١.

أيضًا، في حين أنّ الكافر يشمل عابد الوثن والملحد؛ وعلى الرغم من أنّ عابد الأوثان كان لديه عملٌ عباديّ، ويعتبر أنّ عبادة الوثن وسيلة تقرّبه إلى الله أو يعتقد العابد أن للوثن القدرة على الشفاعة له عند الله، ولكن الملحد والمنكر المحض أصلاً لا عبادة له؛ وكما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[١]، ويقول أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٢].

على هذا الأساس، بعض الأعمال هي حابطة وباطلة وكذلك مُحبطة ومُبطلة، وبعض الأعمال صحيحة ومُصحِّحة أيضًا؛ مثلاً عبادة الأوثان عملٌ حابطٌ وباطلٌ والارتداد فضلاً عن كونه حابطًا وباطلاً، فإنّه محبطٌ ومُبطِّل أيضًا. الإسلام والعبادة التوحيديّة عملٌ صحيح، وفضلاً عن أنّ إسلام الكافر وتوبة المشرك عملٌ صحيحٌ، فسوف يكون مصحِّحًا أيضًا، أي كما أنّ الكفر والارتداد يصبحان سببًا في أن لا يكون لعمل الإنسان أثرٌ سعيدٌ؛ كذلك فإنّ الإيمان سوف يكون سببًا في كون أعمال الإنسان مُسعِدة. من هنا فإنّ الذي يؤمن بعد الكفر سوف يهب الحياة لأعماله التي كانت لا تزال إلى ذلك الحين حابطة وباطلة، ومسار ذلك هو السعادة، ولكن إذا ارتّد الإنسان وكفر بعد إيمانه، فسوف تموت كلّ أعماله وتُحبط، ولن تكون مؤثّرة في سعادة دنياه وآخرته. طبعًا، لا يزال ثمّة نورُ أملٍ في العودة إلى الإسلام قبل موته، وإذا مات وهو في حالة الكفر والارتداد، فإنّ حبط أعماله وبطلانها حتميٌّ، كما أنّ شقاءه قطعيٌّ.

من هنا اتّضح أنّ البحث والنزاع في أنّه هل تبقى أعمال المرتدّ إلى وقت الموت وتحبُط أثناء الموت، أو أنّها تُحبط أثناء الارتداد، هو بحثٌ لا طائل منه، وتوضيح ذلك، أنّه قد قال بعض إنّ العمل الذي أتى به المرّتد قبل الارتداد يبقى حتى أثناء موته، وإذا لم يرجع إلى إيمانه حتى تلك اللحظة عندها سيحبط العمل، ويستدلّون على ذلك بقوله

١. محمّد ﷺ: ٧-٩.

٢. آل عمران: ٢١ و٢٢.

تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[١]، وربما يؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[٢]؛ لأنّ هذه الآية تتطرّق إلى بيان حال الكفّار أثناء الموت، ونتيجة هذه النظريّة هي أنّه إذا عاد المرتد إلى إيمانه السابق أثناء الموت، فسوف يصطحب معه أعماله السابقة أيضًا، ولا يخرج من الدنيا خالي الوفاض.

ويعتقد آخرون أنّه بمحض حصول الارتداد تبطل جميع أعمال الإنسان الصالحة، ولا تعود مرّةً أخرى، حتى إذا آمن مرّةً ثانية بعد ارتداده. ولا شكّ أنّه يمكنه بعد الإيمان المجدّد أن يعمل الأعمال الصالحة حتى لحظة الموت، وقد ذكرت الآية الشريفة قيد الموت من أجل توضيح أنّ جميع الأعمال التي تمّ القيام بها حتى لحظة الموت سوف تحبط، ولكن كما تمّت الإشارة فإنّ هذا البحث خارج عن المقصود من الآية؛ لأنّ الآية ليست في صدد بيان أنّ جميع أفعال المرتدّ تبطل من حيث تأثيرها في السعادة.

الإحباط المتبادل

المسألة الأخرى التي يمكن اعتبارها من نتائج مسألة الحبط إلى حدٍّ ما، مسألة الإحباط والتكفير. ولشرح هذا المطلب يمكن طرح هذا السؤال: هل تؤثّر أعمال الإنسان على بعضها، بحيث تبطل بعضها (التحابط التباطل)؟ أم أنّ للعمل الصالح حكمه وأثره وللذنوب أيضًا حكمها وأثرها؟ طبعًا، وهذا المعنى من المسلّم به من منظار القرآن، حيث إنّه ثمّة أعمال صالحة تقضي على آثار سيّئات الإنسان: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٣].

ويعتقد مجموعة من الباحثين القائلين بالتحابط والتباطل بين الأعمال، أنّ الأعمال الصالحة والطالحة تُبطل بعضها بعضًا، وهذه المجموعة ليست على رأيٍ واحد؛ بل قال بعضهم إنّ كلّ ذنبٍ يبطل العمل الحسن السابق له، وكلّ عملٍ حسنٍ يقضي على ذنبٍ سبقه، ولازم هذا الكلام أن لا يكون عند الإنسان من عمله إلّا حسنة فقط أو سيّئة فقط.

---

١. البقرة: ٢١٧.

٢. الفرقان: ٢٣.

٣. هود: ١١٤.

وقال آخرون إنّ ثمّة «موازنة» بين العمل الصالح والسيّئ؛ وهو أن ينقص من الأكثر من عملٍ صالحٍ أو سيّئ بمقدار الأقل ويبقى الباقي سليمًا. ومن مقتضيات هذا القول أن لا يبقى لدى الإنسان من أعماله السابقة سوى قسمٌ واحد؛ إمّا أعماله الصالحة أو أعماله السيّئة، أو أن يكون القسمان متساويان ويسقطان، فلا يبقى لديه شيء، ولكن هذا القول غير صحيح؛ وذلك للأسباب الآتية:

أوّلًا: يُفهم من ظاهر الآية **﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[١] أنّ أعمال الإنسان سواء أكانت من الحسنات أم من السيّئات سوف تبقى جميعها، والله يقضي على ذنوب الإنسان وسيّئاته بواسطة توبته فقط، إذن لا يتوافق التحابط بأيّ وجهٍ تصوّروه مع هذه الآية.

ثانيًا: جرى الله سبحانه وتعالى في مسألة تأثير الأعمال على تلك الطريقة نفسها التي جرى عليها سائر العقلاء في مجتمعهم الإنسانيّ، وهذه الطريقة هي «المجازاة»، فأصحاب العلم والأدب يُجازَون على الأعمال الصالحة على حِدة، ويعاقِبون على الأعمال السيّئة على حِدة، باستثناء بعض السيّئات من المعاصي التي تسبّب انقطاع العلاقة من أصلها بين العبد والمولى، وهو ما يُعبرّ عنه حينها بالحبط والإحباط، وتوجد الكثير من الآيات في القرآن الكريم التي تدلّ على ذلك.

وذهبت مجموعة أخرى إلى القول إنّه سيتمّ المحافظة على نوع الأعمال، وسيكون لكلٍّ منها أثره، سواء أكان جيّدًا أم سيّئًا؛ وإن كانت الأعمال الحسنة تقضي أحيانًا على الأعمال السيّئة؛ كما يقول القرآن: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾**[٢]، ويقول كذلك: **﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**[٣]، ويقول أيضًا: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**[٤].

---

١. التوبة: ١٠٢.

٢. الأنفال: ٢٩.

٣. البقرة: ٢٠٣.

٤. النساء: ٣١.

بل إنّ بعض الأعمال الصالحة، تُبدِّل أعمالَ الإنسان السيّئة والقبيحة بأعمالٍ حسنة؛ كما قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾[١].

الموافاة شرط الثواب والعقاب

هنا توجد مسألةٌ أخرى، وهي بمنزلة أصلٍ للمسألتين الآنفتي الذكر، وهذه المسألة هي متى يكون زمان ومكان ثواب وعقاب عمل الإنسان؟ اعتبر بعض الباحثين أنّ وقت الثواب هو أثناء العمل بدون شرط. واعتبر آخرون أنّ وقت ذلك أثناء الموت، فيما رأى آخرون أنّ عالم الآخرة وقت الثواب والعقاب، وقال بعض أيضًا إنّ ذلك يكون أثناء القيام بالعمل، بشرط الموافاة، بمعنى أنّه لو لم يدم على ما هو عليه حال العمل إلى حين الموت وموافاته لم يستحقّ ذلك، إلاّ أن يعلم الله ما يؤول إليه حاله وعاقبته ويستقرّ عليه، في النتيجة سوف يُكتب له ذلك الجزاء الذي كان يستحقّه في حال العمل.

ويستدّل صاحب كلّ قولٍ من هذه الأقاويل بآياتٍ تتلاءم مع وجهة نظره، وكثيراً ما يضيفون إليها وجوهًا عقليّ، ولكن الجدير ذكره أنّه ما دامت النفس الإنسانيّة متعلّقةٌ بالبدن، فهي جوهرٌ ذو تحوّلٍ وتقلّب، وهذا التقلّب متأصّلٌ في ذاته وآثار ذاته. من هنا عندما يصدر عملٌ من الإنسان بحيث تكون نتيجته سعيدة أو شقيّة، فسوف تظهر في ذاته صورةٌ معنويّة، ويمكن أن تتّصف هذه الصورة بصفة الثواب (في صورة عملٍ حسن) وإن صدر عنه معصيةٌ، فسوف تظهر صورةٌ معنويّة أخرى تقوم بها صورة العقاب.

وكما ذكرنا سابقًا فبما أنّ ذات الإنسان في حالٍ دائمٍ من التحوّل والتغيّر، فمن الممكن أن تتبدّل الصورة التي اتّخذتها لنفسها الآن (من الذنب أو الثواب) إلى صورةٍ مخالفة، وتثبُت هذه الحالة لكلّ إنسانٍ حتى لحظة الموت وانفصال روحه عن جسده، ويتوقّف عن الحركة والتحوّل (الحركة من الاستعداد إلى الفعليّة والتغيير من صورةٍ إلى أخرى).

وعند ذلك، تثبت للإنسان صورةٌ، ويترتب على ذلك آثارٌ؛ أي أنّه لم يعد يقبل بعد ذلك تحوّلاً وتغييراً، إلاّ من ناحية الله، إمّا بالمغفر أو بالشفاعة.

---

١. الفرقان: ٧٠.

تبصرة: لقد تمّ رسم احتمال تحوّل الإنسان حتى نهاية العمر بناءً على الحركة الجوهريّة بشكلٍ جيّد، وإنّ كان يمكن رسمها بناءً على إنكارها أيضًا؛ لأنّ التحوّل والتغيير في الأعراض والعوارض للإنسان حتى اللحظة الأخيرة من العمر أمرٌ معقولٌ ومقبول.

وكذلك نرى في مسألة الجزاء والثواب، أنّ العقلاء يمدحون فاعل العمل بمجرّد أن يصدر عنه عملٌ حسنٌ وإذا قام بعملٍ سيّئ يذمّونه ويدينونه، ولكنّهم أيضًا يأخذون هذا المعنى بعين الاعتبار، وهو أنّه لا يمكن أن يكون مدحهم وذمّهم دائمًا؛ لأنّه من الممكن على إثر تحوّل الفاعل أن يتّخذ عمله وجهًا آخرَ، وما يستحق المدح فعلاً يصبح مستحقًّا للإدانة، وما هو مستحقٌّ فعلاً للإدانة يصبح مستحقًّا للمدح.

على هذا الأساس، وعلى الرغم من أنّ العقلاء يمدحون الفاعل أو يذمّونه بمحض إتيانه بعملٍ حسنٍ أو سيّئ، لكنّهم يعتبرون بقاء المدح والذمّ مشروطين بثبات قدم الفاعل، ويرون أنّ الوحيد الذي يستحقّ المدح أو الذمّ الأبديّ هو مَن يتيقّنون أنّه لن يتغيّر وضعه، ويحصل هذا اليقين للجميع عندما تقصُر يد الفاعل عن العمل ويُسرع إلى منزله الأبديّ، حيث لن يكون لديه استعداد وقابليّة للتغيّر والحركة. ولا شكّ أنّه إذا بقيت الآثار الإيجابيّة أو السلبيّة من أحدٍ، فسوف يُسجّل الثواب أو العقاب في ديوان أعماله، طالما أنّ تلك الآثار موجودة، ولكنّ هذا الأمر ليس بمعنى التحوّل والتغيّر، بل بمعنى دوام الأثر السابق[١].

النتيجة

في نهاية هذا البحث وضمن إشارته إلى بطلان الآراء المبنيّة على أسسٍ ومبانٍ خاطئة، يوضّح الأستاذ العلاّمةﷺ النتائج الأربع للبحث أعلاه على النحو التالي:

١. يستحقّ الإنسان الثواب أو العقاب بمحض قيامه بعملٍ ما، إلاّ أنّ هذا الاستحقاق غير دائم، ومن الممكن أن يتعرّض للتغيير، ولكنه يقف عن التعرّض للتغيّر عندما يموت الإنسان وتُسلب منه صلاحية المبدأ الفاعليّ.

---

١. *الميزان*، ج٢، ص١٧٢.

٢. الحبط بمعنى بطلان العمل وعبثيّته، مثل عبادة الأوثان التي كانت تسعى خلف سرابٍ وبمعنى إِحباطِ الأعمال الصالحة السابقة، مثل الارتداد الموجب لحذف جميعٍ الأفعال الحسنة السابقة، ونحوه نظير استحقاق الأجر يتحقق عند صدور المعصية ويتحتم عند الموت.

٣. يجري الحبط في العمل الدنيويّ كما يجري في الأعمال الأخرويّة.

٤. إنّ فرض «التحابط» أي الإحباط الثنائيّ (ذي الطرفين) في الأعمال باطلٌ، بخلاف التكفير وما شاكل.

نظام آثار الأعمال

١. إنّ ما يقابل الكفر والارتداد المُفسِد لأعمال الإنسان في الدنيا والآخرة هو الإسلام والتوبة الذي يقضي على آثار الذنوب في الدنيا والآخرة؛ كما يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١]. وكذلك يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[٢].

٢. بعض الذّنوب تُحبِط جميع الأعمال الحسنة؛ مثل الكفر بالله وشقاق رسول اللهﷺ والصدّ عن الدين الإلهيّ؛ إذ يقول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٣]. والغرض هو أنّ بعض الذنوب تشكّل أساسًا لذنوبٍ أخرى ومُفسِدَة لجميع الطاعات الماضية؛ كما أنّ بعض الطاعات هي أساسٌ لطاعاتٍ أخرى وسببٌ للقضاء على أيّ بناءٍ للإلحاد والفساد.

---

١. الزّمر: ٥٣-٥٥.

٢. طه: ١٢٣.

٣. محمّدﷺ: ٣٢ و٣٣.

٣. بعض الأعمال الحسنة تقضي على آثار بعض الذنوب: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[١]. كما أنّ اجتناب الذنوب الكبيرة سببٌ للقضاء على السيّئات (الذنوب الصغيرة): ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٢]. كذلك يقول: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[٣].

والنتيجة هي أنّ مشهد جزاء الآخرة وثوابها له نظامٌ مختلفٌ عن نظام الدنيا. وربّ عملٍ في ذلك العالم يتبدّل إلى عملٍ آخر، وكم من عملٍ يصدر عن إنسانٍ يُنسب إلى آخر وأحيانًا يُحكم على عملٍ ما غير الذي كان عليه في عالم الدنيا.

ينبغي أن لا يتصور «أحكام العقل» حول الأعمال وآثارها باطلة بشكلٍ عامّ طبعًا؛ لأنّه أينما يستدلّ الحقّ تعالى، أو يُخبر عن الملائكة الموكّلة على الأمور وعلى المجرمين، أو البرزخ، وكذلك حول مسائل يوم القيامة كان يستدلّ بالأدلة العقليّة، يعني الدليل الذي يعرفه عقل البشر ويتمّ الاستناد في كلّ الموارد على النكتة التالية، وهي أنّ الله يحكم بالحقّ وكلّ من عمل عملاً سوف ينال أجره كاملاً، وثمّة آياتٌ عديدة في القرآن الكريم حول ذلك، مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ... وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ...﴾[٤]، حتى الشيطان يعلم بهذه النكتة ومطّلعٌ عليها أيضًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[٥].

لبّ الكلام هو أنّ الله سبحانه يتحدّث بلسان النّاس في دعوته لهم وإرشادهم، ويحكم في التواصل معهم ومخاطباته إيّاهم طبقًا لقانون العقول الاجتماعيّة ويتمسّك بقواعد وقوانينَ مقرّة في عالم العبوديّة والمولويّة. من هنا، عدّ نفسه المولى، وجعل النّاس عبيدًا، وبعث الأنبياء رسلاً إليهم، وقد حافظ (عزّ وجلّ) على علاقته بالعباد عبر

---

١. هود: ١١٤.

٢. النساء: ٣١.

٣. النجم: ٣٢.

٤. الزمر: ٦٨ و٦٩.

٥. إبراهيم: ٢٢.

الأمر والنهي، التبشير والإنذار، الوعد والوعيد وسائر ما ينتج عن ذلك من قبيل العذاب والمغفرة وغير ذلك.

وعلى الرغم من كل ذلك، فهو يصرّح بأنّ حقائق القرآن هي أعلى من أن يُدركه النّاس بأوهامهم وخيالهم؛ لذلك فقد أنزل تلك الحقائق حتى تصبح بنفس مستوى أفق إدراك البشر، وجعلها في متناول أيديهم؛ كما قال: ﴿**وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[1].

تبصرة: إنّ ما هو في «أمّ الكتاب» وعليٌّ حكيم عبارة عن تلك الحقائق القرآنيّة، وليس متيسرًا للنّاس العاديّين الوصول إلى تلك المرحلة، وليس ثمّة من خيارٍ سوى التبسيط والتنزيل والتمثيل بصورٍ مختلفة حتى يتمكّن البشر من تحمّلها وإدراك صحّتها.

موارد الحبط في الروايات

١. يقول الإمام الرضا عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اختاروا الجنّة على النار، ولا تبطلوا أعمالكم فتُقذفوا في النار منكبّين خالدين فيها أبدًا»[2]

٢. أكل الحرام وعدم اجتناب هضم مال الآخرين من أسباب القضاء على العمل الحسن للإنسان. فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يبعث الله عز وجل يوم القيامة قومًا بين أيديهم نور كالقباطيّ[3]، ثم يقول له: (كن هباءً منثورًا)، ثمّ قال: أما والله يا أبا حمزة، أنّهم كانوا يصومون ويصلّون، ولكن كانوا إذا عرض لهم شيءٌ من الحرام أخذوه، وإذا ذُكر لهم شيءٌ عن فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروه، قال: والهباء المنثور هو الذي تراه يدخل البيت في الكوّة مثل شعاع الشمس»[4].

٣. تُحرق نارُ المعصية جميع أعمال الإنسان الحسنة، فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرةً في الجنّة، ومن قال:

---

١. الزخرف: ٢-٤؛ *الميزان*، ج٢، ص١٦٧-١٧٦.

٢. *البحار*، ج٦٨، ص١٧٤، ح٩.

٣. القباطيّ جمع القبطيّة ـ بضم القاف وقد تكسر ـ ثياب من كتان تنسج بمصر منسوبة إلى القبط.

٤. *نور الثقلين*، ج٤، ص٩، ح٣٢.

الحمد لله غرس الله له بها شجرةً في الجنّة، ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرةً في الجنّة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرةً في الجنّة، فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إنّ شجرنا في الجنّة لكثير؟ قال: نعم، ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيرانًا فتحرقونها، وذلك أنّ الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[١و٢].

٤. عصيان ومخالفة ولاية عليّ بن أبي طالبعليه السلام من المصاديق البارزة لحبط العمل في نفسه وإحباط الأعمال الصالحة الأخرى؛ إذ يقول الإمام الباقرعليه السلام: «ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم. قال: كرهوا عليًّا وكان أمر الله بولايته يوم بدر، ويوم حنينٍ، وببطن نخلة، ويوم التروية، ويوم عرفة، نزلت فيه خمس عشرة آية في الحجّة التي صُدَّ فيها رسولُ اللهصلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام، و بالجحفة ونجم»[٣]؛ ولذلك قال الإمام الباقرعليه السلام: «كرهوا ما أنزل الله في حقّ عليّعليه السلام»[٤].

ويقول أبو حمزة الثماليّ: سألت الإمام الباقرعليه السلام عن قول الله لنبيه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، قال: تفسيرها لئن أمرت بولاية أحدٍ مع ولاية علي صلوات الله عليه من بعدك ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين[٥].

وقد جاء في بعض الروايات أنّه رغم توجيه الخطاب إلى النبيّصلى الله عليه وآله، ولكنّ المقصود الأساس هو أمّته؛ يعني طبقًا لقول الإمام الصادقعليه السلام: «بإيّاك أعني واسمعي يا جارة، والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[٦]، وقد علم الله أنّ نبيهصلى الله عليه وآله يعبدُه ويشكُره، ولكن استعبد نبيه بالدعاء إليه تأديبًا لأمّته»[٧].

---

١. محمدصلى الله عليه وآله: ٣٣.

٢. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٥، ح٨٥.

٣. م.ن، ص٤٣، ح٧٠.

٤. ن.م.، ص٣١، ح٢٢.

٥. ن. م.، ج٤، ص٤٩٨، ح١٠٥.

٦. الزمر: ٦٦.

٧. *نور الثقلين*، ج٤، ص٤٩٨، ح١٠٤.

النتيجة هي أنّ الشرك على قدرٍ من الرجس والرجز والدناءة، بحيث حتى لو صدر ذلك من المعصوم عليه السلام، فسيكون من الخاسرين، ومن هنا يقول القرآن: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

بل لو ادّعى الملائكة المعصومون الألوهيّة أيضًا، لابتُلوا بعذاب جهنّم: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[٢]. إذن، إنّ كمال جميع الموجودات في عبوديّتهم لساحة القدس الربوبيّة.

أعمال الكافرين الصالحة

في الإجابة على السؤال: هل من ثوابٍ لأعمال الكافرين الصالحة التي قاموا بها بقصد خدمة المجتمع البشريّ أم لا، يجب القول إنّ نظرية الإسلام حول الثواب الأخرويّ ودخول الجنّة متمركزٌ حول محورين: الإيمان (الحُسن الفاعليّ) والعمل الصالح (الحُسن الفعليّ)؛ كما ورد في القرآن: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾[٣]، وكذلك: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[٤].

فعمل كلّ شخصٍ يجب أن يكون على أساس نيّته الخالصة، وإلّا فلن يكون ثمّة ثوابٍ في الآخرة، أو لن يتلقّى أجرًا كاملاً: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٥].

وسأل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا رسول الله إنّا نعطي أموالنا التماس الأجر والذِكر فهل لنا من أجرٍ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا، قال: يا رسول الله إنّا نعطي التماس الذكر فهل لنا أجرٌ؟ فقال رسول الله: «إنّ الله تعالى لا يقبل إلّا من أخلص له»، ثم تلا رسول الله عليه

---

١. الأنعام: ٨٦-٨٨.

٢. الأنبياء: ٢٩.

٣. العصر: ١-٣.

٤. النحل: ٩٧.

٥. الزمر: ٢ و٣.

الصلاة والسلام هذه الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[١].

بناءً عليه، ترتبط راحة الإنسان بالسكينة الداخليّة، الطمأنينة، النيّة، والعمل الصالح، وليس بالجمال، والزينة، والشهرة الخارجيّة والمنفصلة عن المعنويّات والأفكار غير الخالصة. انطلاقًا من ذلك، يمكن تحليل نتيجة البحث في الأمور التالية:

١. إذا كان يقصد الكافر في اكتشافاته تخريب العالم والمجتمع الإنسانيّ، فإنّه لن يُحرم من الأجر الأخرويّ فحسب، بل سيلقى عذابًا أيضًا.

٢. إذا كان هدفه من الخدمة الاجتماعيّة، اسمه وشهرته حتى يصل إلى دنياه المنشودة، يجب القول إنّه من المحتمل أن ينال هدفه الدنيويّ، ولكن ذلك مقصدٌ قد رُسم على أساس الاحتيال وليس التعقّل، والإنسان المُختال هو من يتحرّك خلف مثل هذه الرغبة والشهوة وليس العاقل، وإذا كان الهدف هو خدمة المجتمع البشريّ فقط، فسوف يصل حتمًا إلى هدفه الخيّر، وفي كلا الحالتين لن يكون له ثوابٌ في الآخرة؛ لأنّ من لا يعتقد بالآخرة ويعتبر هداية الوحي الإلهيّ أسطورةً، فلن يكون له نصيبٌ أخرويّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[٢]. فهذه الآية تفيد الوعد بالوصول إلى الهدف الدنيويّ المعقول، أمّا نفي النصيب الأخرويّ، فيمكن فهمه من قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[٣]. نعم، من الممكن أن يتمتّع هذا الشخص بمقدار من متاع الآخرة، وسوف تتمّ الإشارة إلى ذلك فيما بعد.

٣. إذا كان امرؤٌ معتقدًا بالمبدأ والمعاد، واعتبر مقدارًا من خدماته العلميّة، الاقتصاديّة، السياسيّة... لله ولرفاهيّة خلق الله، فسوف يُؤجر بالطبع ويأخذ الثواب بالمقدار نفسه، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

---

١. *روح المعاني*، ج١٢، ص٣٤٥-٣٤٦.

٢. هود: ١٥.

٣. البقرة: ٢٠٠.

الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٢]. وهذا في حال كان عمله ذا صبغة إلهيّة، فإن لم يكن معتقدًا بالآخرة، وقام بعملٍ حسنٍ من أجل رفاهية المجتمع البشريّ، ولم يكن معاندًا للوحي السماويّ، فمن الممكن أن يرى أجرًا مناسبًا في الآخرة، وذلك الأجر هو التخفيف من العذاب؛ كما تشير بعض الروايات إلى هذا المطلب. والقرآن يقول بهذا الشأن: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٣]. فجميع الإمكانيّات متوفّرة بين يدي الإنسان، وحتى وسائل الكفر للكفّار متوفّرة أيضًا، حتى لا يكون لديهم حجة وبرهان عند الامتحان. فأدوات المعصية متوفّرة، وكذلك أدوات الطاعة، والله سيمدّ بها جميع الناس ولا يُوجد مانعًا أمام ذلك. ولا شكّ أنّه سيتمّ احتساب جميع الأعمال الكبيرة والصغيرة وتمام الجهود يوم القيامة: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[٤]. على هذا الأساس، فإنّ الشخص الوحيد الذي سيستفيد يوم القيامة هو الذي يتمتّع بحُسنٍ فاعليّ أوّلًا، أي أنّه مؤمنٌ بالآخرة ويتمتّع بحُسنٍ فعليّ ثانيًا، أي أنّه يسعى لأجل الآخرة.

الإحباط من منظار علم الكلام

هل يبطل عمل المرتدّ على إثر الارتداد تمامًا، ويكون الارتداد سبب إحباط هذه الأعمال، وفي حال التوبة هل من الضروريّ أن يستأنف جميع أعماله السابقة من جديد، أم أنّ أعماله الصالحة تبقى معلّقة، ويصل بتوبته إلى ثمرة عمله الصالح السابق، وإذا لم يتب تبطل جميع أعماله السابقة من الأصل؟ ويوجد قولان في هذا المجال:

---

١. يوسف: ٩٠.

٢. الزلزال: ٧.

٣. الإسراء: ١٨-٢٠.

٤. الأنبياء: ٤٧.

١. الارتداد، يُبطل العمل الصالح من أساسه، والمرتدّ التائب يكون كمن بدأ تكليفه الآن، ويجب أن يستأنف جميع أعماله الصالحة منذ البداية.

٢. لا تبطل الأعمال الحسنة من الأساس، بل تكون معلّقة، وفي حال التوبة تكون آثار تلك الأعمال حاضرة، وإذا لم يتب فكلّ أعماله الماضية باطلة وفاسدة.

ويقول الخواجه نصير الدين الطوسيّ‌ﷺ في كتابه التجريد ضمن إبطاله لأدلّة القائلين بالحبط:

«والإحباط باطلٌ لاستلزامه الظلّم ولقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾؛ لأنّ من أساء وأطاع وكانت إساءته أكثر يكون بمنزلة من لم يُحسن، وإن كان إحسانه أكثر يكون بمنزلة من لم يسئ، وإن تساويا يكون مساويًا لمن لم يصدر عنه أحدهما وليس كذلك عند العقلاء، ولقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، والإيفاء بوعده ووعيده واجب». ومن ثمّ يقول: «ولعدم الأولويّة إذا كان الآخر ضعفًا...».

إذا كان العمل اللاحق مؤثّرًا في العمل السابق بمقداره (الموازنة)، مثلاً أن يؤثّر العمل غير الصالح خمس درجات في نصفٍ من العمل الصالح السابق ذي الدرجات العشر، إذا قضى على الدرجات الخمس الأولى (نصف الدرجات العشر)، فذلك غير مرجّح ولا أولويّة له، وإذا قضى على الدرجات الخمس الثانية، فذلك يكون دون مرجّح أيضًا. إذن لا يمكن القول إنّ العمل غير الصالح ذي الخمس درجات يقضي على العمل الصالح ذي العشر درجات بمقداره[١].

نقد العلّامة الطباطبائيّ

يقول العلاّمة الطباطبائيّ‌رحمه‌الله في الميزان في معرض الإشارة إلى كلام المحقّق الطوسيّ:

إنّ ما ذكره الخواجة نصير الدين «الحبط يستلزم الظلم» يمكن قبوله بشكلٍ عام، أمّا القول بالموازنة، فقد اعتبره من قبيل الترجيح بلا مرجّح ورفضه، وقوله غير مقبول؛ لأنّه

---

١. كشف المراد، المقصد السادس، المسألة السابعة.

إذا اقترض امرؤٌ عشرة دنانير، ودفع أول مرةٍ خمسة دنانير، فلن يقول له الدائن: هل هذه الدنانير الخمسة هي الأولى من العشرة دنانير أم الثانية؟

لكن هذا النوع من التفكير لا يليق بالإنسان الحكيم؛ لذلك لا يُعطي المحقّق الطوسيّ قيمةً لذلك في كتاب «نقد المحصّل»، حيث قام بنقد أفكار الفخر الرازيّ، ويقول للفخر الرازيّ الذي استفاد في هذه المسألة من قاعدة الترجيح بلا مرجّح وعدم الأولويّة: ما هذا الاستدلال؟ إنّ هذا الأمر كمن يكون مَدينًا بعشرة دراهم، فيدفع خمسة دراهم. فلا يُقال له بعد ذلك، هل هذه الدراهم الخمس الأولى من العشرة دراهم أم الخمسة الثانية؟

كلام الفاضل التونيّ حول المحقّق الطوسيّ

يقول أستاذنا الموقّر الفاضل التونيّ قدس سره:

> لقد كان المحقّق الطوسيّ رحمه الله حكيمًا، وليس متكلّمًا، فقد كتب نص التجريد حتى يثبت «الولاية» من خلال أصول الكلام؛ لأنّه لا يوجد محلّ في الفلسفة لبحث الإمامة الخاصّة ويتمّ البحث في الفلسفة حول الرؤية الكونيّة والأصول العامّة؛ ورغم أنّه يمكن طرح أصل الإمامة في الفلسفة تحت عنوان الخلافة وعنوان الولاية والنبوّة، ولكن الإمامة الخاصّة مثل إمامة عليّ عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام بعُهدة علم الكلام، وليس الفلسفة؛ يعني يتطلّب برهانًا نقليًّا وعقليًّا توليفيًّا، وليس محض عقليّ؛ لذلك قام المرحوم الخواجة بتدوين كتاب التجريد الكلاميّ ونال هدفه من خلال اللجوء إلى قواعد الكلام من أجل إثبات الإمامة الخاصّة.

على الرغم من أنّنا كنّا أوّل مرّة نسمع الكلام أعلاه من أستاذنا الفاضل التونيّ رحمه الله، ولكن بعض شرّاح كتاب «إلهيّات الشفاء» أشاروا إلى هذا المطلب أيضًا، وكتبوا ذلك بوضوح. وتحدّث الراحل المحقّق الطوسيّ في مسألة حدوث العالم وقِدمه ومسألة الزمن تماشيًا مع المتكلّمين؛ لأنّه كان في صدد الاستئناس بمراجع النقل من أجل نشر التشيّع

في الآفاق. انطلاقًا من ذلك لم يتحدّث في كتاب التجريد في الكثير من المسائل العقليّة بطريقةٍ واحدة مع سائر كتاباته[١]؛ يعني أنّه كتب التجريد حتى ينشر التشيّع عن طريق القواعد والمباني الكلاميّة، وعلى أساس الاعتقاد والطريقة الشائعة في ذلك العصر، وأراد بذلك الوصول إلى مقصده النهائيّ، أي إثبات ولاية وإمامة أئمة الدين عليهم السلام.

١. *إلهيّات الشفاء*، ص٤٢٠، حاشية الملاّ سليمان على الفصل الرابع من المقالة الثانية.

الفصل الرابع عشر

تجسّم الأعمال[1]

صورة العقائد، الأخلاق والأعمال

تجسّم الأعمال يعني جعل الموجودات غير الماديّة مثل عقائد الإنسان، أخلاقه وأوصافه، وأفعاله وآثاره تتشكّل في شكلٍ وجسم.

يقول القرآن المجيد وعلى أساس أصلٍ عقلانيّ: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2] و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3]. وفي يوم القيامة، لن يُقايَض أحد بأفعاله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾[4]؛ فهم يخضعون لولاية النّار؛ لأنّهم أصبحوا عبادًا للنار. فالقيامة هي يوم «الحصاد» ويحصد الإنسان ما كان قد زرعه بنفسه. فإن كان ما زرعه الإنسان حنظلاً، فسوف يحصل من الله في القيامة على صورة حنظلٍ، وإذا كان قد زرع شتلة فاكهةٍ حلوة، فسوف يقطف فاكهةً طيبة؛ أي أنّ الإنسان هو المبدأ والعلّة القابليّة؛ وليس العلّة الفاعليّة.

وبمقدار استعداده يتقبّل الفيض من الله، فهو في عقائده، وأخلاقه وأعماله يُعرف بصفته علّةٍ قابليّة ومُستعدِّة، ويجعله الحقّ تعالى يصل إلى حالة الاستعداد. وإذا ثبُت أنّ باطن الذنب العمليّ هو النّار، فأولئك الذين يأكلون مال اليتيم إنّما يأكلون في الحقيقة النّار الملموسة، وإذا كان باطن الذنب العقائديّ والأخلاقيّ النّار، فأولئك الملوّثون

---

١. ترجمة: الدكتور محمّد ترمس.

٢. الطور: ٢١.

٣. المدّثر: ٣٨.

٤. الحديد: ١٥.

بمعتقدات دنيئة وفاسدة، فإنّ أرواحهم عالقةٌ في النّار الروحيّة: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[١]، والمادّة المشعلة للنار المعنويّة هي العقيدة السيّئة للإنسان نفسه والموقِد لها هو الله تعالى الذي أعطى للعقيدة الباطلة صورة نار جهنّم؛ لأنّه «واهب الصُّور» و«المُصَوِّر»، ولا يتلقّى أيّ مبدأ قابليّ، بما في ذلك الماديّ والمجرّد، أي صورة من دون إفاضة واهب الصور ومن دون تصوير الله المصوِّر.

ويكتب العلاّمة الأمينيّ صاحب الكتاب العظيم «الغدير»:

أنّ رجلاً أتى عثمان بن عفان (الخليفة الثالث) وبيده جمجمة إنسانٍ ميّت، فقال: إنّكم تزعمون أنّ النّار تُعرض على هذا، وأنّه يُعذّب في القبر، وأنا قد وضعت عليها يدي، فلا أحسّ منها حرارة النّار. فسكت عنه عثمان وأرسل إلى عليّ بن أبي طالب المرتضى يستحضره، فلمّا أتاه وهو في ملأٍ من أصحابه قال للرجل: أعد المسألة. فأعادها، ثم قال عثمان بن عفان: أجب الرجل عنها يا أبا الحسن! فقال علي: اتوني بزندٍ وحجر. والرجل السائل والنّاس ينظرون إليه، فأُتي بهما فأخذهما وقدح منهما النّار، ثمّ قال للرجل: ضع يدك على الحجر، فوضعها عليه ثم قال: ضع يدك على الزند، فوضعها عليه فقال: هل أحسست منهما حرارة النّار، فبُهت الرجل، فقال عثمان: «لولا عليّ لهلك عثمان»[٢].

وفي الآخرة، يُطلق الله النّار الموجودة داخل المفسدين. إنّ هذا الإنسان الذي يتمتّع بالذكاء ويخطو بوعيٍ باتجاه الحيوانيّة، بعد وضوح الآيات الإلهيّة وإتمام حجّة الله، هو كالدواب بل أسوأ وأضل من وجهة نظر القرآن، ولكنّ القرآن لم يتكلّم خلاف الأدب، وفي اليوم الذي تُزال فيه الحجب سوف تنكشف هذه الحقيقة جيّدًا. ويمكن للإنسان أن يكون لديه حركة صعوديّة حتى يصل إلى مستوى الملائكة وأعلى أو يخطو باتجاه الدركات: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٣].

---

١. الهُمزة: ٦ و٧.

٢. *الغدير*، ج٨، ص٢١٤.

٣. النساء: ١٤٥.

وهذا بالضبط كمن لديه سلّم يستفيد منه صعودًا للوصول إلى السطح والاستقرار عليه والسير والتفحص في أوضاع الكواكب، وكذلك الاستفادة منه هبوطًا، والزحف في قعر البئر ليعمل بتنظيف الكنيف. إذن بامتلاك إمكانيّة الارتقاء، يكون الإنسان الذي يتحرّك في مسير الصيرورة حيوانًا أو مفترسًا أو لادغًا، والإنسان الحيوانيّ من هذا المنطلق يصبح أكثر افتراسًا من أيّ حيوانٍ مفترس.

ومن الجدير بالذكر أنّ باطن الإنسان يتّخذ شكلاً خاصًّا على إثر العقيدة، والأخلاق، والأعمال، وبناءً على هذا الشكل المُختار يظهر في عالم الآخرة. ويقول الله تعالى حول آكلي الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[1].

وكما ذُكر سابقًا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا فَقُلْتُ أَ صِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ فَقُلْتُ هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ أَ عَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي أَ مُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ»[2].

الحامل الوحيد لعبء الخطيئة

يذكر القرآن الكريم في آيات كثيرة أنّه في يوم القيامة، يحمل كلّ امرئ حمله على ظهره، وهذا الأمر من أصول القرآن المسلّم بها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[3]؛ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[4].

بناءً عليه، كل امرئٍ مالكٌ لعمله وسعيه. وعلى هذا الأساس، يصله أجر وجزاء عمله، سواء أكان جيّدًا أم سيّئًا، كذلك إذا سنّ امرؤٌ سنّةً حسنةً أو سيّئة، فسوف يُكتب عمل العاملين بتلك السنّة في كتاب عمل واضع السنّة أيضًا[5].

---

١. البقرة: ٢٧٥.

٢. *نهج البلاغة*، الخبطة ٢٢٤، البند ٨.

٣. الأنعام: ١٦٤.

٤. النجم: ٣٨-٤٠.

٥. *البحار*، ج٦٨، ص٢٥٨، ح٥ و٦.

بناءً على ما تقدّم، سوف يحمل الذين يكونون السبب في ضلالة الآخرين ذنوبَ الآخرين على ظهورهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[١]

ويقول القرآن أيضًا في هذا الخصوص: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[٢]. فاحذروا، إنّ عاقبة حِمل الوزر والذنب سيّئة للغاية. وكلّ مذنبٍ يحمل حملاً خاصًا به طبعًا، ولكن قادة الإغواء وأئمة الضلال، فضلاً عن حمل وزر غواياتهم وضلالتهم، فإنّهم يحملون حِمل إغواء الآخرين وضلالتهم.

كذلك المجرمون القتلة الذين يسفكون دماء الآخرين البريئة، من منظار القرآن هم ينقلون وزر ووبال الآخرين وذنوبهم إلى سجلّهم؛ كما هو الحال عندما هدّد قابيلُ أخاه هابيلَ بالقتل، كشف هابيل عن هذا الأصل وقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[٣]. وقد ورد في الأحاديث أنّ ذنوب الشخص الذي أُغتيب تنتقل إلى كتاب أعمال المُغتاب، كما تنتقل حسنات المُغتاب إلى كتاب أعمال الذي اغتيب أيضًا[٤].

من هنا، يقولون في المصطلح العلميّ: إنّ نسبة الآية آنفة الذكر إلى مفاد آياتٍ مثل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٥] و﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[٦] نسبة الحاكم عليها والشارح لها. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «من قتلَ مؤمنًا متعمّدًا أثبت اللّه على قاتله جميع الذّنوب وبُرّئ المقتول منها، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾»[٧].

---

١. العنكبوت: ١٣.

٢. النحل: ٢٥.

٣. المائدة: ٢٩.

٤. *البحار*، ج٧٢، ص٢٥٩، ح٥٣.

٥. الأنعام: ١٦٤.

٦. الزلزال: ٧.

٧. *نور الثقلين*، ج١، ص٦١٣، ح١٣٣.

عمل الإنسان بالنسبة لله

يقول الله سبحانه مخاطبًا الإنسان: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[١]، إذن هو مطّلعٌ على جميع أعمال البشر وتصرّفاتهم، ويعبرّ عن هذا الأصل بشكلٍ أوضح في طوائف أخرى من آيات القرآن:

الطائفة الأولى: آياتٌ من قبيل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢]، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٣]، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[٤]، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٥].

الطائفة الثانية: آياتٌ تُفيد ما هو أكثر من خبير، بصير وعليم؛ مثل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٦].

الطائفة الثالثة: آياتٌ تذكر جميع أعمال الإنسان الصغيرة والكبيرة؛ أي أنّها توضّح شهادة الله ونظارته، وقدرته وتمكينه. وفي الختام الضابطة والقانون العام منذ بدء البشر بالعمل إلى نهايته، مثل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٧].

إنّ مفاد هذه الآية بصفتها قاعدة عامّة تخبر عن جميع مراتب الأفعال القلبيّة والقالبيّة للإنسان، فالله تعالى يحفظ جميع أعمال الإنسان؛ لأنّه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[٨]. ويكتب الرسّل جميع تلك الأعمال أيضًا: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[٩]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ

---

١. الحديد: ٤.
٢. البقرة: ٢٣٤؛ آل عمران: ١٨٠.
٣. البقرة: ٢٨٣؛ النور: ٢٨.
٤. البقرة: ٢٣٣ و٢٣٧.
٥. البقرة: ٨٥ و١٤٩؛ آل عمران: ٩٩.
٦. الأنفال: ٤٧.
٧. يونس: ٦١.
٨. هود: ٥٧.
٩. يونس: ٢١.

* ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[١]. ويكتب الملائكة العظام أعمال الإنسان أيضًا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٢]. على هذا الأساس فلا يوجد أيّ عقيدة، أو أخلاق أو عمل يصدر إلاّ ويوجد مأمورٌ أو مأمورون يراقبون ويدوّنون ذلك؛ يعني هم ممسكون بالرقبة حتى يروا حُسن عمله فيدونوه. هذه القوى الإلهيّة محيطةٌ بالإنسان من كلّ جهة وتُشرف على شؤونه العلمية والعملية: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[٣].

علاقة العمل بالعامل

من أصول القرآن المسلّمة أنّ كلّ عملٍ صالحٍ أو سيّئ، هو إمّا بنفع الإنسان أو بضرره: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٤] و﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[٥]. بناءً عليه، فإنّ عمل كلّ امرئ حيٌّ ولا يفنى أبدًا، كما إنّ مثل هذا العمل مرتبطٌ بموجودٍ محدد؛ لأنّ نظام عالم الوجود قائمٌ على أصل العلّة والمعلول.

ولا بدّ من التنبيه إلى أنّ نقطة الإرتكاز الوحيدة التي يتعلق بها عمل كلّ امرئ ولا ينفصل عنها هو الإنسان نفسه، المبدأ الفاعلي للعمل. وتقتضي هذه السنّة الإلهيّة أن يعود أثر كلّ عملِ خيرٍ أو شرٍّ إلى صاحبه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾[٦]. فكلّ إنسان مسؤولٌ عن عمله، وكلّ ما يصدر عنه يعود إليه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٧]. وكأنّ عمل الإنسان يطير من داخله، وخفاياه ومكنوناته هي منصّة طيران عمله وبعد ظهور العمل من الداخل والطيران من الخفايا، يجلس على أعلى رقبة الإنسان ويمسكه منها. وعلى أثر هذا العمل، سوف تكون السعادة أو الشقاء وسوف يصل إلى

---

١. الانفطار: ١٠ و١١.

٢. ق: ١٨.

٣. ق: ١٧.

٤. الإسراء: ٧.

٥. النجم: ٢٠.

٦. البقرة: ١٤١.

٧. الإسراء: ١٣.

الجزاء الكامل لعمله: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾[١]؛ لذلك، يقول القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٢]. وهذا انعكاسٌ لعمل الإنسان وتشكّله (تجسمّ العمل)، فلأكل مال اليتيم متعة وهميّة وكاذبة في الظاهر، ولكنّ داخله عذابٌ ونارٌ صادقان.

انعكاس العمل في الحياة

ردّ الإمام الرضا عليه السلام عل سؤال من أسئلة محمّد بن سنان حول سرّ انعكاس عمل الإنسان في الحياة، ببيانٍ جميلٍ وحكيم:

«وحُرّم أكل مال اليتيم ظلمًا لعللٍ كثيرةٍ من وجوه الفساد، أوّل ذلك أنّه إذا أكل الإنسان مال اليتيم ظلمًا فقد أعان على قتله؛ إذ اليتيم غير مستغنٍ ولا محتمل لنفسه ولا عليم لشأنه، ولا له من يقوم عليه ويكفيه كقيام والديه، فإذا أكل ماله فكأنّه قد قتله وصيرّه إلى الفقر والفاقة»[٣]

المستقبل المظلم

يستخدم القرآن الكريم مثالاً جميلاً من أجل التشجيع والتحفيز على العدل والعمل الحسن وتجنّب الظلم والعمل السيّئ، وذلك حتى لا تحيط آثار ظلم الآباء بالأبناء ويُبتلوا بها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]؛ في هذه الحال التي ذُكرت، لن يكون لدى هذا الشخص القدرة على الزراعة وإحياء الأرض، ولا القدرة على إدارة أسرة ثقيلة، ولا هو على استعدادٍ لمدّ يده للتسوّل بعد حياةٍ من العيش بكرامة. إذا لم يكن لدى أيّ شخصٍ القدرة على تحمّل

---

١. النجم: ٤١.

٢. النساء: ١٠.

٣. *نور الثقلين*، ج١، ص٤٤٦، ح٧٢.

٤. البقرة: ٢٦٦.

مثل هذا الخطر، فعليه أن يفكرّ بذلك وأن ينتبه لأعماله في الحالات العادية، حتى لا يأتي يومٌ ويُبتلى أولاده بأيامٍ سوداء.

والآية الآنفة الذكر شبيهةٌ بصورةٍ يذكرها القرآن عمّا يجري بعد موت الإنسان وتركه لأولاده اليتامى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[١]، فعلى العباد أن يخافوا من جزاء عملهم وأن يتصرفوا مع أيتام النّاس بالحُسنى، فالذين يخافون ترك أولادهم ضعافًا من بعدهم ولا يقعون تحت رحمة النّاس، يجب أن يخافوا من الله ويأمروا بالإصلاح والصدق ويمضوا في طريق العدالة، وإلّا سوف يكون المستقبل المظلم في إنتظارهم.

على هذا الأساس، إذا ظَلم الإنسان فسوف يُظلم أبناؤه شاء أم أبى، وإذا كان رؤوفًا مع أيتام النّاس، فسوف يستفيد من هذا العمل الصالح هو وأولاده. وعمل الخضر نموذجٌ على العمل الصالح من أجل اليتامى، الذي أُمر مع موسى عليه السلام بترميم ذلك الجدار الذي كان تحته كنزٌ لأيتام، وقد علّل الخضر هذا الإحسان الإلهيّ، الإنساني قائلاً: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[٢]؛ وقد ورد تفصيل هذا المطلب في سيرة النبيّ موسى والخضر[٣].

في المقابل، إذا قام الإنسان بالعمل الصالح وجرى على لسانه دعاء الخير، فسوف يؤثّر ذلك على أسرته وذرّيته. وهذا ما دعا به النبيّ إبراهيم عليه السلام، إذ طلب من الله أن يجعل أولاده وذرّيته من الصالحين: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[٤]، وجاء في آيةٍ أخرى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[٥] و: ﴿اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٦].

---

١. النساء: ٩.

٢. الكهف: ٨٢.

٣. *التفسير الموضوعي للقرآن الكريم*، ج٧، ص١٩٥.

٤. البقرة: ١٢٨.

٥. ابراهيم: ٣٧.

٦. ابراهيم: ٣٥.

كذلك فإنّه طلب الإمامة لذريته: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[١].

على كل حال، إنّ للعمل الحسن والعمل السيّئ ـ للعدل والظلم ـ أثرًا تكوينيًّا يؤثّر في ذريّة الإنسان، فضلاً عن الأثر التشريعي، كما أنّه من كان ظالماً، فسوف يسلّط الله عليه ظالماً: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾[٢]، وقد جاء في الحديث: «من أعان ظالماً سلّطه اللّه عليه»[٣]. وعلى الرغم من أنّ للمظلوم حقًّا يستحقّ إحقاقه يوم القيامة وسيحصل عليه، ولكن هذا المظلوم لم يكن مأجورًا.

ويقول الإمام الصادقعليه السلام حول عقوبة أو أثر التعدي على الأعراض:

«لمّا أقام العالِم (الخضر) الجدار أوحى اللّه تبارك وتعالى إلى موسىعليه السلام إنيّ مجازٍ الأبناء بسعي الآباء؛ إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ لا تزنوا فتُزنى نساؤكم، ومن وطىء فراش امرئ مسلمٍ وُطىء فراشه، كما تُدينُ تُدان»[٤].

وهذا هو الأثر الطبيعيّ للعمل، والأثر غير منفصلٍ عن المؤثّر. إذن العمل القبيح نتيجته قبيحة، والعمل الحسن سيستتبع الثمرة الحسنة، ولن ينفصل العمل عن العامل؛ وهذا يعني أنّ أثر العمل لا يترك العمل نفسه أبدًا، كما أنّ العمل لا يترك العامل أيضًا، وحفظ هذه الصلة الوجوديّة هي محصول نظام العلّة والمعلول الذي تُدار تمام حلقاته بإرادة الحكيم المحض والعادل الصرف، أي الله سبحانه وتعالى.

المستقبل المشرق

للمحسنين وأصحاب الأفكار الخيرّة مستقبلٌ واعدٌ ومشرق، ويشير القرآن إلى أصل عامّ في هذا السياق، حيث يقول تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

١. البقرة: ١٢٤.

٢. الأنعام: ١٢٩.

٣. *البحار*، ج٨٩، ص١٧٢. (هذا الحديث لم أجده في *البحار*، بل في *كنز العمال*: ح٧٥٩٣؛ وفي *ميزان الحكمة*: ج٢، ص١٧٧٩)

٤. *البحار*، ج١٣، ص٢٩٦، ح١٣.

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

تبصرة: هل تشبه فواكه الجنّة بعضها، أم أنّ ثمّة طعمًا خاصًّا، ولونًا خاصًّا، وشكلًا خاصًّا، وقدرًا محدّدًا وأثرًا مشخّصًا لكلّ منها؟ هل المقصود بقول أهل الجنّة ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أنّهم استفادوا سابقًا من فاكهة الجنّة الحاليّة، حتى إذا طُرح السؤال أوّل مرّة ماذا يقولون عندها؟ هل يقصدون أنّ هذه الفاكهة هي ذلك العمل الصالح والخُلق الحسن الذي كنّا مأنوسين به في دار الدنيا وكانت رزقنا المعنويّ في الدنيا؟ سيتمّ إيكال الإجابة عن هذه الأسئلة إلى محلّها المناسب[٢].

مضاعفة الأجر

ليست أعمال الإنسان متشابهة؛ فلكلّ عملٍ أجرٌ خاصٌّ به، وبعض العاملين أجرهم مضاعفٌ؛ تمامًا كما أنّ صدور الأعمال من العاملين المتعدّدين ليست متشابهة: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»[٣]. إنّ لبعض الأعمال أثرًا ثقيلًا إمّا على إثر خصوصيّة العمل أو باعتبار أنّ العمل صادرٌ عن عاملٍ خاصّ.

ويقول القرآن في أصلٍ عامٍّ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[٤]، وكذلك يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٥]، ولكن أحيانًا يكون لبعض أعمال الإنسان بروز وأثر خاصّ؛ كما أنّ ثواب وأجر الإنفاق في سبيل الله سيكون سبعمئة ضعف، بل ألف وأربعمئة، بل أكثر من ذلك: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٦].

---

١. البقرة: ٢٥.

٢. *تسنيم*، ج٢، ص٤٧٥-٤٨١.

٣. *البحار*، ح١١، ص٢٥٦.

٤. القصص: ٨٤.

٥. الأنعام: ١٦٠.

٦. البقرة: ٢٦١.

وقد ذكر القرآن لمجموعة من أهل الكتاب الذين تشرّفوا بالإسلام، أجرًا مضاعفًا أيضًا، إذ يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[١].

في المقابل، إذا افترى إنسانٌ وجيهٌ وكلامه مسموع على الله وعلى مقدّسات الدين، فإنّه حتى لو كان من أنبياء أولي العزم، فسوف يرى عذابًا مضاعفًا عن النّاس العاديّين، وسيُقطع حبل وريده، كما ورد في آيات: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[٢] و﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٣].

ولم يكن النّاس العاديّون الذين ادّعوا النبوة كذبًا أقلّ عددًا من الأنبياء المرسلين، ورغم ذلك لم يهدّدهم الحقّ تعالى بهذا الشكل الذي هدّد فيه نبيًا مرسلاً؛ لأنّ الأنبياء كانوا محلّ قبولٍ لدى النّاس وكان لكلامهم صبغة إلهيّة وإذا ما قالوا شيئًا فالنّاس تتقبّله. بعكس المتظاهرين بالنبوّة ومخترعي الدين الذين لم يكن لديهم مثل تلك المقبوليّة الإلهيّة.

وكذلك لنساء النبيّ ﷺ تكليفٌ خاصٌ؛ لأنّه كان لديهنّ حيثيتان: الأولى الإسلام، والثانية انتسابهم للنبيّ ﷺ؛ لذا كان عقاب ذنوبهنّ مضاعفًا أو عدة أضعاف عن الآخرين: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[٤].

إذا ارتكب أحد الأفراد الذين هم محلّ اهتمام النّاس عملاً غير لائقٍ، فسيكون التأثير

---

١. القصص: ٥٢-٥٤.

٢. الإسراء: ٧٣-٧٥.

٣. الحاقّة: ٤٤-٤٧.

٤. الأحزاب: ٣٠ و٣١.

السلبيّ لذلك العمل مضاعفًا مقارنةً مع عمل الآخرين القبيح. وذلك كأن يقوم أحدٌ بعملٍ غير جائز بلباس الدين.

وهذه القضيّة صادقةٌ حول المستضعفين والمستكبرين أيضًا؛ إذ يدعو المستعضعفون من الله في جهنّم أن يضاعف عذاب المستكبرين؛ لأنّهم أضلّوهم، فيجيبهم الحقّ تعالى أنّ عذابكم كعذاب المستكبرين مضاعفٌ مرّةٌ وأكثر؛ أي أنّ المستكبرين ارتكبوا المعصية وكذلك أضلّوا المستضعفين. ولكن من خلال البحث والتدقيق يتبيّن أنّ المستضعفين قد ارتكبوا ثلاثة ذنوبٍ: الأوّل: تقبّل الضلالة، الثاني: تقبّل أصل زعامة المستكبرين وقيادتهم، ثالثًا: تقوية المستكبرين واتّباع قادتهم وكبرائهم.

إذ يقول القرآن: ﴿...كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[١] و﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٢].

ولأنّ المستكبرين استهزؤوا بالقرآن واعتبروه أسطورة، فقد أضلّوا مجموعةً من النّاس؛ ولذلك سيحملون حِمل ضلالة أولئك على ظهورهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[٣].

ويقول نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله:

«أيمّا داعٍ دعا إلى الهدى فاتُّبع، فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيمّا داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبع عليه، فإنّ عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزاره»[٤].

---

١. الأعراف: ٣٨ و٣٩.

٢. الأحزاب: ٦٧ و٦٨.

٣. النحل: ٢٤ و٢٥.

٤. *نور الثقلين*، ج٣، ص٤٩، ح٦٢.

اقتراحٌ جاهلٌ

كثيراً ما يُرى القادة المستكبرون يدعون أتباعهم إلى القيام بالأعمال المحرّمة، ويقولون إذا ما ارتكبتم ذنبًا، فإنّ ذلك على عاتقنا ومسؤوليّتنا؛ إنّ مثل هذا الاقتراح جاهلٌ ولا أساس له ولن تُسلب المسؤوليّة عن هؤلاء الأتباع أبدًا. والضّال الظالم فضلاً عن ارتكابه ذنب «الضلالة»، فهو مرتكبٌ لذنب «الإضلال». فالذنب ليس كالمال حتى يقع في عهدة وذمّة شخصٍ آخر. إذ إنّ الذنب أمرٌ تكوينيّ والذّمّة أمرٌ اعتباريّ وتعاقديّ، فالذنب يُظلِم روح المذنب، وظلام الروح لا يطهر بمجرّد قول شخصٍ آخر «إنّ ذنبك على عاتقي». وفي يوم القيامة، عندما يُدفع للإنسان كتاب أعماله، سيتعجّب قائلاً: إنّ كلّ أعمالي الصغيرة والكبيرة موجودة في هذا الكتاب! من هنا، يصرّ القرآن على أنّه لن يقع ذنب أحدٍ على عاتق الآخر، ويقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١].

اتصال عمل الإنسان بالعالم

الإنسان قطعةٌ من قِطع عالم الخِلقة، ويستطيع التأثير في جزءٍ من العالم؛ وكما أنّه يتأثّر بالعالم فإنّ عمله سببٌ في تأثيره هو في العالم الخارجيّ. على هذا الأساس فإنّ لعمل الإنسان اتصالاً موضوعيًّا مع العالم ويؤثّر في ظهور الظواهر الحسنة والقبيحة، وإنْ كان يمكن للإنسان أن يعمل أحيانًا بشكلٍ مستقلٍّ ومن دون تأثير العوامل الخارجيّة في اتّخاذ قراراته.

بناءً عليه، إذا قيل إنّ عمل الإنسان الكذائي سبّب زلزالاً أو بعث على الوفيات الفجائيّة، فإنّ ذلك يمكن تبريره ثبوتًا؛ رغم أنّه لا يمكن إقامة البرهان إثباتًا على المصاديق الجزئيّة، إلّا أنّه بشكلٍ عام ثمّة علاقة مباشرة بين عمل الإنسان وحوادث

١. العنكبوت: ١٢.

العالم: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[١]، وتعدّ هذه الآية سندًا معبرًّا عن مصاديق كثيرة ومن جملتها صلاة الاستسقاء.

آيات حول اتصال عمل الإنسان بالعالم

الآيات ذات الصلة بارتباط عمل الإنسان بالعالم، عدة فئات:

الأولى: آياتٌ تتحدث عن العلاقة المباشرة بين عمل الإنسان وظواهر العالم، وليست معطوفة على حُسن العمل وقبحه؛ وإن كانت بعض الآيات تشير لزامًا إلى التحذير وإعلان الخطر؛ مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٢]. وتُذكّر آية أخرى بالنِّعم وتُعلن أنّه: إذا لم تقدّروا حقّ هذه النِعم وعصيتم، فقد تتبدل هذه النعم إلى عذاب أو تُسلَب منكم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: كان أبيعليه السلام يقول: «إنّ الله قضى قضاءً حتمًا ألّا ينعم على العبد فيُسلبها إيّاه، حتّى يُحدِث العبدُ ذنبًا يستحق بذلك النقمة»[٤].

وعدّ الإمام السجادعليه السلام ذنوبًا تسبّب تغيير النعمة: «الذنوب التي تغّير النِّعم البغي على النّاس والزوال عن العادة في الخير، واصطناع المعروف وكفران النِّعم وترك الشكر...»[٥]

الثانية: آياتٌ تتحدّث حول اتصال عمل الإنسان بالظواهر الحسنة والمرغوبة؛ مثل:

١. ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[٦]

---

١. الجن: ١٦.

٢. الرعد: ١١.

٣. الأنفال: ٥٣.

٤. *نور الثقلين*، ج٢، ص١٦٣، ح١٢٩.

٥. ن. م.، ص٤٨٧، ح٤٥.

٦. الجن: ٤.

٢. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[١].

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢]. بناءً على هذه الآية، فإنّ ثمّة علاقة قائمة بين التقوى والرؤية والقيم الداخليّة والخارجيّة.

٤. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[٣]

٥. ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤]. إذن توجد علاقة بين العمل الصالح والوصول إلى المكتسبات الدنيويّة النابعة من التقوى والصبر ولطف الله.

الثالثة: آياتٌ تتحدّث عن العلاقة بين عمل الإنسان والظواهر والنتائج السيّئة وغير السّارة؛ مثل:

١. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[٥].

٢. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

٣. ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[٧]

---

١. المائدة: ٦٥ و٦٦.

٢. الأنفال: ٢٩.

٣. الأعراف: ٩٦.

٤. يوسف: ٩٠.

٥. الأنفال: ٣٨.

٦. المؤمنون: ٤٤.

٧. الإسراء: ٨.

٤. ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾[١].

٥. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[٢]؛ أي عندما ينحرف الزعماء المرفّهون عن الطريق المستقيم، ويكتفي الآخرون بالتفرّج عليهم، ولا ينهونهم عن المنكر، فسوف تجري السنّة الإلهيّة في تدمير منطقة الرفاه والفسق.

٦. ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ... قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٣].

ومضمون هذه الآيات أنّه في الماضي، كان يوجد مَن هم أغنى حتى من قارون، ورغم ذلك فقد أهلكهم الله؛ لذلك ينبغي على قارون وأمثاله من القارونيّين أن يتعلّموا من دروس الماضين، وأن يأخذوا بعين الاعتبار النتيجة التي سيؤول إليها تكديس الأموال والذهب وأعمالهم غير الصالحة.

الرابعة: آياتٌ تدلّ على العلاقة بين العمل السيّئ لبعض البشر وآثاره غير السّارة؛ مثل:

١. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٤]؛ إذن توجد علاقة بين العمل السيّئ والحوادث السيّئة، وقد تكون المجازاة أقلّ من العمل أحيانًا.

٢. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ

---

١. الأنفال: ١٩.

٢. الإسراء: ١٦.

٣. القصص: ٧٦ و٧٧.

٤. الروم: ٤١.

أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[١]. وفق ما ذُكر في الآية فإنّ الله لم يمنع عنهم بعض النعم، بل أنبت عددًا قليلاً من شجر السدر لهم.

٣. ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[٢]. فمن خلال الإخبار عمّا حصل من تعذيبٍ للطغاة الماضين، فقد تمّ توجيه تهديدٍ ضمنيّ للمنكرين الحاليّين.

٤. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[٣].

بناءً على ما تقدّم، يجب على المؤرّخ، فضلاً عن دراسته للكتب التاريخيّة، أن يرى عن قُربٍ آثار الماضين، ليعلمَ أنّه إذا كان هناك الآن أشخاص يتمتّعون بإمكانات الرفاهيّة والقدرات الجيّدة، فيجب أن يعلموا أنّه كان يوجد أشخاص قبلهم أكثر قدرةً وأكثر ازدهارًا ورفاهية، إلاّ أنّهم أصبحوا أحدوثة وتمّ تدميرهم والقضاء عليهم.

٥. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ...﴾[٤]، ولكن انظر كيف كانت عاقبة الظالمين، إذ إنّنا أمرنا الماء بحفظ جسم فرعون لعدّة أيّامٍ على الشاطىء حتى يراه الآخرون ويعتبروا: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[٥]. ورغم ذلك يغفل الكثير من النّاس عن علامات قدرتنا؛ ولذلك لم تُغرق المياه جسد فرعون، بل لفظته إلى الشاطىء ورمته جانبًا. أمّا بالنسبة لسائر المجموعات التي كانت معه، فقد ابتلعتهم المياه ولم يبقَ لهم من أثرٍ: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٦].

٦. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٧]. ورغمّ أنّ ثمّة علاقة

---

١. سبأ: ١٥ و١٦.

٢. سبأ: ٤٥.

٣. غافر: ٢١.

٤. القصص: ٤٠.

٥. يونس: ٩٢.

٦. طه: ٧٨.

٧. الشورى: ٣٠.

بين عمل الإنسان السيّئ وبين المجازاة، ولكنّ الله يتعامل بالعفو والتغافل في العقوبات، ولا ينزل كلّ ما يستحقّه بعض المفسدين من عذابٍ ويعفو عن الكثير منه.

ومن الجدير ذكره أنّ الدعاء المشهور «يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير»[١] قد تمّ اقتباسه من هذه الآية أيضًا، ففي مقابل الكثير هناك القليل؛ يعني يعفو عن الكثير من الزلّات ويعاقب على القليل من غير المعفوّ عنه، ولم يقل «ويعفو عن أكثر» حتى يعاقب عن الكثير، وهذا الأمر يدلّ على سبق الرحمة والرأفة الإلهيّة.

الاستمهال والاستدراج الإلهيّ

يقول القرآن: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٢]؛ ولكن رغم ذلك نرى أن كثيرًا من الكافرين يتمتّعون بالنِعم الإلهيّة أكثر من المؤمنين.

والإجابة على ذلك هي أنّ المال غير البرَكة؛ إذ إنّه ليس كلّ مالٍ بركة. البرَكة هي ما تكون في مسار السعادة، وليس كلّ مال. من هنا يقول القرآن: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾[٣]. وفي آيةٍ أخرى يجيب القرآن على هذه الشبهة قائلاً: ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾[٤].

ويقول القرآن حول نعمة أموال المفسدين وأولادهم أيضًا: ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[٥]؛ لذلك لا تظنّوا

---

١. *البحار*، ج٧١، ص٧٥، ح٦٧.

٢. الأعراف: ٩٦.

٣. آل عمران: ١٧٨.

٤. آل عمران: ١٩٦ و١٩٧.

٥. التوبة: ٥٥.

أنّ هذه هي وسيلة رفاهيّتهم وراحتهم. ويقول في آيةٍ أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1].

تأثير إيمان الفاعل وكفره

من الممكن أن يُقال إنّه على أساس قانون السببيّة الشامل، فإنّ كلّ من يسعى سوف يرى نتيجة سعيه وكدّه، فالوصول إلى النتيجة لا علاقة له بإيمان الفاعل وكفره؛ فكلّ من يستفيد من العلوم التجريبيّة يمكنه الاستفادة من الطبيعة، ولا علاقة لذلك بحسن أفعاله وقبحها.

والجواب هو أنّ قانون السببيّة يُطبّق في المورد الآنف الذكر أيضًا؛ فهو يربط عالم الطبيعة بعالم ما وراء الطبيعة؛ لأنّ كلّ موجودٍ لا يكون وجوده عين ذاته لا يمكنه الاعتماد على نفسه ولا على من هو مثله، ولا بدّ له من الاتكاء على شيءٍ يكون وجودًا محضًا. ويقودنا نظام السببيّة، وهو سياقٌ للشّبهة، إلى إلهٍ هو مبدأٌ عامٌّ ومصدر الموجودات، ووجوده عين ذاته ويقول هذا النظام إنّه توجد علاقةٌ موضوعيّةٌ بين الموجود الممكن وعمله وبين الله، فإن كان لامرئٍ فكرٌ وعملٌ حسنٌ، فكلّ ذلك من فيضه ولطفه. فكلّ عالم الطبيعة وكذلك عالم الملكوت وحقائق جميع أشياء العالم بيده المستغنية والمقتدرة، فمن البديهيّ أن لا تُثمر الأشجار والنباتات من دون مطر: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[2]. وتُلقّح الأشجار والنباتات بواسطة الرياح، وتوجّه السحب بواسطة الرياح أيضًا لتروي الأراضي القاحلة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾[3]، فبأمرٍ من الله ينزل المطر من بين السحب على شكل قطراتٍ، وليس على شكل أنهارٍ

---

١. الأعراف: ١٨٢ و١٨٣.

٢. الجنّ: ١٦.

٣. السجدة: ٢٧.

وشلّالات، حتى لا يُقضى على المزارع والمراعي: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[١]. بناءً عليه، إنّ مَن يدير نظام العالم هو مَن بيده مُلك وملكوت كلّ شيء.

على هذا الأساس، فإنّ ملاكُ الشبهة والإشكال في الحقيقة هو نفسه مناط الإجابة، إذًا ثمّة علاقة غير منفصلة بين الدعاء، الصدقة، صلة الرحم، المعجزة... وبين العوامل والأسباب الطبيعيّة وما وراء الطبيعة، ولا يوجد أيّ شيءٍ خارج عن نطاق قانون السببيّة، والحقّ تعالى هو المدبّر لجميع هذه الأمور فقط، وذلك بصفته علّة الكلّ ومسبّب الأسباب. (أحيانًا يرى البشر عللاً وسطيّة على أثر غفلتهم وعوامل غير فطريّة، ولا يلتفتون إلى العلّة الأصليّة ومبدأ الكلّ ومصدر جميع الخيرات). فإذا ما نظر الإنسان من خلال هذه النظرة إلى الطبيعة، سوف يقول مثلاً عندما ينظر إلى أكبر وأقوى سدٍّ وجدارٍ حديديّ كسدّ الإسكندر: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾[٢]. إنّ هذا التواضع لهو تعليمٌ كبيرٌ لجميع أصحاب العلوم التجريبيّة والباحثين في عالم الطبيعة، وإذا كانوا محرومين من فضيلة هذه الرؤية بسبب ضيق نظرتهم العلميّة، فلا يرون سوى السبب المباشرة والعلّة القريبة، فيكون مثلهم كمثل قارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[٣].

آيات تجسّم الأعمال

تنقسم آيات تجسّم الأعمال إلى عدّة مجموعات:

الأولى: آياتٌ تدلّ على كون العمل حيًّا ومشهودًا بعد الموت؛ مثل:

١. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٤].

---

١. النور: ٤٣.

٢. الكهف: ٩٨.

٣. الكهف: ٧٨.

٤. الزلزال: ٦-٨.

٢. ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١].

٣. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[٢].

٤. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[٣].

تبصرة: تحدّثت الآية الثانية عن حضور العمل، وورد في الآية الثالثة عن كون العمل مُحضَرًا وأنّهم يُحضرون العمل، وتمّ الحديث في الآية الرابعة عن السبب المباشر والقريب للإحضار؛ أي أنّ النفس الإنسانيّة ذات هي التي تُحضِر جميع أعمالها بإذن الله سبحانه، وصحيحٌ أنّه في هذه الآية ورد النكرة في سياق الإثبات وليس النفي، ولكن بحسب خصوصيّة مورد الآية وسياقها، فإنّها دليلٌ على العموم؛ بمعنى أنّ كلّ نفسٍ وتمام النفوس تُحضِر كلّ ما قامت به.

وقال أمير المؤمنين:

«واعلم يا بن آدم أنّ وراء هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة، يوم لا تُقالُ فيه عثرةٌ، ولا يؤخذُ من أحدٍ فدية، ولا تُقبَلُ من أحدٍ معذرة، ولا لأحدٍ فيه مستقبلُ توبة، ليس إلّا الجزاءُ بالسيّئات، فمن كان من المؤمنين عملٌ في هذه الدنيا مثقالَ ذرةٍ من خيرٍ وجده، ومن كان من المؤمنين عملٌ في هذه الدنيا مثقالَ ذرةٍ من شرٍّ وجده»[٤].

وعن الإمام الصادقعليه السلام: «إذا كان يوم القيمة رفعَ الإنسانُ كتابَه ثمّ قيل له: إقرأه، ...إنّه يذكره، فما من لحظةٍ ولا كلمةٍ ولا نقلِ قدمٍ إلّا ذكرَه، كأنّه فعلَه تلك الساعة»[٥].

---

١. الكهف: ٤٩.

٢. آل عمران: ٣٠.

٣. التكوير: ١٤.

٤. *نور الثقلين*، ج٥، ص٦٥٠، ح١٧.

٥. م.ن، ج٣، ص٢٦٧، ح١١٤.

الثانية: آياتٌ تدلّ على أنّ الإنسان سوف يرى ما يقدّمه من عملٍ حسنٍ و «خير» أو ما يقوم به من عملِ «شرّ» وقبيح. وبالطبع، إنّ العامل غير منفصلٍ عن عمله. فإن كان عمل الإنسان من النوع الخيّر، فسيكون محلّه عند الله، وإن كان العمل شرًّا، فسيُبتلى الإنسان بالغضب الإلهيّ:

١. ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[١].

٢. ﴿**وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٢].

ويقول الإمام عليّ عليه السلام، بعد تأكيده الصارم على الاستغفار من أجل زيادة الرزق: «وقدّموا ما استطعتم من عمل الخير تجدوه غدًا»[٣].

٣. ﴿**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**﴾[٤]

الثالث: آياتٌ تدلّ على أنّ جميع الأعمال، وحتى أسرار الإنسان ورموزه الخفيّة، سوف تظهر وتبدو في يوم القيامة؛ مثل:

١. ﴿**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**﴾[٥]. وحتى الحبّ والبغض المخفيّان ينكشفان. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «حقيقٌ على اللّه أن لا يُدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّةٍ من خردلٍ من حبّهما»[٦].

---

١. البقرة: ١١٠.

٢. المزّمل: ٢٠.

٣. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٥٢، ح٣٩.

٤. النبأ: ٤٠.

٥. البقرة: ٢٨٤.

٦. *نور الثقلين*، ح١، ص٣٠٢، ح١٢١٢.

٢. ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[١]. هو يومٌ ينكشف فيه النّاس بجميع وجودهم، ولا تبقى ذرّة من ذرّات وجودهم ولا سرٌ من أسرارهم مخفيًّا، والله تعالى عالمٌ ومطلعٌ على جميع ذلك. والآية الآنفة الذكر من قبيل آيات مثل: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٢]، ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[٣]؛ فعلم الحقّ تعالى محيطٌ بكلّ الأشياء، والله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، بل يحول بين الإنسان وأفكاره وعقائده ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[٤].

الرابعة: آياتٌ تدلّ على أنّ الإنسان يصل إلى جزائه الكامل مقابل عمله، وأنّ ما اكتسبه سوف يُدفع له كاملاً؛ مثل:

١. ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥].

٢. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٦].

٣. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٧].

٤. ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٨].

وفي حديثٍ عن النبيّ ﷺ مخبراً عن الله جلّ جلاله:

«فبعزّتي حلفت، وبجلالي أقسمت أنّه لا يتولّى عليًّا عبدٌ من عبادي إلاّ زحزحتُه عن النّار وأدخلته الجنّة، ولا يُبغضه عبدٌ من عبادي ويعدل عن ولايته إلاّ أبغضته وأدخلته النّار وبئس المصير»[٩]

الخامسة: آياتٌ تدلّ على أنّ أعمال الإنسان تُفحص وتقوّم؛ كما يُختبر المحصول

---

١. المؤمنون: ١٦.

٢. الأحزاب: ٥٤.

٣. آل عمران: ٢٩.

٤. الأنفال: ٢٤.

٥. البقرة: ٢٨١؛ آل عمران: ١٦١.

٦. آل عمران: ٢٥.

٧. الزمر: ٧٠.

٨. آل عمران: ١٨٥.

٩. *نور الثقلين*، ج١، ص٤٢٠، ح٤٧٢.

الزراعيّ من خلال التذوّق حتى يتمّ تحديد الناضج من غير الناضج منها وكذلك طعمها. وعمل الإنسان يتمّ اختباره أيضًا، فيتذوّقه الإنسان حتى يفهم حلاوته من مرارته. فكم من عملٍ تجلّى حلاوةً في الدنيا، ثمّ ظهرت مرارته في الآخرة أو بالعكس؛ ذلك أنّه «حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفّت النّار بالشّهوات»[١]؛ ولذا يقول تعالى: ﴿**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ...**﴾[٢].

السادسة: آياتٌ تدلّ على أنّ الجزاء هو عين العمل، وأنّ عمل الإنسان هو عين الجزاء. وفي هذا المجال توجد الكثير من الآيات؛ من جملتها:

١. ﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٣].

٢. ويتحدّث القرآن عن ذلك بلسان الحصر أحيانًا: ﴿**وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٤]، ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٥]، ﴿**فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٦]؛ إذن الذين عملوا السيّئات لن ينالوا سوى جزاء ما عملوه. و﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا**﴾[٧]. وليس بإمكان الإنسان أن يرى جزاءً إلّا عمله أساسًا: ﴿**هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٨].

السابعة: آياتٌ تدلّ على كيفيّة عرض العمل على الإنسان يوم القيامة؛ مثلاً في بعض الآيات يظهر عمل الإنسان على شكل غلٍّ وسلاسل حول رقبة الإنسان:

١. ﴿**وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٩]، بناءً عليه إنّ حقيقة عمل الإنسان ستُعلّق حول رقبته على شكل غلٍّ وسلاسل.

---

١. *البحار*، ج٦٧، ص٧٨، ح١٢.

٢. يونس: ٣٠.

٣. النمل: ٩٠.

٤. الصافات: ٣٩.

٥. طور: ١٦؛ والتحريم: ٧.

٦. القصص: ٨٤.

٧. غافر: ٤٠.

٨. الأعراف: ١٤٧.

٩. سبأ: ٣٣.

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام في دعاء ختم القرآن: «وصارت الأعمال قلادة في الأعناق»[١]

٢. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[٢]. على هذا الأساس، تكمن داخل اللذّة الكاذبة حسرةٌ صادقة، وفي يوم القيامة الذي هو وعاء تجلّي الحقّ و الصدق، سوف ينكشف ويظهر ذلك.

وفي إجابة أمير المؤمنين عليه السلام على أخيه عقيل عندما طلب مقدارًا من قمح بيت المال حتى يسدّ جوعه وجوع أسرته، قام عليه السلام بتسخين حديدة، ثم أدناها من أخيه عقيل وضربه على يده بها، فضج عقيل ضجيجًا شديدًا من ألمها. فقال عليه السلام: أتئنّ لحديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرّني إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه! ثمّ أضاف: «أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا»[٣]. (يبدو انّ هناك خطًا في الكتاب، فالمقطع الثاني في غير محلّه) (لا يوجد خطأ ومحل الشاهد تجلي الصورة الحقيقية وتجسدها(غسان).

يرى الإنسان في عالم الدنيا الحقائق الباطنيّة والأخرويّة للأشياء أحيانًا، وذلك في منامه الذي هو نافذةٌ صغيرة إلى الملكوت؛ ويراها بشكلٍ مناسب؛ كما أنّ العلم يتمثّل على شكل ماءٍ زلالٍ والحكمة على شكل أسد. فمن يرى الحلم في نومه، إنّما يقيم علاقة حضوريّة مع اللوح المحفوظ، لوح المحو والإثبات، والكتاب المبين، ويطّلع على أمورٍ غيبيّة في الماضي أو المستقبل؛ كما يخبر النبيّ يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٤]. فقد رأى النبيّ يوسف عليه السلام هذه الحقيقة في عالم المثال بشكلٍ منفصل، وعندما وصلت إلى الظهور والتأويل قال عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ

---

١. *الصحيفة السجّادية*، الدعاء الثاني والأربعين.

٢. البقرة: ١٦٧.

٣. *نهج البلاغة*، الخبطة ٢٢٤، البند ٨.

٤. يوسف: ٤.

قَبْلُ﴾[1]. عندما يتكوّن العلم من عالَم الفكر والذهن على شكل كتابةٍ في الخارج، فهذا يعني أنّه أولاً منزّهٌ عن المادّة والصورة، ومن ثمّ تجسّدت في قالب المادّة والصورة، وهذان النحوان من الوجود في طول بعضهما، وكذلك في قوس الصعود يكون عمل الإنسان ـ مثل الغيبة ـ تظهر على شكل طعام كلاب جهنّم؛ كذلك تتجلّى إراقة ماء وجه النّاس في الدنيا، ويتمّ التعرّض لهم بلسان سليط يوم القيامة على شكل أشواكٍ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾[2].

والجدير بالذكر أنّه، وكما تمّت الإشارة سابقًا، على شُرُف الموت، تتجسّم عقائد الإنسان وأخلاقه وسلوكه ويلاحظها الإنسان. من هنا يقول العلاّمة الجليل المجلسي رحمه الله:

«قال الشيخ البهائيّ (قدّس الله روحه):

تجسّم الأعمال في النشأة الأخرويّة قد ورد في أحاديث متكثّرة من طرق المخالف والمؤالف، وقد روى أصحابُنا رضي الله عنهم عن قيس بن عاصم قال: ...فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا قيس إنّ مع العزّ ذُلًّا، وإنّ مع الحياة موتًا، وإنّ مع الدنيا آخرة، وإنّ لكلّ شيء حسيبًا، وإنّ لكلّ أجلٍ كتابًا، وإنّه لا بدّ لك يا قيس من قرينٍ يُدفنُ معك وهو حيّ، وتُدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريمًا أكرمَك، وإن كان لئيمًا أسلمك، ثمّ لا يُحشر إلاّ معك، ولا تُحشر إلاّ معه، ولا تُسأل إلاّ عنه، فلا تجعله إلاّ صالحًا، فإنّه إن صلُح آنست به، وإن فسُد لا تستوحش إلاّ منه، وهو فعلك. (انتهى الخبر).

ثم قال: قال بعض أصحاب القلوب: إنّ الحيّات والعقارب، بل والنيران التي تظهر في القبر والقيامة هي بعينها الأعمال القبيحة والأخلاق الذميمة والعقائد الباطلة التي ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة، وتجلببت بهذه الجلابيب، كما أنّ الروح والريحان والحور والثمار هي الأخلاق الزكيّة والأعمال الصالحة والاعتقادات الحقّة التي برزت في هذا العالم بهذا الزيّ وسمّيت بهذا الاسم،

---

١. يوسف: ١٠٠.

٢. الغاشية: ٦ و٧.

...لذا يقول تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] ... بمعنى الحال، فإنّ قبائحهم الخلقيّة والعمليّة والاعتقاديّة محيطة بهم في هذه النشأة، وهي بعينها جهنّم التي ستظهر عليهم في النشأة الأخرويّة بصورة النّار وعقاربها وحيّاتها، وقس على ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[2] وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾[3] ليس المراد أنّها تجد جزاءه، بل تجده بعينه، لكن ظاهرًا في جلباب آخر، وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]؛ ...كقولهﷺ: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضّة فإنّما يجرجر في جوفه نار جهنّم»، وقولهﷺ: «الظلم ظلماتٌ يوم القيامة»، وقولهﷺ: «الجنّة قيعان وإنّ غرّاسها: سبحان الله وبحمده...» انتهى كلامه رفع الله مقامه[5].

الثامنة: آياتٌ تدلّ على أنّ لأعمال الإنسان ظاهرًا وباطنًا؛ مثلاً أكل مال النّاس هو أكل النّار. ومصداقه الكامل أكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[6].

ويمكن عرض مثال آخر، وهو تذوّق عذاب النّار من قِبل الإنسان الذي يكنز المال في الدنيا ويمتنع عن موارد الإنفاق الضروريّة: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[7].

التاسعة: آياتٌ تدلّ على أنّه عندما يصبح الظلم، على سبيل المثال ـ الذي هو في

١. العنكبوت: ٥٤.
٢. النساء: ١٠.
٣. آل عمران: ٣٠.
٤. يس: ٥٤.
٥. *البحار*، ج٧، ص٢٢٨، الرواية ١٤٨.
٦. النساء: ١٠.
٧. التوبة: ٣٥.

الحقيقة نارٌ ـ ملكةً في روح الإنسان، يصبح الإنسان بذاته الحطب والمواد المحرقة لجهنّم؛ كما سيكون رؤوس الظلم والفتنة موادَّ حارقة لجهنّم:

١. ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[١].

٢. ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٢].

٣. ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[٣].

٤. ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[٤].

العاشرة: آياتٌ تدلّ على أنّه في يوم القيامة تكون قدرة عمل الإنسان قويّة لدرجة أنّها تجعل من العامل على صورة العمل؛ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٥]. وقد نُقل حديثٌ عن نبيّ الإسلامﷺ من مصادر السنّة والشيعة، كما ذُكر سابقًا، أنّ كلّ مجموعة تُحشر في ساحة المحشر على شكلٍ حيوانيّ؛ مجموعة على شكل نملٍ، ومجموعةٌ أخرى على شكل قِردٍ، و...[٦]

ومن البديهيّ أنّه إذا لم تصبح نفس الإنسان قردًا، فلن يتجلّى على هذا الشكّل، وإذا لم يكن في الدنيا طمّاعًا وجشعًا وعابدًا للمال، فلن يتجسّد في الآخرة على صورة النمل.

التبرير الماديّ لتجسّم العمل

من الممكن تبرير تجسّم العمل وتفسيره في إطار القوانين والعلوم الماديّة من خلال نكتتين؛ ولكن هذا التبرير مرفوض كما سيظهر معنا، ولكننا سنعمل على البحث في النكات التي يمكن أن تكون مبنًى للتبرير الماديّ لتجسّم العمل، وننقدها:

النكتة الأولى؛ لقد ثبت اليوم أنّه لا يوجد شيءٌ يفنى؛ حتى أعمال الإنسان التي تظهر

---

١. الجن: ١٥.

٢. البقرة: ٢٤.

٣. آل عمران: ١٠.

٤. الأنبياء: ٩٨.

٥. النّبأ: ١٨.

٦. *نور الثقلين*، ج٥، ص٤٩٤، ح٢٠.

على شكل طاقاتٍ مختلفة، فإنّها لا تفنى في العالم، وعلى سبيل المثال أثناء التحدّث، ينتشر الصوت الذي هو عبارة عن أمواجٍ صوتيّة خاصّة، في الفضاء المحيط، فترتطم هذه الأمواج بجزيئات الهواء الموّاجة والجدران المحيطة والأجسام، وتتحوّل إلى طاقةٍ أخرى، وثمّة احتمالٌ أيضًا أن يتغيّر شكل هذه الطاقة الجديدة، على دفعاتٍ، إلى أشكالٍ أخرى، ولكنّها لا تفنى أبدًا. وكذلك، حركات يدي الإنسان وقدميه هي نوعٌ من الطاقة، وهذه الطاقة الميكانيكيّة لا تفنى أبدًا؛ حتى لو أنّ ثمّة احتمالاً بأن تتحوّل هذه الطاقة الميكانيكيّة إلى طاقة حراريّة أو طاقة أخرى. على هذا الأساس، فإنّ المواد سواءٌ أكانت طبيعية أم عبارة عن الطاقات الموجودة فيها إنّما هي ثابتة ومستقرة.

النكتة الثانية؛ لقد أثبتت بحوث العلماء واختباراتهم بنحوٍ حتميّ أنّ هناك علاقة قريبة بين «المادّة» و«الطاقة»، وفي الحقيقة، المادّة والطاقة هما مظهران لحقيقة واحدة، و«المادّة» هي تلك الطاقة المتراكمة والمضغوطة نفسها التي لديها قابلية الانتشار، و«الطاقة» هي تلك المادّة المنتشرة ذاتها. ويتّضح من هذا المطلب، أنّه كلاًّ من المادّة والطاقة يمكنها أن تتحوّل إلى الأخرى في ظلّ شروطٍ محدّدة.

وأعمال الإنسان وأقواله، وهي طاقاتٌ مختلفة، لا تمُحى ولا تفنى أبدًا؛ بل يمكن جمعها مرةً أخرى بأمرٍ من اللّه لتتشكّل على صورة جسمٍ؛ وسيكون كلّ عملٍ جسمًا متناسبًا مع خصائصه طبعًا، أي أنّ الطاقات المستخدمة في سبيل الإصلاح والخدمة والصلاح والتقوى، سوف تتشكّل في صورةٍ جميلةٍ تتناسب مع ذلك، والطاقات التي أُستخدمت في سبيل الجور والظلم والقبح والفساد سوف تتجسّم في صورةٍ قبيحة وذميمة ومنفّرة.

إنّ ما ذُكر أعلاه هو أقصى ما يمكن تقديمه من أجل التبرير الماديّ لتجسيد العمل، وسننظر الآن في نقد هذا التبرير.

نقد التبرير الماديّ لتجسّم العمل

إنّ ما تمّ اعتباره يقينيًّا ومسلّمًا به في علم الفيزياء هو، أوّلاً الأصل الموضوعيّ والمفترضات التجربيّة، وكلّ أصلٍ موضوعيّ يحتاج إلى أصلٍ بديهيّ.

وثانيًا فإنّه مع التسليم بكونه من الأصول والعلوم البديهيّة، إلا أنّ ما يتشخّص هو شاكلة العمل والهيكل الخارجيّ؛ فالهيكل الخارجيّ للعمل هو الأمر المشترك بين الجيّد والسيّئ، الصالح والطالح؛ مثلاً إعطاء المال إلى الآخرين هو حركةٌ مشتركة بين أن يكون بقصد القرض الحسن، أو بنيّة الربا أو الهبة. وليس لهذه العناوين وجودٌ خارجيّ ومادّيّ، فما هو في الخارج متن الحركة؛ كما أنّ النظر إلى المرأة الأجنبيّة حركةٌ فيزيقيّة قد تكون بقصد اللّذة المحرّمة أو من دون قصد اللّذة. كذلك، القيام أثناء دخول شخصٍ ما، فمن الممكن أن يكون ذلك بقصد الاحترام أو بقصد توجيه الإهانة. إنّ كلّ هذه الحركات متشابهة ولا يوجد لتمايزها تبريرٌ مادّيّ، بل إنّ محور إطاعتها وعصيانها هو تلك «النيّة» التي تعطي للعمل عنوانه وقيمته.

ثالثًا: لا ينحصر الكلام عن تجسّم العمل في الأعمال الجوارحيّة حتى نبني على تبرير ذلك المحمل الماديّ، بل إنّ الآراء والعقائد أيضًا تدخل في باب تجسّم العمل، والمقصود من العمل في هذا الباب ليس العمل الفيزيقيّ لليد فقط، بل يشمل القدم، العين، الأذن واللسان؛ ولذلك فقد ورد في الروايات: «إنّ اللّه يحشر النّاس على نيّاتهم يوم القيامة»[١] و«لكلّ امرىءٍ ما نوى»[٢]. على هذا الأساس، فكما أنّ التصوّرات الكلّيّة وإنجازات العقل النظريّ مجرّدة وليس لها تبريرٌ مادّيّ، كذلك فإنّ إنجازات العقل العمليّ كالنيّة والخلوص مجرّدة وغير قابلة للتبرير الماديّ.

انطلاقًا من ذلك، يقول القرآن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ

---

١. *وسائل الشيعة*، ج١، ص٤٨، ح٨٧.

٢. ن. م.، ج١، ص٤٩، ح٩٢.

سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[١]؛ يعني أنّ كلّ نفسٍ ترى نفس عمل الخير وعمل السوء وذلك العنوان الذي أعطته للعمل، وليس مصاديقه وموادّه الأوّليّة. ومن البديهيّ أنّ الخير والشرّ مفهومان وليسا ماهيّتين موجودتين خارج ذات الفرد، وإن كان لهما مصداق، ولا شكّ أن للخير مصداقًا ذاتيًّا، كما أنّ للشر مصداقًا عَرَضيًّا؛ لأنّه لا يوجد شرٌّ بالذات.

وينقل المرحوم الكلينيّ رحمه الله أنّ المَلاك يظهر للإنسان أثناء الموت على صورة لطفٍ وإحسانٍ، ويرافقه في جميع حالاته ويبشّره في أحوال القبر ويوم القيامة بكرامةٍ من الله ورضوانٍ، فيقول الإنسان له: مَن أنت رحمك الله؟ فيقول: أنا السرور الذي أدخلته على فلان، مثلاً بالسرور الذي أوجدته بحلّ مشكلته[٢].

وورد في حديثٍ آخر أنّ روح العمل يتمثّل في صورةٍ خاصّة (وليس الهيكل والحركة) مثل الصلاة، الزكاة، الحجّ والعمرة، الإحسان وأجملها على وجه الخصوص «ولاية آل محمّد» (صلوات الله عليهم أجمعين)[٣]. والهدف هو أنّ التبرير المادّيّ، رغم توفيره الأرضيّة لأجل تقبّل وحدة الجزاء والعمل ويخفّف من استبعاد موضوعيّة (عينيّة) الثواب والعقاب، إلاّ أنّه لا يشكّل الحلّ النهائيّ للمطلب والمُعضلة.

شبهة الفخر الرازيّ والإجابة عليها

يقول الفخر الرازيّ:

«اعلم أنّ العمل عرضٌ لا يبقى، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة؛ فلا بدّ فيه من التأويل وهو من وجهين: الأوّل: أنّه يجد صحائف الأعمال... والثاني: أنّه يجد جزاء الأعمال. وقوله تعالى (يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت محضرًا) يحتمل أن

---

١. آل عمران: ٣٠.

٢. *الكافي*، ج٢، ص١٩١، ح١٢.

٣. *البحار*، ج٦، ص٢٣٤، ح٥٠.

يكون المراد أنّ تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى: أنّ جزاء العمل يكون محضرًا...»[1]

والإجابة على ذلك هي أنّ ما يحدث في الخارج ليس عملاً معنونًا بعنوانٍ خاصّ، بل عبارة عن سلسلة من الحركات التي تفنى. العمل هو ذلك العنوان الاعتباريّ المرتبط بروح العامل؛ فللصلاة مثلاً حركاتٌ لا تبقى، ولكن ما يُعرف بعنوان العمل هو ذلك الأثر الذي يبقى في روح الإنسان المصلّي؛ لذلك سوف يظهر في القبر على شكلٍ نورانيّ؛ لأنّه نابعٌ من النيّة وإرادة الروح، ويتمتّع بنوعٍ من الثبات الداخليّ.

الخلاصة هي أنّ الأعمال الفقهيّة والحقوقيّة من سنخ الاعتباريّات التي ليس لها وجود موضوعيّ حتى تقع ضمن نطاق بحوث الوجود والعدم في الحكمة وعلم الكلام، وحتى تتصف بكونها جوهرًا أو عرضًا، بل هي من سنخ عناوين الينبغيّات الاعتباريّة التي لا تندرج أبدًا تحت المقولات العشرة وأمثالها، فهي ليست جوهرًا ولا عَرَضًا. وتصوّر العرضيّة للأعمال الفقهيّة والحقوقيّة من باب خلط التكوين بالاعتبار، وفي بعض الموارد تكون آثار هذا الخلط غير مباركة. والأمور الاعتبارية والعناوين المُعتَبرة في الأخلاق، الفقه والحقوق محفوفة بالأمر التكوينيّ والحقيقيّ طبعًا؛ لأنّها من جهةٍ تملك المستند الحقيقيّ والتكوينيّ التي تنشأ منه، ولديها أصلٌ واقعي تنشأ منه، ومن جهةٍ أخرى لديها الآثار الحقيقيّة والتكوينيّة التي تظهر في روح الإنسان العامل والمتّصف والمتخلّق، وسوف تتبلور في المعاد الذي هو وعاء ظهور جميع الحقائق وبروز جميع الأمور التكوينيّة. والبحث حول المبدأ التكوينيّ للأخلاق، الفقه والحقوق خارج عن نطاق رسالة هذا البحث، وسوف يُطرح البحث حول الآثار التكوينيّة والحقيقيّة للعناوين الاعتباريّة المذكورة ويتّضح الأمر في ثنايا هذا الأثر.

ويقول العلاّمة المجلسيرحمه الله:

«القول باستحالة انقلاب الجوهر عرضًا والعرض جوهرًا في تلك النشأة مع القول بإمكانها في النشأة الآخرة قريبٌ من السفسطة؛ إذ النشأة الآخرة ليست إلّا

---

١. *التفسير الكبير*، ج٧-٨، جزء ٣، ص١٧.

مثل تلك النشأة، وتخلّل الموت والاحياء بينهما لا يصلح أن يصير منشأ لأمثال ذلك»[١]

تجسّم الخيانة

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢]. والله قادرٌ على إحضار أيّ ذرّةٍ، سواء أكانت في السماء أو في الأرض أو تحت الحجارة في يوم القيامة؛ كما جاء في القرآن: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٣].

إنّ ظاهر الآية يفيد بأنّ الخيانة نفسها سوف تتجسّم، وأنّ الحقّ تعالى الذي يستطيع يوم القيامة إحضار حتى ذرّةٍ صغيرة جدًا، يمكنه أيضًا إحضار غلولٍ (مثل المال المغتصب)؛ كما يقول أيضًا: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[٤].

على كلّ حال، يُستنتج من الآيات أعلاه أنّ المال الذي تمّت خيانته سوف يأتي إلى ساحة المحشر؛ ولذلك يؤكّد النبيّ ﷺ بشدّة على ردّ الأمانة؛ حتى لو كانت بمقدار إبرة وخيط: «ردّوا الخيط والمخيط»[٥].

ويقول نبيّ الإسلام ﷺ:

«إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان...» يعني على أساس العلم بظاهر الحال. إذن، إذا قام أحدٌ ما بالاستيلاء على مال الآخر على أساس بيّنة أو قَسَمٍ، حتّى لو كان بناءً على حكمٍ صحيح صادرٌ من النبيّ، أو الإمام، أو القاضي العادل، فما أخذه في الحقيقة هو قطعةٌ من النّار، ولذلك يضيف النبيّ ﷺ: «فإنّما قطّعت له به قطعة من النّار»[٦].

---

١. *البحار*، ج٧، ص٢٢٩.
٢. آل عمران: ١٦١.
٣. لقمان: ١٦.
٤. الأنبياء: ٤٧.
٥. مجمع *البيان*، ج٢، ص٨٧٣.
٦. *وسائل الشيعة*، ج٢٧، ص٢٣٢.

كان «رفاعة بن زيد» من أصحاب النبيّ ﷺ المقرّبين منه، وقد تعرّض لسهمٍ قاتل في إحدى الغزوات. فقال النّاس: هنيئًا له الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: «كلاّ، والذي نفسي بيده، إنّ الشّملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تُصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا». إذن، لقد ودّع رفاعة الدنيا شهيدًا، ولكن بناءً على قول النبيّ ﷺ فإنّه مذنبٌ؛ لأنّه أخذ شيئًا من مال النّاس من دون حقّ، في حين أنّه كان عليه الانتظار حتى يتمّ توزيع الثروة العامّة بين كافة أفراد المسلمين بشكلٍ عادل حتى لا يأخذ أحدٌ نصيبًا وسهمًا أكثر من غيره[١]. (لم أجد هذا الحديث في المصدر المذكور، وهنا يذكر أنّ رفاعة هو المقتول، بينما في مصادر أهل السنة الشهيد هو عبدٌ اسمه مِدعم قدّمه رفاعة إلى النبيّ ﷺ ولم أجد الحديث في مصادر الشيعة)

ونقل في تفسير نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام:

«...انّه كان في الغنيمة التي أصابوها يوم بدر قطيفة حمراء ففقدت، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ما لنا لا نرى القطيفة، ما أظن إلاّ رسول الله أخذها، فأنزل الله في ذلك ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ فلانًا غلّ قطيفة فأحفرها هنالك، فأمر رسول الله ﷺ بحفر ذلك الموضع فأخرج القطيفة».[٢]

على كلّ حال، إذا خان أحدٌ الأمانة، فسوف تتجسّم تلك الخيانة نفسها في القيامة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجالهم»[٣]

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا وضع الميّت في قبره مثّل له شخصٌ، فقال له: يا هذا كنّا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلّفوك وانصرفوا عنك، وكنتُ عملك فبقيت معك. أما إنيّ كنت أهون الثلاثة عليك»[٤].

---

١. *الإمام عليّ، صوت العدالة الإنسانيّة*.

٢. *نور الثقلين*، ج١، ص٤٠٦، ح٤١٨.

٣. *نهج البلاغة*، الحكمة ٧.

٤. *فروع الكافي*، ج٣، *كتاب الجنائز*، ص٢٤٠، ح١٤.

وفي حديثٍ آخر؛ يُسأل الميّت في قبره عن خمس، عن صلاته وزكاته وحجّه وصيامه وولاية أهل البيتعليهم‌السلام. فتقول الولاية للأربع: «ما دخل فيكنّ من نقصٍ فعليّ تمامه»[1].

---

١. ن. م.، ص٢٤١، ح١٥.

يُعدّ موضوع المعاد من أهم المباحث الكلاميّة والفلسفيّة التي أثارت جدلًا واسعًا، وأخذت قسطًا وافرًا من البحث والتقصّي، حول أصل إثباته وكيفيته وسائر تفاصيله وجزئياته.

وقد اختلفت النتائج باختلاف المباني والمناهج، إذ باختلاف المباني تختلف المعاني، فهناك من تناول الموضوع بمنهجية نقلية صرفة، والاعتماد على ما ورد في القرآن والروايات الشريفة، وآخر تطرّق اليه بمنهج عقلي: كلامي أو فلسفي، ناهيك عن المنهج العرفاني المعتمد على الكشف والشهود. علمًا بأنّ أصل المعاد، ووجود يوم الجزاء، لايقتصر على الدين الاسلامي، بل إنه قد شغل جميع الاديان التوحيديه وحتى غير التوحيدية، وما مسألة التناسخ المدّعاة عند بعض أرباب الديانات الوضعية، الّا شبح خاطئ يكشف عن قلق الانسان الوجودي حيال مصيره ومستقبله بعد الموت.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com

تطبيق المركز